الأخلاق

من منظور التعايش والقيم الإنسانية

تأليف

محمد تقي الفلسفي

ترجمة

جعفر صادق الخليلي

المجلد الثاني

مؤسسة البعثة
بيروت

الأخلاق

من منظور التعايش والقيم الإنسانية

هذه مجمـوعـة من المقالات للعلاّمة الفلسفي،
الخطيب الشهير، كان قد ألقى بعضها في محاضرات، ثم
أعاد النظر فيها شرحاً وتوضيحاً وتنقيحاً، وأعدَّها للنشر.

الأخلاق

من منظور التعايش والقيم الإنسانية

المجلد الثاني

تأليف:
الأستاذ محمد تقي فلسفي

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية غاردن بالاس - ص.ب: ٢٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الحادي

«مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْناهُ صانَهُ
عَنْ دَناءَةِ شَهْوَتِه وَزُوْرِ مُناهُ»
الإمام علي(ع)

الأخلاق ومعرفة الذّات

لقد استطاع الإنسان اليوم أن ينير بنور العلم زوايا الطبيعة المظلمة، ليطّلع إلى حد ما على بعض مجهولات هذه الكرة الأرضية، ويتعرَّف على جانب من خفايا عللها ومعلولاتها. لقد هيمن الإنسان اليوم على الماء واليابسة، وسخَّر منتجات الطبيعة ومعادنها لخدمته ولتحسين ظروف حياته، كما قد رصد المجرَّات، وقاس المسافات ما بين الأجرام السماوية، وتمكَّن من معرفة حالات هذا الكون العظيم بعض الشيء، واستطاع أن يتحرَّر من قوة الجاذبية الأرضية، ووضع قدمه على تربة القمر، وهو الآن في صدد غزو الفضاء. ولكنه على الرغم من هذه الإنجازات التي حققها في شتّى الحقول العلمية، لم ينجح في تدبير أموره وإدارتها، فلم يقض على الجريمة في الأرض، ولم يصنع من نفسه إنساناً صادقاً يتحمّل المسؤولية، ويمحو من حياته الحروب وإراقة الدماء، وينشر العدالة في العالم، ويوفّر لنفسه أسباب السعادة والفلاح.

«في هذه المدنية التي رفعت الإنسان إلى ما فوق ما كان أسلافنا يتصورون، لماذا يندر أن نعثر على أسباب السعادة والتمتع الحقيقي واللذة الواقعية؟ ألَسْنا متقدمين على الأجيال السابقة، وأقرب إلى الكمال؟ أليست آذاننا تسمع عبر أسلاك التلفون أحاديث القارات البعيدة، وأعيُننا ترى من وراء عدسة التلسكوب آلاف الملايين من النُّجوم، وتبصر بها في قطرة الماء عالماً من الحركة والحياة؟ ألا ينتقل

صوتنا في لحظة واحدة إلى أقصى نقاط الأرض، أو يسجَّل على قرص أسود حتى الأبد؟ ألسنا نطوي المسافات في الطائرة بسرعة لم تكن تخطر حتى على بال أسلافنا؟ فلماذا إذن، بعد كل هذا التقدّم الفني، لم يبلغ الإنسان السعادة التي ينشدها، ولم تهدأ الآلام التي يحسّ بها في باطنه؟ لماذا نجده عاجزاً عن معرفة طريق التمتع بنتائج مكتسباته؟ فما سبب اختلال التوازن هذا؟ وأين يكمن أصل هذا الألم الروحي»[1].

معرفة الذّات

في الجواب عن هذا التساؤل لا بدَّ من القول إن خيبة الإنسان وحرمانه ناجمان عن عدم معرفة الذّات. إن المدنية الحاضرة التي تسود عالمنا اليوم ليست منسجمة مع فطرة الإنسان الطبيعية وبُنيته، إذ في هذه المدنية قد نُسي الإنسان وقُمعت الإنسانية، وأخلَّ بالتوازن بين المادة والروح. هذه المدنية تراعي الجانب الحيواني في الإنسان ـ وهو نصفه ـ رعاية تتجاوز الحدّ، وتهمل الجانب الروحي فيه ـ وهو نصفه الآخر ـ إهمالاً يتجاوز الحد أيضاً. عناية الناس في هذه المدنية تكاد تكون مقصورة على الماديات، فهي ترى أن سعادة الإنسان لا تكون إلّا في إرضاء الغرائز وإشباع الشهوات. إنهم يستزيدون من اللذّات ولا يقيمون وزناً للسموّ الروحي والتكامل المعنوى.

«يقول الدكتور (كارل) في مقدّمة كتابه: إن هذه المدنية الآلية التي تسير في هذا الطريق ليست جديرة بالنجاح، لأنها تتقدّم نحو الانحطاط. إن بريق علوم المادّة الميّتة قد سحر الناس بحيث إنهم نسوا أنفسهم، وغفلوا عن أنَّ أجسامهم وأرواحهم خاضعة لقوانين غامضة أشبه بالقوانين الثابتة التي تسيطر على النُجوم والتي لا يمكن التغاضي عنها دون التعرض للخطر. وعليه فإن من الضروري معرفة العلائق التي تربط الإنسان بالعالم وبسائر البشر، وكذلك معرفة العلائق بين الأنسجة في العلم. في الحقيقة، لا بدّ قبل كل شيء من معرفة الإنسان ودراسته، وذلك لأن انحطاطه يذهب بكل جمال تمدّننا، بل وبكل

---

(١) كتاب فرويد: ٧٧.

عظمة عالم النُّجوم أيضاً»[٢].

إن معرفة النفس هي أساس سعادة الإنسان في جميع شؤونه المادية والمعنوية، فعلى ضوء معرفة النفس يدرك الإنسان حاجاته الباطنية والظاهرة، ويميز بها العوامل التي تسير به نحو السموّ والكمال، فيعرف واجبه ومسؤوليته ويتّجه نحو الطهارة والصّلاح، وبذلك يبلغ الكمال الخليق بمقام الإنسان. ولكن من سوء الحظ إن معرفة النفس لم تحظ في عصر التمدّن الصناعي بالعناية والاهتمام، ولم توضع مناهج الحياة على وفق بنية الإنسان الطبيعية وحاجاته الفطرية، ولذلك فإن هذا العصر، بكل ما فيه من بريق وإشعاع، لم يسعد الإنسان، ولم يوفّر له سبل السعادة والنجاة.

«على الرغم من عظمة المدنية الحديثة المدهشة، فإنها لا تصلح لنا لأنّها تقدّمت من دون أن تلتفت إلى خُلُقِ الإنسان وطبيعته وحاجاته الحقيقية، وهي لا تناسبنا لأنها وليدة الاكتشافات العلمية التصادفية، والنظريات التخيليّة، والميول البشرية، على الرغم من أنها قد صُنعت من أجلنا.

من الواضح أن «العلم» لم يتّبع خطة معينة، بل كان تطوره مصادفة على أيدي عدد من النوابغ الذين دفع حبهم للإستطلاع، العلم إلى طريق النمو والتكامل، وهو في مسيرته هذه لم يستلهم ـ أبداً ـ الرغبة في إصلاح حال الإنسان فهذه الاكتشافات العلمية مدينة لأفكار العلماء وإلهاماتهم الباطنية التي ساعدت على تحققها ونجاحها ظروف أُولئك العلماء الاجتماعية المواتية، ولو كان (غاليليو) و(نيوتن) و(لافوازييه) قد وجّهوا طاقاتهم الفكرية لدراسة الإنسان كجسم وروح، لكان من المحتمل أن يختلف مظهر عالمنا اليوم اختلافاً كبيراً. إن رجال العلم والسائرين في طريقه لا يعلمون مقدماً أيّ طريق يسلكون، ولا أيّة غاية يطلبون، ولا النتيجة التي سينالون»[٣].

---

(٢) الإنسان ذلك المجهول: ٧.

(٣) الإنسان ذلك المجهول: ٢٢.

جميع أفـراد البشر ـ على اختلاف مللهم وعناصرهم ـ يدفعهم حب الذّات والانجذاب الفطري إلى البحث عن السعادة، ومن أجل ذلك يبذلون الجهد والسعي، ولكن أكثريتهم لم تعرف في الماضي، ولا هي تعرف في الحاضر، ما هي السعادة الحقيقية، وكيف يكون الوصول إليها، حتى أن كثيراً من الفلاسفة والعلماء، بالأمس واليوم، لم يدركوا معنى السعادة في حقيقته، ووقعوا ضحايا لتشتت الفكر واضطراب الرؤية. فقد رأى بعضهم أن السعادة في الازدهار والنجاح واللذّة، وظنَّ بعضهم أنها في الثروة والمال، وقال بعض آخر إنها في السلطة والنفوذ، وآخرون حسبوها في الجاه والجلال والمحبوبية، وفريق آخر قالوا إن سعادة البشر في العلم والأخلاق، وغير أُولئك رأوا أنها في الزهد وتحمُّل العنت والرياضات، وثمّة أُناس رأوا أن السعادة ترتبط بأصالة الروح المعنوية، مهملين الجوانب المادية في الإنسان، بينما خالفهم آخرون قائلين إن المادة والجسم هما الأصل في السعادة، متغافلين عن المعنويات الروحية. وما اختلاف الأنظار هذا إلاّ لأنّ معظم هؤلاء لم يعرفوا الإنسان حق المعرفة، ولم يطّلعوا الاطلاع الكافي على أبعاده الباطنية والظاهرية.

أصالة المادة أو المعنى

تتـمازج الغرائز الحيوانية والقوى الإنسانية في بنية الإنسان، فقد خلق الله الحكيم الإنسان ذا كيفية خاصة، فمن جهة وضع فيه ما وضع في الحيوانات من غرائز حب الذّات، والشهوة، والغضب، والحنان الأبوي وما إلى ذلك من الغرائز والرغبات الطبيعية لكي يستخدم كل واحدة منها في الوقت المناسب حتى يديم حياته المادية الجسمانية، ومن جهة أُخرى أمدَّه الله تعالى بالمعرفة الفطرية، وقوَّى العقل والضمير الأخلاقي والميول الإنسانية السامية وما إلى ذلك من القوى الخاصة، لكي يستطيع في ضوئهـا أن يعـرف خالق الكون، ويميز الخبيث من الطيب، ويتخلّق بالسجايا الإنسانية، وينال المكانة المعنوية والكمال الخليق بالإنسان.

إن من يروم السعـادة عليه أن يعرف نفسه، وأن يطلع على ثرواته الباطنية والظاهرية، وأن يخطو على هدى سنن الخلق، وأن يُعنى بسائر أبعاده المادية والمعنوية، وأن يشبع غرائزه الحيوانية بما يحفظ التوازن والتعادل فيما بينها، من دون أن يضحّي ببعضها في سبيل بعضها الآخر. وهذا هو منهاج الإسلام وطريق المسلمين الصادقين العارفين بالدين.

عن الإمـام الرضا(ع)، قال: «*ليسَ مِنّا مَنْ تَركَ دُنْياهُ لِدينِهِ وَدِينَهُ لِدُنْياهُ، وتَفَقَّهُوا في الدِّين*»[٤].

لقـد أشار أئمة الإسلام الكرام في أحاديث كثيرة إلى أهمية معرفة النفس، ونبَّهوا أصحابهم على أن معرفة النفس أساس نجاح الإنسان وتوفيقه، وأن الجهل بالنفس يوجب سقوطه وهلاكه.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*نالَ بالفَوْزِ الأكْبَرِ مَنْ ظَفِرَ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ*»[٥].

وعن النبي(ص)، قال: «*هلَكَ امْرُءٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ وتَعَدّى طَوْرَهُ*»[٦].

وعن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبِيلِ النَّجاةِ، وخَبَطَ في الضَّلالِ والجهالاتِ*»[٧].

إن فكـرة معرفة النفس تثير في الإنسان تحركاً فكرياً، وتمزّق أستار الغفلة والجهل، وتوقظ غريزة حب الإستطلاع والفضول، فتحمله على إعمال طاقاته، وتحثه على أن يتعقّل الأمور ويدرسها. إن من يسعى لمعرفة النفس ويرغب في أن يعرف نفسه بجميع جهاتها المادية والمعنوية، وفي أن يطّلع على مبدئه ومنتهاه، لا شكّ في أنّه سيواجه أسئلة كثيرة ومختلفة: من أنا؟ كيف خُلقت؟ من خلقني؟ من أين أتيت؟ لماذا أتيت؟ ماذا أفعل هنا؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ إلى أين أنا ذاهب؟

---

(٤) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢٠٨.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٧٧٥.

(٦) كتاب الشّهاب: ٥٨.

(٧) فهرست الغرر: ٣٨٧.

وقيمة تعرُّف كل إنسان على نفسه تكون بقدر الصحة في إجاباته عن هذه الأسئلة. وبديهي أن المرء كلما كان إدراكه الطبيعي ومعلوماته المكتسبة أوسع، كان تفكيره في هذه الأمور أعمق، ومستوى دراسته لها أوسع، وإجاباته عنها أدق، وبالتالي، معرفته بنفسه أكثر وأفضل.

وفي غضون قيام العلماء في العالم المتقدّم اليوم بدراسة الكون وما فيه، قاموا كذلك بدراسة الإنسان، مستخدمين في ذلك الوسائل المادية، والاستدلالات العقلية والفلسفية، فاستطاعوا أن يعرفوا أشياء عن أسرار جسم الإنسان المادية لتحسين ظروف معيشته الدنيوية، دون الإلتفات إلى جوانبه المعنوية والروحية. ولهذا لم يتمكّنوا حتى الآن من معرفة الإنسان كما ينبغي، ولم يدركوا قيمته الحقيقية.

الإنسان مادياً ومعنوياً

«الإنسان جهاز معقّد وغامض وغير قابل للتفكيك بحيث لا يمكن فهمه بسهولة، ولا توجد حتى الآن وسائل تساعد على دراسته في أجزائه وكليّاته ومعرفة علاقته بالعالم الخارجي، وذلك لأن مثل هذه الدراسة تتطلب أساليب كثيرة وعلوماً متنوعة، كما أن كل علم من هذه العلوم عندما يدرس جانباً وجزءاً من هذا الجهاز المعقّد سينحرف بالطبع عن الهدف الأصلي، ولا يصل إلى نتيجة إلّا بمقدار ما تسمح به أساليبه، بحيث تعجز هذه المفاهيم الانتزاعية عن إدراك حقيقة وجود الإنسان. وبتعبير آخر، لا تستطيع علوم التشريح، والكيمياء، والفيزياء، وعلم النفس، والتربية، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، وغيرها من العلوم، أن تدرك كنه وجود هذا الإنسان. وعليه فإن الإنسان الذي يعرفه كل عالم متخصّص من هؤلاء العلماء ليس هو الإنسان الحقيقي، بل هو شبح إنسان اصطنعته مفاهيم ذلك العلم وتقنياته نفسها. لا شكَّ في أن الإنسان قد بذل جهوداً جبّارة لفهم نفسه. ولكننا، على الرغم مما ورثناه من الكنوز العلمية ودراسات العلماء والفلاسفة والعرفاء والشّعراء، فإننا لا نعرف سوى النزر اليسير من المعلومات التي هي نفسها من صنع أساليبنا

العلمية، وبذلك ما زالت حقيقتنا مجهولة بين هذا الحشد من أشباح الإنسان التي خلقناها»[٨].

والإنسان، في نظر أنبياء الله، كائن رفيع الشأن، عالي المقام، أسمى وأعلى من كل المخلوقات في العالم المادي،ففيه روح من الله، وهو حامل أمانته وخليفته في أرضه، خلقه خالقه القدير حرّاً، وسخّر له العالم كله، وقد أمر ملائكته بالسجود له. فلو عرف الإنسان نفسه، وأدرك قيمته الحقيقية، وسار على طريق التكامل، لبلغ أرفع مدارج الكمال. أما إذا نسي نفسه، وحطّ من قدر إنسانيته، وانحدر إلى السقوط والدناءة، فإنه يتردّى إلى أسفل من كل سافل. يقول القرآن الكريم في هذا:

﴿لقدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقْويمٍ * ثمَّ رَدَدْناهُ أسفَلَ سافِلِينَ إلاَّ ٱلّذينَ ءَامنوا وعملِوا الصَّالِحَاتِ فلهُم أجرٌ غيْرُ ممْنُونٍ﴾[٩].

أمّا المذهب المادي، فعلى عكس المذهب الإلّهيّ، ينظر إلى الإنسان نظرة تحقير، ويدوس على إنسانيته، ويهبط بمقامه السامي إلى حضيض الحيوانية. فالماديون يرون الإنسان مجرد مادة ولا ينظرون إليه إلاّ من هذا المنظور، ويقولون إن العقل، والضمير الأخلاقي، والتطلّعات الإنسانية السامية إن هي إلاّ أمور حصلت من باب المصادفة والاتفاق في الطبيعة العمياء الجامدة، ويسعون إلى تفسير جميع أبعاد وجوده وفق المعايير المادية، فكان من نتيجة هذه النظرة المغلوط فيها وغير الواقعية أننا نجد في عالمنا اليوم الكثيرين من المثقفين يُخطئون في نظرتهم إلى الإنسان لأنهم لم يعرفوه على حقيقته. ومنهم من أرجع جميع شؤونه المادية والمعنوية إلى ظروفه الاقتصادية، فجعل من الإنسان أداة من أدوات الإنتاج. وثمةّ فريق آخر جعل من الغريزة الجنسية الأساس الأول لمسيرة حياة الإنسان، واعتبر طلب اللذّة أسمى أهداف الإنسان في الحياة، وعلى أثر هذا الخطأ الفاحش والمضل أُزيحت السجايا الإنسانية إلى زوايا

---

(٨) الإنسان ذلك المجهول: ٢.

(٩) التين: ٤ ـ ٦.

النسيان، ودفع بالإنسان إلى طريق الفساد والهلاك.

معرفة شرف المعنى

إن دراسة العلوم واختزانها شيء، ومعرفة الإنسان شيء آخر، والوصول إلى مقام العلم والعلماء لا يعني معرفة الذات. فقد لا يحصى عدد الذين تعمقوا في شتى الفروع العلمية وبلغوا فيها أرفع الدّرجات، ولكنهم لا يعرفون أنفسهم، ولا يدركون معنى إنسانيتهم، ولا يتورّعون عن القول الخبيث، ولا عن السلوك الفاسد. ومن جهة أخرى، نجد آخرين لم ينالوا قسطاً من المعرفة الأكاديمية، ولكنهم استطاعوا أن يعرفوا أنفسهم في ضوء التعاليم الإلهيّة وإرشادات القادة الإلهيّين، ويفهموا إنسانيتهم، وهم،بسبب هذه المعرفة بالذّات، ساروا على طريق الطهارة والفضيلة، وتجنّبوا الأعمال اللّا إنسانية، ولم يتخلّوا عن إنسانيتهم بأيّ ثمن من الأثمان.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ عرَفَ شرفَ مَعْناهُ صانَهُ عَنْ دناءَةِ شهْوَتِهِ وزُوْرِ مُناهُ*»[١٠].

المعرفة بالذّات تجعلنا نعي ما فينا من متناقضات باطنية ومقامنا الخطير، وترينا السليم والسقيم من السبل، وتميّز لنا بين ما يصحُّ وما لا يصحُّ من ميولنا. إن الوعي بالذّات يجعلنا ندرك أن ما يقود الإنسان إلى ارتكاب الجرائم والآثام هو هوى النفس والرغبات الغريزية، بينما اتّباع نداء العقل والضمير يفتح بصيرة الإنسان ويهديه إلى طريق العدل والاستقامة، ويجعله صادقاً فاضلاً. إن إطاعة الشهوات والغرائز من دون قيد أو شرط تقمع إنسانية الإنسان، وتجعله معانداً ومتحلّلاً، وتدفعه إلى العدوان والفساد.

ملخص القول هو أنّه بمعرفة النفس تتبيّن الحقيقة القائلة بأن منشأ سعادة كل إنسان وخلاصه كامنان في ذاته، كما أن عامل تعاسته وانحطاطه موجود فيه أيضاً.

---

(١٠) فهرست الغرر: ١٨٨.

إنّـه هو الذي يجعل من هوى نفسه معبوداً يعبده ويطيع غرائزه الحيوانية، فينسى الإنسانية، ويتسبَّب في تعاسته وشقائه وسوء حظه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*إحْذَرُوا أهواءَكُم كَمَا تحذَرُونَ أعداءَكُم، فليسَ شَيءٌ أعْدى للرِّجالِ من اتِّباعِ أهوائِهِم وحصائِدِ ألسنَتِهِم*»[١١].

لا شكَّ في أن الإنسانية لا تنسجم مع حرية الشهوات، وإطلاق سراح الغرائز، واتِّبـاع أهـواء النفس، فمن يريد أن يكـون إنساناً، وأن يعيش متّصفاً بالسجايا الإنسانية، ويوازن بين المادي والمعنوي، ويبلغ الكمال الجدير بالإنسان، عليه أن يعرف نفسه، وأن يزكّيها، وأن يملك إرادته، وأن يسيطر بقوة العقل والضمير على الغرائز الحيوانية، وأن يكون في تحقيق رغباته محدداً بحدود المصلحة والفضيلة، وأن يتجنّب الـطلبات المنافية للإنسانية، وإلاّ فإنّه سوف ينحدر نحو الضعة والانحطاط، حتى يصل تدريجياً إلى منزلق السقوط والهلاك.

عن الإمام علي(ع)، أنه قال: «*العارِفُ مَنْ عرفَ نفسَهُ فأعْتَقَها ونَزَّهَها عنْ كُلِّ ما يُبْعِدُها ويُوْبِقُها*»[١٢].

إن المشكلة الكبيرة التي تقف في طريق تعديل الغرائز وتقدير الميول المادية هي أن إنسانية الإنسان وقيمته لا تقوم، من جهة، إلاّ بما لديه من رؤوس أموال معنوية وكنوز إنسانية، بينما نجد، من جهة أُخرى، أن الجانب الحيواني في الإنسان أقوى بطبيعته من الجانب الإنساني، وأن الدوافع الغريزية والعواطف ـ وهي التي تقوم بتنفيذ طلبات النفس وميولها الحيوانية ـ أقوى من الجواذب العقلية والوجدانية. لذلك نجد أن الغرائز في هذا الصراع تكون هي الغالبة عادة على العقل، وينهزم العقل والضمير الأخلاقي، فيتلوّث الإنسان بخبائث الإثم والفساد.

«يقول (فرويد) في هذا الشأن: قلّما يخضع الناس للاستدلالات العقلية،

---

(١١) الكافي، الكليني ٢: ٣٣٥.

(١٢) فهرست الغرر: ٢٤٣.

ولكنهم يتّبعون غرائزهم بصورة أفضل وأقرب إلى الطبيعة»[١٣].

إلّا أنّ هذه المشكلة قد حلّتها الأديان السماوية إلى حد كبير، وذلك لأن مناهج الأنبياء التربوية قائمة على أساس الإيمان بالله والمسؤوليات الدينية، ولكلا هذين الأمرين تأثير كبير في صياغة النفس وتقوية العقل، فقوة الإيمان تسدُّ الخلل الناجم عن ضعف العقل والضمير الأخلاقي في كبح جماح الغرائز، كما أن الشعور بالمسؤولية يزيد من قوة عزائم الناس وتصميمهم، ويشدُّ أزرهم في الوقوف بوجه أهواء النفس.

برنامج معرفة الله

وبعبارة أوضح، تستند مناهج صنع الإنسان في الأديان الإلهيّة على مبدأين اثنين: الإيمان، والعمل الصالح. ولكي يحقق أنبياء الله هذين المبدأين الرئيسين، ويربُّوا الإنسان تربية إنسانية، طرقوا موضوع معرفة النفس، وأخذوا يحثّون الناس على التفكر في النفس، فكانوا عن هذا الطريق يساعدون على تفتّح قابليات الناس الكثيرة، ويكشفون عمّا في بواطنهم من مواهب دفينة، وبذلك يسوقونهم نحو معرفة الله والإضطلاع بالمسؤولية.

أما من حيث معرفة الله، فقد اتّبع الأنبياء أُسلوباً يقضي أوّلاً بتوجيه اهتمام الناس إلى ندائهم الباطني، بالتحدّث إليهم عن المعارف الفطرية في جبلتهم، وبإيقاظ إحساسهم الباطني بالحاجة إلى البحث عن الله بحملهم على إعمال عقولهم. فكانوا يلقّنونهم الدروس في معرفة الله عن طريق معرفة النفس، وبتعريفهم على نواحي خلقهم الحكيمة يغرسون فيهم الإيمان بالخالق الحكيم. يقول الإمام علي(ع) في هذا الشأن:

«فبعَثَ فيهِمْ رُسُلَهُ، ووَاتَرَ إليهِمْ أنبياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ ميثاقَ فطْرتِهِ، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، ويَحْتَجُّوا عليهِمْ بالتَّبليغِ، ويُثِيرُوا لَهُمْ دفائِنَ العُقُولِ»[١٤].

---

(١٣) كتاب فرويد: ٨١.

(١٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١.

وأما من حيث الشعور بالمسؤولية، فقد كان الأنبياء ينبِّهون الناس على ما يتحمّلونه من تبعات أمام الله، مؤكّدين لهم أن الله الحكيم لم يخلقهم عبثاً، ولم يضع فيهم القوى الإنسانية والحيوانية لهواً، ولم يمنحهم الحرية لعباً. بل هم مسؤولون أمامه عن كل كلمة يقولونها، وكل عمل يرتكبونه، فعليهم أن يعرفوا أنفسهم، ويتعرَّفوا على ما وهبهم الله من أعضاء وقوى لضمان سعادتهم المادية والمعنوية، لكي يستخدموها حيثما أراد الخالق وعلى وفق رضاه تعالى. فلا يسيئون استعمال حرياتهم، ولا يستخدمون إمكاناتهم الممنوحة لهم من الله في مواضع غير صحيحة تجلب عليهم الضرر والخسران.

وعليه يمكن القول: إن مناهج صياغة الإنسان، والتي علَّمها أنبياء الله للناس، يمكن جمعها في أربع مراحل:

١ـ معرفة الله تعالى.

٢ـ معرفة القوى التي أودعها الله تعالى في الإنسان.

٣ـ معرفة التعليمات الإلهيّة في الاستفادة من تلك القوى.

٤ـ معرفة العوامل التي تحول دون قيام الإنسان بتحمّل المسؤولية، وتحرفه عن المسير في طريق الإنسانية.

وقد ورد ذكر هذه المراحل الأربع في أحد الأحاديث الإسلامية:

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*وجدْتُ علْمَ النَّاسِ كُلَّهُ في أَرْبَعٍ: أَوَّلُها ـ أَنْ تعرفَ رَبَّكَ، والثّاني ـ أن تعرفَ ما صنعَ بكَ، والثّالثُ ـ أَنْ تعرِفَ ما أرادَ منْكَ، والرّابعُ ـ أَنْ تعرفَ مَا يُخْرِجُكَ مِنْ دينِكَ*»[١٥].

يعني هذا أن التربية في الأديان الإلهيّة منسجمة مع تكوين الإنسان الطبيعي وجبلتـه الفطرية. لقد نظر الأنبياء إلى الإنسان نظرة واقعية، وعَنُوا بجميع شؤونه المادية والمعنوية، وراعوا التوازن بين جميع الرغبات الحيوانية والإنسانية وإشباعها، وبهذا هيّأوا له دواعي تكامله وتساميه في مختلف الأبعاد. وقد جاء هذا المنهاج الواهب

---

(١٥) الكافي، الكليني ١: ٥٠.

للسعادة بصورة كاملة وشاملة في المدرسة الإلّهيّة كما ورد في القرآن الكريم.

يبـدأ دين الإسلام المقدَّس، من جهة، بإحياء المعرفة الفطرية، وإعمال قوّة العقـل، ومـطالعة الآيات الإلّهيّة، وبذلك يحمل الناس على الإيمان بخالق الكون والاعتقاد به، وإيقاظ الشعور بالمسؤولية فيهم. وبتفتّح الوجدان الأخلاقي، وتنمية الاتجاهات الإنسانية الرفيعة، وإبلاغ أوامر الله ونواهيه، يسير بأتباعه على طريق مكـارم الأخـلاق والسجـايا الإنسـانية، ويربُيهم على الاستقامة وتحمّل المسؤولية والاستمتاع بالحياة المعنوية والإنسانية، وهو، من جهة أُخرى، يحثُ الناس على ممارسة الفعـاليات الاقتصـادية بالسعي والعمل واستثمار الثروات الطبيعية، وبذلك تزدهر الحياة لهم في رفاه ورخاء. وبإشباع الغرائز والشهوات، وبتحقق طلبات النفس، تتم رعاية الجانب الحيواني في الإنسان ضمن التمتّع بشتّى اللذّات المشروعة وعلى قدر اقتضاء المصلحة.

لقد أشار الإمام علي(ع) إلى نتيجة هذه التربية الجامعة السليمة للمسلمين الصادقين، فقال:

«إنَّ المتَّقـيَن ذهبُـوا بعاجِلِ الدُّنيَا وآجلِ الآخرةِ، فشارَكُوا أهلَ الدُّنيَا في دُنياهُمْ ولم يُشارِكْهُم أهلُ الدُّنْيا في آخرتِهِمْ، سكَنُوا الدُّنيَا بأفضَلِ مَا سُكِنَتْ، وأكلُوهَا بأفضَلِ مَا أُكِلَتْ، فحظُوا مِنَ الدُّنيَا بِمَا حَظِيَ بهِ المُترفونَ، وأخذُوامِنْها ما أخَذهُ الجبابِرَةُ المتكبِّرُونَ، ثُمَّ انقَلَبُوا عنْها بالزَّادِ المُبَلِّغِ والمَتْجَرِ الرَّابِحِ»[١٦].

الجمع بين الدّين والدُّنيا

بناءً على ذلك، لكي يبلغ الإنسان السعادة الحقيقية، عليه أن يعرف نفسه كما هو، وأن يدرس جوانبه الحيوانية بموازاة جوانبه الإنسانية، وأن يزن غرائزه وشهواته بميزان العقل والضمير الأخلاقي، وأن يجتنّب الإفراط والتفريط، وأن يراعي التوازن

---

(١٦) نهج البلاغة، الرسالة: ٢٧.

بين المادة والمعنى دائمًا، وأن يجعل منهاج حياته منسجمًا مع موازين الخلق وسننه.

لقد بذل رسل الله، على امتداد القرون والعُصُر، أقصى ما يستطيعون لتحقيق هذا المنهاج الموصل إلى النجاة والسعادة، وصنع الإنسان الحقيقي، حتى أن بعضهم خاطر بحياته في سبيل ذلك، فنجحوا نجاحاً نسبياً، واستطاع كل منهم أن يربّي أتباعه الصادقين بكل جدارة، وأن يجعلوهم يسيطرون على أهوائهم وغرائزهم بالإستعانة بقوة الإيمان والتعاليم الدينية، وأن يسيروا بهم على طريق الإنسانية، وأن يمتّعوهم بمزايا مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية.

من سوء الحظ أن تكون الماديات غالبة على المعنويات في عصر التمدّن الصناعي هذا، وأن يختل التوازن بين الجسم والروح، وأن تهيمن الغرائز والشهوات الحيوانية على الاتجاهات الإنسانية السامية. في هذه المدنية الصناعية، تجد الإنسان على درجة من الانهماك في العلوم المادية ومعرفة العلل والعوامل الطبيعية بحيث أنه نسي التعرُّف على ذاته وواجباته الإنسانية، فكان من نتائج هذا الإهمال الكبير أن انحرفت الحياة عن مسارها الصحيح، وانتشر الإثم والفساد، وشاع التحلُّل الأخلاقي، وانحدر الإنسان نحو التسافل والانحطاط.

«بقول (لوكونت دونوي): لقد لفتت سرعة التقدّم في المدنية المادية أنظار الناس وشغلتهم حتى لم يبق متّسع من الوقت للالتفات إلى حلّ المشاكل الحقيقية، أيّ المسائل الإنسانية. إن روعة المخترعات الجديدة التي أخذت تتوالى منذ سنة ١٨٨٠م قد أدهشت الناس، كالأطفال الذين يرون «السيرك» للمرة الأولى، فينسون حتى الأكل والنوم، فأصبح هذا الاستعراض الفخم مظهراً للواقع، فانكسف ضوء القيم الحقيقية تحت سطوع هذا الكوكب الجديد، وانزوت تلك القيم في زاوية المرتبة الثانية يلفّها الظلام. لقد كان كثير من أصحاب الرأي على علم بخطأ هذا الأسلوب، وكانوا ينذرون قومهم، ولكن أحداً لم يهتم بما قالوا، إذ أن صنمًا عجيباً جديداً كان قد ولد في الدنيا، وأخذت عبادة هذا الصنم ـ أيّ تمجيد كل شيء جديد ـ تقيّد أفكار الناس.

كان العالم يتغير كل يوم، ويستبدل ملابس الأمس بملابس أفخم وأبهى، وكان الناس مأخوذين بقدرة العلم التي لا نهاية لها إلى درجة أنهم لم يلقوا بالاً إلى ما كان ينصحهم به العقلاء المحبُّون لخيرهم»[١٧].

ولكن لو كان قدر وعي التوازن بين المادة والمعنى منذ بداية النهضة العلمية وإقامة المدنية الصناعية، ولو كان الإنسان والعالم قد وضعا معاً على طاولة الدرس، ولو عرف الإنسان عن نفسه مثلما عرف عن الطبيعة من حوله، وأشبع حاجاته الباطنية والظاهرية على قدم التوازن والمساواة، لعاش العالم اليوم في وضع مختلف، ولما تعذَّب من الظلم والجَور والجريمة والفساد الأخلاقي قدر عذابه منها اليوم. ولكنه لم يفعل ذلك، لسوء الحظ، بل غفل عن نفسه، وأولى كل طاقاته لدراسة كتاب الطبيعة وتطوير العلوم الطبيعية، فكان في النهاية ضحية المادة والماديات.

كلام جريء

إن الطفرة المدهشة في العلوم والصناعات خلال القرنين الأخيرين قد بهرت الإنسان وحيّرته، وانجرف بكل كيانه مع المادة وعوالمها حتى لم يعد يذكر الله ربه، ونسي المعنويات، واستهان بالإيمان بالله، وبخس قيمة التعاليم الإلهيّة، ونسي مسؤوليته أمام الله تعالى شيئاً فشيئاً، بل إن بعضهم قد تطرَّف في هذا تطرُّفاً شديداً، ووصف، بكل جرأة، عبادة الله بأنّها رجعية، والدين بأنّه خرافة، والتقوى بأنها عبادة الماضي القديم، والأخلاق الحميدة بأنها مجرد أوهام. وعلى أثر هذا الذنب الكبير غير المغتفر، قُمعت الإنسانية، وتلاشت مكارم الأخلاق والقيم الإنسانية هباءً منثوراً، وتقطَّعت أواصر العلاقات الروحية آصرة بعد آصرة، وراح الإنسان يطغى ويعاند، وشاعت اللاّ أباليّة والإباحية، وخيَّمت الجريمة وفساد الأخلاق كغيمة سوداء على سماء حياة الناس.

واليوم نجد الشعوب الصناعية المتقدمة، على الرغم مما تتمتَّع به من إمكانات واسعة

---

(١٧) مصير البشرية: ١.

لحياة مرفَّهة رخيَّة مادياً، تعوزها راحة الفكر، وهدوء البال، وتعيش في رعب دائم من اعتداءات المجرمين واللصوص المسلَّحين، والناهبين، والعصابات المماثلة، فأصبحوا يحيون حياة مرَّة صعبةً لا تُطاق. وهذا بذاته عقاب لها على نسيانها ذكر الله وتعاليمه:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾[١٨].

«ألم تهبط الحياة المعاصرة بمستوى الناس الفكري والأخلاقي؟ لماذا يجب أن تصرف كل سنة بلايين الدولارات على مكافحة المجرمين؟ لماذا ما يزال هناك، بعد كل هذه المصاريف، لصوص يهاجمون المصارف، ويقتلون رجال الشرطة، ويختطفون الأطفال يتّخذونهم رهائن أو يقتلونهم؟ إنّنا، إذ نرى هذا التقهقر في مسيرة المدنية، يجدر بنا أن نسائل أنفسنا: أليس منشأ هذا الإنحطاط فينا وفي أجهزتنا؟

لقد ازداد عمق الهوّة التي تفصل بين الكم والكيف، وانفصل المادي عن المعنوي انفصالاً تاماً، كما أنَّ البُنى العضوية والأعمال البدنية قد طغت على الجوانب المعنوية والروحية. إن خطأ المدنية هذا قد جرّنا إلى طريق يؤدّي إلى انتصار العلم وهزيمة الإنسان»[١٩].

لم تكن العصور القديمة تخلو من فساد الأخلاق وانعدام الإيمان، قلَّ ذلك أم كثر. وأُناس كل عصر لم ينجوا من تحمّل الألم جرّاء ما تعرَّضوا له من شؤم وأذى. ولقد قال القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً:

﴿ظَهَرَ الفَسادُ في ٱلبَرِّ وٱلبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بعضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لعلَّهُمْ يرْجِعُونَ﴾[٢٠].

في العصر الحاضر كان لتقدم العلوم الطبيعية وتطورها، واستقرار المدنية الصناعية، يدٌ في التحريض على الجريمة، وفي نشر الفساد والتخريب على نطاق أوسع

---

(١٨) طه: ١٢٤.

(١٩) الإنسان ذلك المجهول: ٢٦٥.

(٢٠) الرُّوم: ٤١.

وبعنف أشد، لا في البر والبحر فحسب، بل وفي الفضاء أيضاً. إن المجرمين اليوم، باختـطاف الطائرات، وأخذ ركابها رهائن، وبنشرهم الرعب والاضطراب، أوجدوا أنواعاً جديدة من الجرائم، فازداد الإنسان بذلك بلاءً على بلاءٍ.

عن الإمام الرضا(ع)، قال: *«كُلَّمَا أَحْدَثَ العِبادُ مَنَ الذُّنوبِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْمَلُونَ، أحدَثَ الله لَهُم من البَلاءِ مَا لَم يَكُونُوا يَعرفُونَ»*[٢١].

الأخلاق بعيداً عن الدّين.

في القرن الماضي كان هناك من يتصوّر أنه بانتشار المدنية الصناعية، وتحسُّن الثقافة العامة، يستغني الإنسان عن الأوامر الإلهيّة وتعاليم الأنبياء، وتقوم المعرفة مقام الـدين، ويملأ العلم الفراغ الديني، ويعمد الناس إلى تحمّل المسؤولية،ويتوّجهون تلقائياً نحو طريق الصلاح والخلاص. كانوا يقولون إنه قد حان دور الأخلاق وحدها دونـها حاجـة إلى الـدين، وإن على العلم والحكمـة أن يحلّا المشكلات الأخلاقية، ويصححا الغرائز والشهوات، ويحملا الناس على التحلّي بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، ويصونا العالم من الفساد والهلاك.

«يقـول (شتيفن تسـويك): لقـد أُصيب النـاس بالدوار والذهول وهم يشهدون تطور العلوم والصناعة، ذلك التطوّر المدهش، في القرن التاسع عشر، حتى راح الجميع يتصوّرون أن كل شيء أصبح يأتمر بأمر الذكاء، وأن العقل غدا الحاكم المتحكّم في الحياة. ففي كل يوم، بل في كل ساعة، كانت الأخبار تتوالى عن انتصار جديد لذكاء الإنسان على قوى الطبيعة. إذ كان العلماء يتقدّمون بسرعة في تغلّبهم على عوامل الزمان والمكان التي كانت حتى ذلك الحين عنيدة عصيّة. كان الناس يتصوّرون أنّه لم تبق نقطة من أعلى الشوامخ حتى أعماق الأرض غائبة عن أعين المكتشفين الحادّة البصر. قالوا إن الارتباك

---

(٢١) الكافي، الكليني ٢: ٢٧٥.

والاضطراب قد انتهى أمرهما، وأصبح كل شيء منتظمًا في تشكيلات صحيحة ودقيقة.

وترسّخت هذه التصورات في أذهان الناس، وإن برز بالطبع هذا السؤال: ألا تستطيع الإرادة والعلم، اللّذان تغلّبا على جميع المشكلات وأزالا جميع الموانع، أن تقهرا نفس الإنسان الأمّارة بالسّوء وبالهرج والمرج وأن تُخضعاها؟ أخذ هذا الاعتقاد يقوى شيئاً فشيئاً في الناس. كانوا يقولون إن الجانب الأعظم من هذا الواجب قد تحقق فعلاً، وإذا ما ظهرت أحياناً مظاهر شهوانية غير مناسبة ومخالفة للأخلاق، يرتكبها الإنسان الجديد المثقف والتقدمي، فليس لها أهمية تذكر، لأنها مظاهر من مخلّفات الطبيعة الحيوانية القديمة يمكن القضاء عليها بقليل من الصبر وببضع سنوات من التمرّس. فالإنسان الذي خرج بهداية من العقل والذكاء من حضيض الوحشية الضارية الوضيعة إلى أوج التعالي والتقدّم لقادر على أن يزيل هذه الآثار المعدودة الشائنة أيضاً»[٢٢].

واليوم، بعد مضي نحو أربعة أخماس القرن العشرين، نال الإنسان فيه انتصارات علمية كبرى، وكشف الكثير من أسرار العالم المجهولة، وقهر الطبيعة الحرون وجعلها مسخّرة له، ولكننا مع ذلك، وعلى العكس من تصوّرات القرن التاسع عشر، نجد أن مخلّفات الطبيعة الحيوانية القديمة فضلاً عن كونها لم يُقض عليها، وأن النفس الأمّارة بالسّوء لم يُكبح جماحها، وأن الإنسان المتمدّن المثقّف لم يتخلّص من السيِّئات الأخلاقية، فإن الأمر كان على العكس من ذلك، وأخذ الخط البياني للفساد الأخلاقي وارتكاب الأعمال القبيحة يتّخذ مسيراً صاعداً، وما يزال في صعوده، وإذا استمرت الحال على هذا المنوال، فلن يطول الانتظار حتى نرى الجريمة تستغرق العالم كله، وينتشر الفساد الأخلاقي بشكل وبائي شامل، وتتعرّض حضارة الإنسان لخطر حتمي لا مناص منه.

---

(٢٢) كتاب فرويد: ٣.

في البلدان المتقـدّمة يعنون كثيراً بالمحافظة على الأمن، ويقيمون الأجهزة الواسعة لحفظ النظام في المدن الكبرى، وتخصص لها المبالغ الطائلة، والمسؤولون عن النظام، المجهّزون بأحدث الوسائل اللازمة، يواضبون ليل نهار على مراقبة الأحوال والأوضاع، ومع ذلك فنسبة الجرائم والمفاسد في تصاعد مستمر، ويكبر رقم الجريمة والمجرمين سنة بعد سنة، كما تقول الإحصاءات:

«من سنـة ١٩٦٦ حتى سنـة ١٩٧١ ازدادت نفـوس الولايات المتحدة الأمـريكية بنسبة ٥٪، وكان من المنتظر أن تزداد نسبة الجرائم بهذا المقدار نفسـه. ولكن خلال هذه السنـوات الخمس المذكورة ازدادت نسبة الجرائم بمقدار ٧٤٪. إن المقارنة بين سنة ١٩٦٠ و ١٩٧٠ تدعو إلى الذهول. ففي ١٩٦٠ كانت ترتكب جريمة واحدة في كل (٥٨) دقيقة، وفي سنة ١٩٧٠ وقعت جريمة واحدة كل (٣٣) دقيقة. في سنة ١٩٦٠ كانت تقع حادثة سرقة في كل (٦) دقائق، ولكن في سنة ١٩٧٠ كانت تقع حادثة السرقة في كل (٩١) ثانية. وحـوادث العنف والإكـراه التي كانت الـواحدة منها تقع كل (٣٤) دقيقة، أصبحت تقع كل (١٤) دقيقة»[٢٣].

لم يكن القرن التاسع عشر هو وحده الذي شهد أُناساً كانوا يتصوّرون أنّه بتقدّم العلم وانتشار الثقافة يسهل ترويض النفس الإنسانية المشاكسة، والقضاء على الأخـلاق الفـاسـدة، وتخلُّق النـاس بالأخـلاق الفاضلة، فإننا اليوم أيضاً نشاهد الكثيرين ممن يحملون ذاك التصوّر نفسه، تراودهم أفكار عن الاندفاع نحو المادة ونحو الأخلاق من دون حاجة إلى دين، ويعتقدون أن تطور العلوم وارتفاع مستوى الثقافة العامة يدفعان الناس إلى تحمّل المسؤولية، والصدق في العمل، وترك السيِّئات الأخـلاقية، والإغضـاء عن الأهواء النفسية غير المشروعة، والاتجاه نحو الطهارة والفضيلة. فهل هذا التصوّر صحيح ويتطابق مع الواقع؟ هل لاستيعاب العلوم المادية

---

(٢٣) مجلة النسل الجديد، السنة الثالثة ٧: ١٨، نقلاً عن مجلة أمريكية.

تأثير معنوي في الناس، فيكبح جماح غرائزهم الحيوانية وشهواتهم، ويحملهم على أن يكونوا من طلّاب الحقّ، والعدل، والإنصاف، والودّ، والمحبة، والحرية، والشرف، وغير ذلك من الصفات الإنسانية؟ يبدو أن الجواب عن هذه التساؤلات هو النفي، إذ لا نجد أيّ رابط بين تقدّم العلوم الطبيعية والإصلاحات الأخلاقية.

إذا جرت العلوم الطبيعية والصناعات الآلية في مجاريها السليمة، واستُفيد منها بما هي جديرة بها، أدّت إلى العمران والتعمير، وحسّنت حياتنا المادية، ووفّرت للناس دواعي الراحة والرفاه، ولكنها لا تأثير لها في تزكية النفس، وسلامة الفكر، وطهارة الأخلاق.

إن العلوم الفيزيائيةوالكيميائية تعرّف الإنسان على خواص العناصر الطبيعية والمواد المركّبة، وتكشف له طرق الاستفادة منها، ولكنها لا تقضي على فساد الأخلاق. إن للهندسة والعلوم الرياضية تأثيراً في حلّ عدد من المشكلات المعقّدة الرئيسة في الحياة، ولكنها لا تحمل الإنسان على التخلّق بالأخلاق الحميدة.

والعلوم الطبيّة وصناعة الأدوية تشخّص أمراض الجسم وتعالجها، ولكنها لا دور لها في علاج الأمراض الأخلاقية. إن العقول الإلكترونية والآلات الكمبيوترية ـ وهي من أكبر الإنجازات الصناعية ـ تحلّ الكثير من المشكلات بيسر وسهولة، ولكنها لا تستطيع أن تروّض الغرائز الحرون. إن الطائرة التي تحطّم بسرعتها جدار الصوت توصلنا سريعاً جداً إلى حيث نريد، ولكنها لا تصنع الإنسان. الصاروخ «ابولو» يوصل الإنسان إلى القمر، ويمهّد الطريق لتسخير الفضاء، ولكنه لا يمهّد الطريق لصياغة الإنسان ولا لترويض النفس المعاندة. وبناءً على ذلك، فإن التقدّم في العلوم المادية لا يزيل العيوب والنقائص المعنوية، ولا ينقّي أخلاق المجتمع ولا يدفع الإنسان إلى طريق الإنسانية.

الأخلاق والعلوم المادية

إن الغرائز والشهوات التي جُبل عليها الإنسان في طينته، عُمي وغير عاقلة،

مثل الغرائز عند الحيوان، وهي دائمة الإلحاح في طلب الإشباع، وهي في سبيل تحقيق رغباتها لا تعرف الحسن من القبيح، ولا تدرك الفرق بين الفضيلة والرذيلة، ولا تُعنى بالصلاح والفساد، ولا تميّز بين الخير والشر، ولا بين ما ينبغي وما لا ينبغي.

إن ما يدفع الإنسان إلى الإثم وفساد الأخلاق هو جمح الغرائز وتحلّل الرغبات الحيوانية من القيود. وطريق الوقوف في وجهها هو تقييدها وتحديد طلباتها. وقد وضع الأنبياء مناهج لتعديل الغرائز وتحديد الشهوات بالاستعانة بالعقل والضمير الأخلاقي، أو بقوة الإيمان والواجبات الدينية، فكانوا يبلّغون أتباعهم الأوامر الإلهيّة، ويحذّرونهم من اتّباع رغباتهم الضارّة وغير المشروعة، وبهذا كانوا يكافحون الإثم وفساد الأخلاق.

ولكن التحضّر الصناعي، فضلاً عن كونه لم يهيّىء دواعي تعديل الغرائز الحيوانية وتحديد الأهواء النفسانية، فإنّه، على عكس ذلك، قد وسّع الميدان ـ بتقدّم العلوم الطبيعية، وبتزايد الوسائل الآلية ـ لجولان الغرائز وتحرّرها من القيود، فقويت عبادة الذّات وروح التحلّل، وتمكّن حبُّ الجاه، والاستعلاء، والثروة، وإشباع الشهوات والأهواء، حتى بلغت فلسفة اللذّة أعلى درجاتها، فكان أن نسي كثير من الناس إنسانيتهم وشرفهم الإنساني، وارتكبوا الجرائم والأعمال اللّا إنسانية والمخالفة للقانون، في سبيل إزالة ما يعترض طريق إشباع رغباتهم من عقبات وعوائق، فلم يتورّعوا عن الاعتداء على حقوق الآخرين وحرماتهم، وسحقوا الحقّ والفضيلة بأقدامهم من أجل مصالحهم. وهكذا تفشّى الإثم والفساد تفشّياً سريعاً بين البشر، وراح الإنسان يحثّ الخُطى نحو الانحطاط والانهيار.

والإنسان في المدنية الصناعية أصبح محتقراً ولم يعد لمقامه الإنساني المعنوي أيّ اعتبار، وأصبح من الناحية المادية أيضاً، على أثر إشباع الغرائز بغير اتزان، يواجه مشكلات عديدة برزت له في عالمه، وغدا معرّضاً لأخطار شديدة. لقد حرّضت المدنية الإنسان ضد الإنسان، إذ دفعت بقسط كبير من الطاقات العلمية والصناعية على

الانـدفاع نحو ابتداع أشد أنواع الأسلحة فتكاً وتدميراً، استعداداً لإبادة طائفة أخرى من الناس، وخضوعاً لغريزة التدمير والتخريب.

«يقـول (كارل منينكز): الوعي الذاتي هو أن نكون على علم بطاقاتنا الإيجابية المدهشة الكامنة فينا، وذلك بطاقاتنا السلبية التي تؤدي إلى فنائنا وتعاستنا. إن إغفال هذه القوى السلبية فينا، أو الامتناع عن التنويه بها فينا وفي الآخرين، يقوِّض أركان الحياة وقواعدها»[٢٤].

«أحد القرّاء الذين قرأوا كتابي (الإنسان ضدّ نفسه) كتب لي يقول: أرجو أن تؤلّف كتـاباً آخر لكي تُدلّنا فيه على طريق النجاة. إنك تقول في هذا الكتاب أن العلم قد اكتشف الكثير بشأن غريزة التدمير عند الإنسان، فقل لنا الآن إلى أيِّ مدىً تقدّم العلم في معرفة كيفية السيطرة على هذه الغريزة. فالأفضل أن تؤلّف كتاباً آخر وتضع له عنوان (الإنسان في عون نفسه)...»[٢٥].

في دنيا المفترسين تكون القوة هي الحاكم المسيطر، وما يضمن بقاءهم هو الظفْر والناب. أما في دنيا الإنسان فيجب أن يكون الحاكم المسيطر هو العدل والقانون، وأن سباق التسلّح واكتظاظ المخازن بالسلاح المتراكم والمتزايد يومياً إنما يدل على أن الإنسـان أخـذ ينحـدر صوب طبيعـة الافتراس، ونسي إنسانيته، وهجر السجايا الإنسانية، فلم تعد الدول المتقدّمة القوية ترعى الحق والعدالة بشأن الأمم الضعيفة، بل تلجأ معها إلى منطق القوة وتستعمرها لمصلحتها. كما أن تلك القوة تتنابز فيما بينها بالألقاب بسبب مرض حب الاستعلاء والتوسّع، ويسيء بعضها الظنّ ببعض، ولا يأمن بعضهـا عدوان بعضها الآخر عليه، ولذلك راحت هذه الدول تسعى للتسلّح بأقوى الأسلحة، وكأنها في الواقع تجهّز نفسها بمخالب وأنياب أحدّ وأقطع لتصون نفسهـا من أطماع منافسيها. وفي الوقت الحاضر هنالك أعداد كبيرة من المهندسين

---

(٢٤) إعجاز التحليل النفسي: ٦.

(٢٥) إعجاز التحليل النفسي ٣

والمتخصّصين والفنيّين المثقفين الأكفاء من ذوي المرتبات المرتفعة، منهمكة في صنع الأسلحة الأحدث لكي تكون أسرع في إبادة البشر وفي تدمير العمران.

فهل يا تُرى قد تصرّمت مرحلة الإنسانية والحياة الإنسانية؟ هل قنط الإنسان من إحياء السجايا الإنسانية؟ هل وصل الإنسان في هذه المدنية الصناعية إلى هذا الدرك من الانحطاط الأخلاقي بحيث لا يوقفه عند حدّه سوى النار والدم؟ إنّه لمما يدعو للأسف الشديد والخجل أن ينبرى عالمنا المتمدّن اليوم، وبحجّة الحفاظ على الأمن والسلام العالميّين، لصرف المبالغ الضخمة من أجل صنع أسلحة أشد تدميراً، ولا يصرف عُشر تلك المبالغ من أجل صنع الإنسان، وتربية روح الشعور بالمسؤولية فيه، وإحياء السجايا الإنسانية، التي هي أهم عامل من عوامل حفظ الأمن والسلام في العالم.

«يقول الدكتور (أدولف هوده)، مؤلّف كتاب (البشرية المضطربة)، في مقال له نُشر في إحدى الصحف الألمانية: إن ما يصرف على سباق التسلّح في العالم خلال السنوات العشر القادمة سيبلغ أربعة آلاف مليار دولار. فلماذا لا يعود الإنسان إلى صوابه؟ لماذا لا يصرف هذه الأموال الطائلة على التربية والتعليم ومكافحة الفقر؟ أحقاً لا يمكن بهذا المال طرد فكرة الحرب من فكر الإنسان؟ لماذا لا يستيقظ هذا الإنسان؟ لماذا لا يبرح ليل نهار يفكّر في الاستعداد للحرب؟ إذا ما استمرت مدنيتنا على هذا المنوال فسوف تنهار القيم الأخلاقية.

إن ميزانية التسلّح في عالمنا اليوم أكثر بكثير من ميزانية التعليم العام.

تقول هيئة الأمم المتحدة أن معدل ما يُصرف على الجندي في سنة يبلغ (٧٨٠٠) دولار، ومعدل ما يصرف على تعليم طفل لا يتعدّى (١٠٠) دولار. فأيُّ عالم هذا؟ لماذا نجلس جامدين دون أن نفعل شيئاً من أجل إنقاذ البشر ونجاتهم؟»[٢٦].

---

(٢٦) صحيفة كيهان ٢٢/٢/١٣٥١هـ.ش.

في الحربين العالميّتين الأولى والثانية أُزيح نقاب المدنية الصناعية الخادع عن الملامح الحقيقية للدول المتقدّمة بما قامت به من تدمير وإهلاك بقذائفها، وما ارتكبته من مذابح جماعية وأعمال لا إنسانية. لقد تكشّف عندئذٍ المدى الذي انحدر إليه الإنسان المتمدّن في هاوية السقوط الأخلاقي، فنسي الإنسانية ومكارم الأخلاق، وداس بقدمه على السجايا الإنسانية، ولم يعد يختلف عملياً عن الحيوان المفترس بطبعه.

وإذا ما واجه عالمنا اليوم حرباً عالمية ثالثة، فلا يمكن تصوّر مصائبها وأخطارها الفظيعة. فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم، نلاحظ، من جهة، أن اللّا دينية قد تفاقم أمرها بين الناس، وتفشّت حالة حبّ الذّات بين القادة، وانتشر الفساد الأخلاقي في أرجاء العالم، ونجد، من جهة أُخرى، أن التقدّم السريع في العلوم الطبيعية والصناعات الآلية قد وضع بين يديّ الدول المتقدّمة مزيداً من الأسلحة المتطورة، وزاد من قدرة الدول العُظمى على إبادة بني البشر.

عند الكلام على الحرب العالمية الثانية يدور الحديث عن الملايين من البشر الذي قُتلوا، والآلاف الذين أُصيبوا بنقص في أحد أعضائهم، الخراب والدمار نزل بالمناطق المصابة. ولكن عند الكلام على الحرب العالمية الثالثة المحتملة يدور حديث الخبراء المطّلعين عن فناء الجنس البشري وإبادة الحياة من على سطح الكرة الأرضية.

«يقول (راسل) في كتابه: إن القنبلة الذرية، وأكثر منها القنبلة الهيدروجينية، قد أثارتا مخاوف جديدة ومزيداً من الشكوك في أهمية نتائج العلم في حياة الإنسان، حتى أن بعض المفكّرين البارزين قد صرّحوا بأن خطر الإبادة يتهدّد الحياة على سطح هذه الكرة الأرضية. فإذا كانت التنبؤات عن وقوع حروب في المستقبل صحيحة، عندئذٍ نكون مضطرين خلال الخمسين سنة القادمة إلى قبول أحد الخيارين التاليين: إما أن نسمح للإنسان أن يقضي على حياته بيده، وإما أن نتخلّى عن بعض الحريات التي نتمسّك بها ولعلنا الآن نعيش في آخر أدوار الحياة الإنسانية. فإذا كان الأمر كذلك، فإنّنا نكون في

القضاء على الحياة مدينين للعلم»[٢٧].

أعراض المدنية الصناعية

كان الحديث خلال النصف الأول من هذا القرن يدور حول الإنسان الذي نسي، في غمرة حضارته الصناعية، الحقّ والفضيلة، وغاب عنه معنى العدل والإنصاف، وهجر السجايا الإنسانية. ولكنهم اليوم يقولون إن تطورات العلوم الطبيعية، وازدياد هيمنة الآلة في الدول المتقدّمة، لم تبعث على الانحطاط في الأخلاق الاجتماعية فحسب، بل أوجدت مشكلات ومصائب أُخرى في شتّى شؤون الحياة، وعرضت سعادة الإنسان لخطر جاد. لذلك فإن هذه المدنية أصبحت، بما هي عليه، موضع انتقاد أهل الغرب ومعارضتهم. ولكي يزداد الأمر وضوحاً يجدر بنا أن نشير إلى بعض من انتقاداتهم، وأن ندرس جانباً من آثار هذه المدنية الصناعية الضارّة والتي ابتُليت بها البشرية.

يرى معظم علماء الغرب أن هيمنة الآلة على المجتمعات الغربية ونفوذها العميق في جميع مظاهر الحياة، قد حطّمتا شخصية الإنسان، واضعفتا من قوة الخلق والإبداع الفكري، وقضتا على أهمية الاستقلال والإرادة، واعتبرتا الناس مجرد وسائل للإنتاج الصناعي.

«إن الآلة والتقنية اللّتين كانتا في خدمة الإنسان ورفاهه وراحته حتى منتصف طريق التمدّن الصناعي، قد وصلتنا الآن إلى حيث سخّرتا الإنسان نفسه لخدمتها. وهذا ما يبيّنه (لويس مينفورد) بكل وضوح في كتابه (اسطورة الآلة)، فهو يقول: إن المجتمع الغربي، في ظروفه الحاضرة، تابع للآلة، أيّ إن أُسلوب الحياة والمعيشة تعيّنها الآلة في الواقع، وإن إرادة الإنسان تتحقق بوساطة الآلة. ومع ما يبدو على الدول والمنظمات أن لها حق الاختيار والقدرة

---

(٢٧) تأثير العلم على المجتمع: ١٤٦.

عليه ظاهرياً، فإنها في الباطن لا خيار لها، بل هي تابعة للآلة ولمنطقها تابعية تامة.

«في المجتمعات الغربية الأجسام والأشياء، أيّ السلع ومنتوجات الآلة، هي المسيطرة على الناس من مختلف الفئات، وتزداد هذه السيطرة الباردة الميتة شدة يوماً بعد يوم وتُسرع الخُطى في التقدّم، حتى راح الناس يشعرون أن الآلة أصبحت صنواً لهم، وغدت تشاركهم مصيرهم، وأن هذه الأجهزة الآلية هي التي تقوم بكل الأعمال، ولم يعد الإنسان قادراً على الإبداع، فالآلة هي المسيطرة حتى على العدالة والحرية والديمقراطيةوالرفاهية، ولهذا أصبح الناس مجرد آلات ضمن هذا الجهاز الاجتماعي الضخم، وفقدوا كل إرادة، بل إنهم لا يُحسُّون حتى بشخصيتهم الإنسانية، ويعلمون جيداً أنهم لا نصيب لهم في إدارة الأمور وتنظيمها، فهم أشبه بالمسامير اللولبية المثبتة في جهاز جامد متحكم»[٢٨].

مرض الكآبة

من آثار المدنية الصناعية الضارّة الأخرى هي التوجّه نحو الفردية، ذلك التوجّه الذي كان من نتائجه العملية انهيار العائلة واضطراب نظامها، وانفصام عُرى العلاقات المعنوية،وسحق العواطف الإنسانية. لقد خلقت الفردية مرض الكآبة في المجتمعات الغربية، فسلب كثيراً من الناس النشاط والحيوية وأمات قلوبهم حتى استولى اليأس عليهم، وأخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم عبث لا طائل فيهم، ويرون الحياة فارغة وعديمة المعنى. وهم لكي يتخلّصوا من هذا العذاب الأليم يلجأون إلى الانتحار. إن هذا المرض النفسي يأتي على رأس أسباب انتحار الغربيّين اليوم. يقول الأطباء النفسانيّون: إن مرض الكآبة قد أحاط بإنسان القرن العشرين

---

(٢٨) غربة الغرب: ٥.

وعشّش في نفسه حتى يصح أن نطلق على هذا القرن اسم (قرن الكآبة). هنالك مئة مليون شخص مصاب بمرض الكآبة في هذا العصر، يضاف إليهم كل عام ملايين أُخرى.

«في المدن الكبيرة، حيث كل شيء ضخم عملاق، تجد الإحساس بمرض الكآبة أشد وأعنف، والأفراد يرون أنفسهم وحياتهم عبثاً وفراغاً، وذلك بسبب الافتقار إلى التآلف والتوادد لذلك فهم أسرع في الشعور بمعنى (الملل) من الحياة و(الغربة) عن كل شيء وكل شخص. إنّ إرْتفاع نسبة الجرائم، واشتداد القسوة، وتحجّر القلب ـ مما لا وجود له حتى في السباع المفترسة ـ في الدول والمجتمعات التي ترى نظمها الاجتماعية هي الرائدة في إيجاد (المدينة الفاضلة). إنما هي هدية سلطان الآلة والحالة التي سبقت الإشارة إليها.

إن ما يحيي الأمل في النفوس هو أن هناك ردود أفعال مضادَّة ومقاومة لتلك الحالات والحوادث. ولقد حمل بروز بوادر هذه المقاومات منذ عدة سنوات، صريحة مرَّة ومستترة أُخرى، المفكّرين على التنبّه لها والتفكير فيها، بحيث يمكن القول إن كثيراً من المبادىء والمفاهيم والقيم التي كانت محترمة في السابق، والتي كان الغرب يعتبرها الأساس الذي أقام عليه مدنيته، قد سقطت من الاعتبار بعد أن اعتورتها الشكوك.

مضى زمان طويل كانت (الفردية) خلاله واحدة من قيم المدنية الغربية، فكان من نتائج ذلك ضعف الروابط العائلية وانهيار أُسسها، وكذلك العلاقات المعنوية الأخرى. أما اليوم فإن الشبان، بخلاف الماضي، يسعون لتشكيل حياة جماعية، وإنشاء وحدات يستطيعون في ظلها استعادة الإحساس بالعواطف الإنسانية وانفعالاتها، وهم في هذا الطريق يُظهرون من أنفسهم أعمالاً تكون أحياناً أشبه بالعصيان، وحادة أحياناً أُخرى.

يقف هذا الجيل العاصي موقف الخصام من مدنيته، إذ إن هذه المدنية لم تولِ عنايتها لحاجاته الغريزية والنفسية، ولا لعواطفه الإنسانية، بل عاملته

بقسوة، وضحّت به على مذبح صنم التمدُّن الجبار. هذا الجيل المصاب بالتمرّد قد تجاوز ذلك إلى القول بأنه إذا كان العلم يؤدي إلى سحق المشاعر الإنسانية تحت الأقدام في سبيل أن يستفيد بضعة أفراد من ثمار العلم ومنجزاته، فيفرضوا أنفسهم وحبهم للسلطة والتوسّع على حساب الآخرين باسم الهيئة الحاكمة، فلا كان العلم»[٢٩].

من بين المعايب التي يأخذونها على المدنية الحاضرة، والتي تحمل ذوي الرأي على إساءة الظنّ بها وتوجيه النقد إليها، هي قولهم: إن الطريقة الحاضرة في استخدام العلم والتقنية ليست عادلة ولا إنسانية، لأنّها تأخذ مصلحة جميع شعوب الأرض بعين الاعتبار عند الإنتفاع بالعلم والصناعة، إذ إن بعض الدول تسيء استغلال قوة العلم وتستخدمها لتحقيق أهدافها اللاانسانية وغير الصحيحة، فتضيّع حقوق الآخرين، وتكون سبباً لتعاستهم وشقائهم.

«من المواضيع التي استأثرت خلال السنوات الأخيرة باهتمام الباحثين التابعين لمنظمة (اليونسكو) هو سلوك الشبان ووجهة نظرهم نحو العلوم والتقنية. أيّ أنهم حاولوا معرفة الطريقة التي يتلقّى بها الجيل الشاب العلوم والتقنية، ووجهات نظر الشبان نحو العلم والتقنية ومستقبلها. فلدراسة هذا الموضوع عُقد مؤتمر قبل سنتين في هولندا تحت عنوان (الشبان والعلم في المجتمع المعاصر)، اشترك فيه عدد من علماء الغرب واليابان وبعض العلماء من الدول النامية. كان الهدف من هذا المؤتمر هو الاطلاع على آراء العلماء الشبان في دور العلم في المجتمع. فيما يلي نورد جانباً من نتائج مطالعات ذلك المؤتمر ومناقشاته:

العلماء ينتقدون

كانت وجهات نظر العلماء الشبان من دول أمريكا وأوربا الغربية، مثل

---

(٢٩) غربة الغرب: ٦.

فرنسا وألمانيا وهولندا، بشأن العلوم والتقنية الحديثة، تتّصف بالنقد والسلبية على وجه العموم. قال هؤلاء: بشأن قضايا عالمنا المعاصر المهمة، وهي التفجيرات الذرية، والأخطار الناجمة عن التجارب والتسليح الذري، والفساد المتفشّي في المجتمع، وفناء مصادر الثروة الطبيعية، وانخفاض انتاج المواد الغذائية، و السكان، والفقر والتخلّف الاقتصادي، وغيرها، فإنّ العلم فضلاً عن عجزه عن وضع الحلول المناسبة لها، فإنّه بذاته كان العلّة في إيجاد الكثير من هذه المشكلات.

كان من رأي هؤلاء العلماء الشبان أن علينا السعي من أجل علم أكثر إنسانية، ذلك العلم الذي يكون في خدمة الإنسانية حقاً، ويُعنى بتحقيق الأهداف الإنسانية. علينا أن نكافح عبادة الفرد لكي يعي العلماء مسؤولياتهم الاجتماعية.

خلاصة آراء العلماء الغربيين الشبان هي أن حسن الظن ـ الذي كان سائداً حتى سنوات متأخرة ـ بالعلوم أصبح مشكوكاً فيه، وكانوا يرون أن العلوم الحديثة لا تدرس أجزاء حقائق الامور، ولا تأخذ كل الحقائق بنظر الاعتبار. وقالوا إن نظرة العلوم الحديثة واساليبها المعروفة، سواء في حقل التعليم والتحقيق، أو في حقل استخدام التحقيقات العلمية في الصناعة، يجب أن تتغير من حيث المبدأ، وأن تكون للعلم تطلعات عالمية بما يرعى مصالح جميع الشعوب. كما يجب الحؤول دون استغلال عدد قليل من الدول للتقدم العلمي الذي ساعدها على الاستعلاء بالقوة. يجب، في العلوم، اتخاذ الأساليب والقواعد التي تساعد جميع شعوب العالم على الانتفاع بها، وذلك لأن الظروف التي تعيش فيها المجتمعات البشرية المختلفة من حيث تمتعها بالتقنية العلمية ليست عادلة»[٣٠].

من مجموع البحث نخلص إلى القول بأن على الإنسان الذي يريد إحراز

---

(٣٠) غربة الغرب: ٥١

إنسانيته ونيل سعادته الحقيقية، أن يعرف نفسه كما هو، وأن يطلّع على جوانبه المادية والمعنوية، وأن يعيش على وفق نواميس الخلق، وأن يُشبع رغباته الحيوانية والإنسانية جنباً إلى جنب، مع التزام التقدير والتوازن فيها.

هذا هو البرنامج الذي وضعه أنبياء الله في سبيل إحياء الإنسانية، وتربية الأخلاق، وتعديل الغرائز، وكبح أهواء النفس، فدعوا الناس إلى معرفة أنفسهم، وكشفوا لهم الكنوز الكامنة في أعماقهم، وبذلك كانوا يسيرون بالناس على طريق الإنسانية.

كانوا يبدأون بذكر المعارف الفطرية التي جُبل عليها الإنسان، ويعلّمونهم كيفية معرفة الله تعالى باستعمال العقل والتأمل في آيات الله، ويجعلون الناس يؤمنون بخالق الكون، باعتبار أن هذا الإيمان هو الركن الأصيل والأساس في سعادة الإنسان، وأن المرء يستطيع على ضوء ذلك أن يطوي السير في مدارج العُلى ليصل إلى الكمال النهائي.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*بالإيمانِ يُرْتَقى إلى ذِرْوَةِ السَّعادَةِ ونِهايَةِ الحُبُورِ*»[٣١].

إن من أثمن الكنوز الإنسانية الضمير الأخلاقي الذي تمتد جذوره الطبيعية في ضمير الإنسان، وهو ما يُطلق عليه القرآن الكريم اسم الفطرة الإلهيّة. كان الأنبياء يلفتون أنظار الناس إلى هذا الجانب المعنوي الذي يُميز بين أُصول الفضائل والرذائل الأخلاقية. كانوا يحثّون الناس على معرفة هذه الطاقة البنّاءة التي تميز الأخلاق الحسنة من السيّئة، وعلى اتّباع نداء الضمير في الأقوال والأفعال، بصفته نداء الإلهام الإلهيّ الموصل إلى السعادة.

كان الأنبياء يبلّغون الناس أوامر الله ونواهيه، وهي منهاج إصلاح أخلاق الناس وأعمالهم، قائلين لهم إن كل امرىء يكون هو المسؤول عن أعماله في حضرة الله

---

(٣١) فهرست الغرر: ٢٤.

تعالى وينال عليها عقابه أو ثوابه، وبهذا كانوا يغرسون في أعماق الناس أسس الشعور بالمسؤولية، ويحرّضونهم على القيام بواجباتهم الفردية والاجتماعية. فالذين كانوا يستجيبون لدعوات الأنبياء، كانوا يؤمنون بالله حقّاً، ويتقبّلون التعاليم الدينية قلبياً، ويُعدُّون أنفسهم لأداء الأوامر الإلهيّة، ويدفعهم الإيمان لتزكية أنفسهم وإصلاح أخلاقهم، وينبذون اتّباع الهوى، ويكبحون الغرائز النفسانية وأهواءها، ويمسكون أعنّة الشهوات بأيديهم، وينفّذون واجباتهم بصدق في السر والعلن، ويقمعون في أنفسهم الميول غير الصالحة واللّا إنسانية جلباً لمرضاة الله.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*يُسْتَدلُّ عَلَى الإيمانِ بِكَثْرَةِ التُّقى ومِلْكِ الشَّهوَةِ وغَلَبَةِ الهوى*»[٣٢].

الإنسان والمدنية الصناعية

في هذه المدنية الصناعية وقع الإنسان ضحية سحر العلم والصناعة، واندفع جاهداً لمعرفة الطبيعة والاطلاع على العلل الطبيعية، حتى أنّه نسي إنسانيته، وغفل عن معرفة الذّات وطلب المعارف الروحية، وتناسى الإيمان بالله والشعور بالمسؤولية أمام الله، وهو ما كان أساس صياغة الإنسان عند الأنبياء، ونظر إلى مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية كأمور لا قيمة لها، وهكذا أخلّ بالتوازن بين المادة والمعنى، فانتشر بسبب ذلك الركض وراء اللذّة وشاعت عبادة الهوى، وغلبت الغرائز والشهوات على الميول الإنسانية، واتّجه الناس نحو الطباع الحيوانية، ثم لكي يزيدوا من تمتّعهم بالحياة، ويتذوّقوا المزيد من اللذّات، ويحققوا أكبر قدر ممكن من رغبات النفس، استسهلوا القيام بالأعمال غير الإنسانية، وارتكبوا شتّى أنواع الجرائم والآثام.

من المعلوم أن الضرورة الاجتماعية وبقاء المدنية يوجبان على أعضاء المجتمع تقويم غرائزهم، وكبت رغباتهم الشائنة، وتجنّب العناد والسلوك اللّا اجتماعي، واحترام

---

(٣٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٨٦٤.

حدود الآخرين حقوقهم، والتوفيق بين حرماتهم وحريات غيرهم، وكل هذا لا يكون من دون سلطة تنفيذية.

قوة الإيمان والشعور بالمسؤولية ـ في الأديان الإلهيّة ـ من أهم عوامل تحقيق هذه الضرورات الاجتماعية. إن أنبياء الله يربّون أتباعهم على أن يشعروا باطنياً بالمسؤولية، ويحملونهم على الإعتقاد بلزوم رعاية حقوق الآخرين، ويهدونهم بدافع الإيمان إلى طريق الطهارة والاستقامة، ولكنهم، في الوقت نفسه، ينزلون العقاب القانوني بالمنافقين وضعفاء الإيمان، وبذلك يمنعونهم من الانحراف والاعتداء.

«لا تستطيع الحكومات الجديدة أن تقيم مناهجها ـ كما تفعل الأديان ـ على اصلاح أقوال الفرد وأفعاله. بل هي تبذل مساعيها لتجميل ظاهر المجتمع. إنها لا يهمها أن يكون الناس صالحين باطنياً، وإنما تريد أن تجعل الناس (يبدون) كذلك، فإذا استطاعوا المحافظة على الظاهرأكتفوا بذلك، إذ يكفيهم أن لا يكون الفرد متظاهراً بالفساد، وأن لا يكتشفه المجتمع متلبّساً بارتكاب ما لا ينبغي. وأخيراً قد يقوم الفرد بكثير من الأمور، ولكنه يجب أن لا يتظاهر بالفساد. وبناءً على ذلك، تكفي المحافظة على الظاهر في عرف المدنية المادية»[٣٣].

تمكّن العلماء في المدنية الصناعية من الوصول إلى أعماق الطبيعة المظلمة بفضل مساعيهم وجهودهم، واستطاعوا كشف الكثير من الحقائق المجهولة فعرفوها، وانتصروا انتصارات باهرة في مختلف فروع العلوم الطبيعية. ولكنهم، مع كل هذه المعارف والمعلومات، لم يعرفوا أنفسهم، ولم يدركوا قيمتهم الحقيقية، ولم يعثروا على طريق سمو الإنسان وتكامله، فكانت النتيجة أنهم غفلوا عن الله، وحرموا السعادة الحقيقية.

عن النبي(ص)، قال: «*مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدىً، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا*

(٣٣) كتاب فرويد: ٣.

بُعداً»[٣٤].

(٣٤) مجموعة ورّام ١: ٢٢٠.

الفصل الثاني عشر

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ
الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

القرآن الكريم

الإيمان العاصم

بناءً على الشرح الذي ورد في الفصل السابق، لاحظنا أن أساس التربية في الأديان السماوية قائم على الايمان بالله. لقد كان انبياء الله يبدأون منهاج صنع الإنسان بالدعوة إلى الله خالق الكون، فيوقظون في الناس المعرفة الفطرية الكامنة في دخيلتهم، والممزوجة بطينتهم، ويعلّمونهم درس معرفة الله، ويعرِّفونهم على مسؤوليتهم أمام الله تعالى.

إن الذين كانوا يستجيبون لدعوة الأنبياء، ويتقبَّلون دين الله حقّاً، كانوا يقعون على طريق الإنسانية، ويواصلون مسيرتهم خطوة خطوة في مدارج السموّ والتكامل المعنوي، فيستطيعون بقوة الإيمان أن يتغلَّبوا، من جهة، على هوى النفس الذي هو منشأ الإثم والفساد، ويكبحوا الغرائز المتمرِّدة ويتحكَّموا في ميولهم، وينجوا من أسر الشهوات، وكانوا، من جهة أُخرى، يرون أنفسهم مكلَّفين بإطاعة الله تعالى ومسؤولين أمامه، فيربُّون أنفسهم على طهارة الذيل والاستقامة في العمل، لا يبارحهم الشعور بالتزامهم الباطني، لذلك كانوا، بدافع من إيمانهم، يحترمون حقوق الآخرين

وحدودهم، ويلتزمون المبادىء الأخلاقية والإنسانية في كل الأحوال، ويتّصفون طوال حياتهم بالصفات الحميدة والسجايا الإنسانية.

قد يقول قائل إن هناك اليوم في الدول الغربية أُناساً إلهيّين، ويؤمنون بالله الخالق، بخلاف الماديين، ولكن معظمهم، مع ذلك، يتّبعون عملياً غرائزهم وأهواءهم غير المشروعة، ويرتكبون، قليلاً أو كثيراً، الجرائم والأعمال اللّا إنسانية، فإذا كان الإيمان بالله يمنع تسلُّط الأهواء النفسية ويحول دون ارتكاب الجرائم، فلماذا لا يجنّبهم إيمانهم بالله الأخلاق السيِّئة والأعمال القبيحة، ولا يدفعهم نحو التمسّك بإنسانيتهم؟

في الإجابة عن هذا التساؤل لا بدَّ أن نقول إن هدف الأنبياء من دعوة الناس إلى الله تعالى لم يكن لمجرد لفت نظرهم إلى معارفهم الفطرية وإلى حملهم على الإيمان بعالم الخلق، ثم تركهم أحراراً بعد ذلك في إشباع غرائزهم وميولهم، وكيفية سلوكهم وأخلاقهم وأعمالهم في الأسرة وفي المجتمع. بل كانوا يريدون من الناس أن يعرفوا الله تعالى بكل صفاته الكمالية، وأن يعرفوا مسؤوليتهم أمام الخالق تعالى، وأن يعبدوه وحده، ولا يروا غيره جديراً بالعبادة، وأن يطيعوا أوامره في جميع مراحل الحياة من دون قيد ولا شرط، وأن لا يطيعوا كل أمر يصدر خلافاً لأوامر الله، وأن يعقدوا آمالهم على رحمته مطلقاً، وأن يخافوا عذابه ويخشوه.

هذا الضرب من الإيمان هو القادر على صنع الإنسان، وعلى إنقاذه من إطاعة أهواء النفس والغرائز والشهوات، وأن يضعه على طريق الحقّ والعدالة، وأن يهيِّىء له أسباب سموّه وتكامله، وإلّا فإن مجرد الإيمان بالله الخالق ـ من دون التزام أوامره ونواهيه وعدم المبالاة برضاه وسخطه، وعدم الشعور بالمسؤولية أمامه ـ لا يمكن وحده أن يُوقف طغيان الغرائز، ويضمن العمل على وفق الطهارة والفضيلة.

وبتعبير آخر، إن المؤمنين بالله الذي يتمتّعون بالوقاية والصيانة النفسية، وينالون الهداية الكاملة إنّما هم أُولئك الذين يكونون موحِّدين في جميع مراحل التّوحيد، فلا يخلطون إيمانهم بالشرك، ولا يشركون مع الله فيما يختص به وحده من

أمور. يقول القرآن الكريم في هذا:

﴿الَّذِينَ ءَامنوا ولَم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1].

روي أن الآية لما نزلت شقّ ذلك على الصحابة وقالوا: أيّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فقال(ص): «*ليسَ مَا تَظُنُّونَ، إنَّما هُوَ مَا قالَ لُقمانُ لابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]، وليسَ الإيمانُ بهِ أنْ يُصدِّقَ بِوُجُودِ الصَّانعِ الحكيمِ، وَيَخْلِطَ بهذا التَّصديقِ الإشْراكُ بهِ*»[3].

للتوحيد والشرك مراتب ودرجات. فقد يكون الشخص الإلهيّ موحّداً من جهة، ومشركاً من جهة أُخرى. في القرآن الكريم آيات، وفي الدين الإسلامي أحاديث، تبيّن درجات التّوحيد ومراحله، ويمكن تقسيمها إلى أربع مراحل:

*ـ التوحيد في الذّات.

*ـ التوحيد في الصفات.

*ـ التوحيد في الأفعال.

*ـ التوحيد في العبودية.

ولمّا كان موضوعنا هو الأخلاق، فإنّنا نبادر إلى الكلام بإيجاز في التوحيد والشرك في العبودية بصفته فرعاً من فروع بحثنا.

التوحيد في العبودية هو أن يكون معبود الناس خالق الكون وحده فقط، فلا يرون له مثيلاً ولا شريكاً، وأن لا يجعلوا من أنفسهم عبيداً لأيّ شيء ولا لأيّ شخص، إلاّ الله وحده. وهذا أمر الله القاطع، وهو أساس جميع الأديان السماوية.

﴿وقَضَىٰ رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ﴾[4].

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) تفسير البيضاوي. ذيل الآية.

(٤) الإسراء: ٢٣.

إن الله تعالى قد خلق الإنسان حرّاً، فيجب أن يبقى حرّاً، وأن يعيش حرّاً، وأن يحافظ على إنسانيته في ظل الحرية. ليس لأحد، غير الله، أن يلبسه طوق العبودية في عنقه، ليجعله عبداً لهذا وذاك، فيسحق بذلك كرامته الإنسانية.

قال الإمام علي(ع)، في وصيته لابنه الحسن(ع): «*وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً*»(٥).

الشـرك في العبودية أخطر أنواع الشرك الأخرى تهديداً لسعادة الإنسان، وأسرعها دفعاً للإنسان إلى طريق التعاسة والشقاء. ولهذا جاء في التعليمات الإسلامية أن خطره شديد، والآيات والأحاديث التي وردت لتعصم الإنسان من العبودية لغير الله أكثر مما ورد في غيره. كثير من الناس يجدون أنفسهم على مفترق طريقي الشرك والتوحيد في العبودية خلال مسيرتهم في الحياة، فينحرف أغلبهم عن صراط التوحيد المستقيم بسبب من حبّ الذّات أو من جهل، فيسيرون في طريق الشرك، ويخضعون للعبودية لغير الله تعالى، وبهذا العمل غير المشروع يتسبّبون في سقوطهم وهلاكهم المعنوي، وأحياناً المادي أيضاً.

فلكي نحمي أنفسنامن هذا الخطر الكبير، ولا نتعرّض لنتائجه المشؤومة، يجب علينـا أن نزداد معرفة بمعنى التوحيد والشرك في العبودية، وبالهدف الرفيع الذي استهـدفه الدين بهذا الشأن، فنسعى إلى أن نصوغ أنفسنا وفق ذلك، وأن نجعل عقائدنا وأعمالنا تنطبق على التوحيد في الإسلام.

لفظة «عبد» كثيراً ما ترد في كتب اللغة بمعانٍ شتّى تناسب المواضع التي ترد فيهـا. إلّا أن لها فيما يتعلّق بالشرك والتوحيد معنيين اثنين: الأول العبودية بمعنى العبادة، والثاني العبودية بمعنى تلقي الأوامر وإطاعتها. وقد ورد كلا المعنيين في عدد من الآيات القرآنية الشريفة، من ذلك:

﴿وإبْراهيمَ إذْ قَالَ لقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ واتّقُوهُ ذلِكُم خَيْرٌ لكُم إنْ كُنْتُم تعْلَمُونَ

---

(٥) نهج البلاغة، الرسالة: ٣١.

* إِنَّما تعْبدُونَ مِنْ دونِ ٱللهِ أَوْثاناً وَتخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[٦].

في هاتين الآيتين ورد لفظا ﴿اعْبُدُوا﴾ و﴿تَعْبُدُونَ﴾ وكلاهما بمعنى العبادة. ففي الآية الأولى يدعو إبراهيم(ع) الناس إلى عبادة الله الأحد، وفي الآية الثانية يشير إلى خطئهم في عبادة آلهة اصطنعوها لأنفسهم.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُمْ يَا بَني ءَادمَ أَنْ لا تَعْبدُوا ٱلشَّيطانَ إِنَّهُ لكُم عَدُوٌّ مبينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُوني هذا صِراطٌ مستَقيمٌ﴾[٧].

في هاتين الآيتين أيضاً نجد لفظتي ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾ و﴿ٱعْبُدُونِي﴾، وكلتاهما بمعنى الانقياد والطاعة، لا بمعنى العبادة. ففي الآية الأولى يصف الله تعالى الشيطان بأنّه عدوّ للإنسان، ويحذّر أبناء آدم ـ بحسب ميثاقهم معه ـ من الانقياد له كعبيد. من الواضح، بالطبع، أن المذنبين لا يعبدون الشيطان ولا يسجدون له، وإنما الشيطان يأمرهم بالإثم ويحثّهم على العصيان:

﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ وٱلْمُنْكَرِ﴾[٨].

فهؤلاء يطيعون أوامره، ولا يطيعون أوامر الله، فهم باتّباعهم للشيطان يخضعون لذل العبودية له.

وفي الآية الثانية يدعو الله أبناء آدم إلى العبودية له، مذكّراً إيّاهم بصراطه المستقيم،وصراط الله المستقيم هو طريق رسول الله(ص):

﴿وأَنَّ هَذا صِراطِي مسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[٩].

صراط الله المستقيم هو التعليمات الإسلامية الحيَّة التي أوحى بها إلى نبيّه الكريم، وعهد إليه أن يدعو الناس إلى هذا الطريق بإطاعة أوامر الله واتّباعها، وأن

---

(٦) العَنكبوت: ١٦ و ١٧.

(٧) يس: ٦٠ و ٦١.

(٨) النُّور: ٢١.

(٩) الأنعَام: ١٥٣.

يذكّرهم بأن الشيطان قد كمن لهم على هذا الطريق لكي يقطعه عليهم.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[١٠].

فيسعى، بما يوسوس لهم به لأن يحرفهم عن الصراط المستقيم، وأن يدفعهم إلى الإثم والمعصية.

نخلص مما سبق أن للعبودية في بحث التوحيد والشرك مرحلتين:

الأولى: مرحلة العبودية في العبادة.

والثانية: مرحلة العبودية في الطاعة.

ولئن استطاع المؤمنون بالله أن يكونوا موحّدين في كلتا المرحلتين، لأمكنهم بقوة الإيمان، أن يعصموا أنفسهم من الانحرافات العقائدية والسيِّئات الأخلاقية. أما إذا تلوَّثوا، مع وجود الإيمان، بالشرك في العبادة وفي الطاعة، أو بأحدهما، فإنهم لا يكونون محصّنين في وجه الأخطار العقائدية والأخلاقية، وقد لا ينجون خلال حياتهم من ارتكاب أعمال غير إنسانية وغير أخلاقية، متسبِّبين بذلك في تعاستهم وتعاسة الآخـرين. إن تاريخ الإنسان مشحون بالتعاسات الناجمة عن الشرك في العبادة والشرك في الطاعة. وفيما يلي نشير إلى أمثلة منها كشواهد على ذلك:

الشرك في العبادة

أن للدافع الذي يدفع الإنسان للبحث عن الله، ولرغبته في العبادة والتعبّد، جذوراً فطرية في دخيلتـه. لذلك نجد مختلف الملل والأقوام في العالم، وعلى امتداد العصور والأزمان، انجذبوا طبيعياً للسير على هذا الطريق، تحدوهم إرادة معرفة الله خالق الكون، وراحوا يُشبعون رغبتهم الفطرية في العبادة بصور شتّى. كثير منهم ساروا على الطريق الصحيح بقيادة الأنبياء الإلهيِّين، فاتّبعوا الأديان السماوية، وعبدوا خالق الكون إلهاً واحداً خليقاً بالعبادة على وفق الإرشادات الدينية. غير أن فئات

---

(١٠) الأعْرَاف: ١٦.

كثيرة أُخرى جانبت صراط العقل المستقيم، فراحت تفتّش عن آلهة ملموسة في الكائنات الطبيعية، أو اصطنعت لنفسها أصناماً رأتها خليقة بأن تشركها مع الله في العبادة، فأخذت تتذلّل لها وتخضع باسم العبادة. هذه الفئات الضالة المشركة قد حملها الجهل في معرفة الخالق لا على التمسّك بالخرافات فحسب، بل إنها حتى في كيفية العبادة جانبت التعقّل والإنسانية فيما ارتكبت من أعمال، بحيث أن بعضها كان يضحّي بنفسه في سبيل تلك الآلهة المصطنعة، فينتحر مرضاة لتلك الأصنام الجامدة.

قبل أحد عشر قرناً ألّف ابن النديم كتاباً سمّاه «الفهرست» أورد فيه بعضاً من عقائد المشركين وعباداتهم، منها ما يتعلّق بتضحية الأطفال والكبار قرابين للأصنام وللأجرام السماوية، وإحراق الطيور والحيوانات من أجل الآلهة. ومن جملة ما جاء في الكتاب أمور عن معابد البوذيّين في الهند وقرابينهم، فيقول:

«أكبر البيوت بيت (بانكير)، يكون طوله فرسخ، ومانكير هذه هي المدينة التي بها البلهـرا، وطولها أربعون فرسخاً، من الساج والقنا وأنواع الخشب، ويقال إن بها للناس العامة ألف ألف فيل، ينقل الأمتعة، وعلى مربط الملك ستون ألف فيل، وللقصارين بها عشرون ومائة ألف فيل، وفي هذا البيت من البِددة نحو عشرين ألف بُدّ، من أنواع الجواهر، مثل الذهب والفضة والحديد والنحاس والصفر والعاج، وأنواع الحجارة المعجونة، مرصّع بالجواهر السنيّة، والملك يركب في كل سنة إلى هذا البيت، بل يمشي من داره ويرجع راكباً، وفيه صنم من ذهب ارتفاعه اثنا عشر ذراعاً، على سرير من ذهب، وفي وسط قبة من ذهب، مرصّع ذلك كله بالجوهر الأبيض والياقوت الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر، ويذبحون لهذا الصنم الذبائح، وأكثر ما يقرّبون نفوسهم، في يوم من السنة معروف عندهم.

وبيت بالمولتان، ويقال إن هذا البيت أحد البيوت السبعة، وبه صنم من حديد، طوله سبعة أذرع، في وسط القبّة تمسكه حجارة المغناطيس من جميع جهاته بقوى متّفقة، وقيل أنه قد مال إلى ناحية لآفة دخلت عليه، وهذا البيت

في لحف جبل، وهو قبة ارتفاعها مائة وثمانون ذراعاً، تحجّه الهند من أقاصي بلادهم براً وبحراً، والطريق إليه من بلخ مستقيم، لأن سواد المولتان مصاقب لسواد بلخ، وعلى قُلّة الجبل وفي سفحه بيوت للعبّاد والزّهاد، وثمّ مواضع للذبائح والقرابين، وقيل أنه ما خلا قطّ ولا ساعة واحدة ممن يحجّه خلق من الناس، ولهم صنمان يقال لأحدهما جُنْبُكت، والآخر زُنْبُكت، قد استخرج صورتيهما من طرفي وادٍ عظيم خرطاً من حجارة الجبل يكون ارتفاع كل واحد منهما ثمانين ذراعاً يُرى من مسافة بعيدة.قال: والهند تحجّ إليهما وتحمل معها القرابين والدخن والبخورات فإذا وقعت العين عليهما من مسافة بعيدة احتاج الرجل أن يُطرِق إعظاماً لهما فإن حانت منه التفاتة أو سها فنظر إليهما احتاج أن يرجع إلى الموضع الذي لا يراهما منه ثم يطرق ويقصد قصدهما هذا إعظاماً لهما، وقال لي من شاهدهما: إنه يُسفك عندهما من الدماء أمر ليس بالقليل في الكثرة، وزعم أنه ربما اتّفق أن يقرّب بنفسه نحو خمسين ألفاً أو أكثر والله أعلم»[١١].

واليوم، وبعد مضي القرون الطويلة، وما يزال الشرك في العبادة موجوداً في أنحاء من العالم وبصور متنوعة، ومنها الهند، وهناك من يضحّي بالأطفال أمام الأصنام تقرّباً إليها كطقس من الطقوس الدينية، أو يحرق الحيوانات أحياءً باسم عبادة الآلهة.

«دلهي الجديدة ـ رويتر- قال وزير داخلية الهند أمس في جمع من الناس في (بوبال): في قرية من قرى إحدى المحافظات المركزية في الهند، وفي مراسم دينية، قدّموا طفلة في الثالثة من عمرها قرباناً في أحد معابد النار. يقول الخبر أنه في قرية (بونجاري) إلى الجنوب الشرقي من (بوبال) قاموا بتغطية الطفلة بالأخشاب، ثم أشعلوا فيها النار. وأضاف وزير داخلية الهند قائلاً: إن معزة قد أحرقوها قرباناً. ولكي يخمدوا النيران استنجدوا بدائرة الإطفاء في

(١١) الفهرست، ابن النديم: ٤٨٤.

، وعُثر على جسد الفتاة المتفحّم، إلّا أنهم لم يلقوا القبض على أحد بتهمة إحراق الطفلة»[١٢].

التوحيد في العبادة

نصل من هذا إلى أن أول مرحلة من مراحل العبودية وأهمها هي أن يتّخذ الإنسان شخصاً أو شيئاً معبوداً يعبده. وهذا العمل يختص بذات الله المقدّسة في الأديان السماوية التي نرى أن الله وحده دون أيّ كائن آخر، هو الخليق بالعبادة. كان الأنبياء الإلهيّون في كل عصر وزمان يبدأون دعوتهم بالتوحيد في العبادة، ومكافحة العبادات المشركة. ولكي يخلّصوا الناس من الجهل والخرافات، ويحرّروهم من العبودية لغير الله، كانوا يحثّونهم على التفكّر والتعقّل، ويغيّرون أفكارهم بالكلام والنقاش، ويمحون المعتقدات الباطلة والموهومة من صفحات أذهانهم، وينزّهون إيمانهم من الشرك في العبادة، ويهيّئون لهم أسباب تزكية النفس والسموّ الروحي.

إن الإيمان بالله الممتزج بالشرك في العبادة لا يعصم الإنسان، ولا يصونه من الانحراف الفكري، والفساد الأخلاقي، والأعمال غير الإنسانية. إن من يعبد غير الله، ويرتضي ذلّ العبودية والعبادة لمخلوق مثله، لا يمكن أن يكون عزيز النفس كريمًا، ولا يستطيع أن يجنّب نفسه الضّعة والدونية اللّتين هما أصل كل مفسدة أخلاقية.

الشرك في الطاعة

المرحلة الثانية من مراحل العبودية هي تقبّل الأوامر وإطاعتها. إن من يقوم بتنفيذ أوامر شخص آخر، ويضع نفسه موضع الخادم المطيع لذلك الشخص أو الشيء، إنما هو بذلك يجعل من نفسه عبداً له. فإذا أطاع الأوامر الإلهيّة، أو أطاع من كانت أوامره على وفق الأوامر الإلهيّة، فإنه يكون عبداً لله. أما إذا كان يطيع غير الله ويخدمه،

---

(١٢) صحيفة كيهان، العدد: ١٠٤٣٧.

وينفّذ أوامر تخالف أمر الله، يكون قد تخلّى عن العبودية لخالق الكون، وجعل من نفسه عبداً لأحد مخلوقات الله.

جاء في المفردات للراغب الأصفهاني:

«...والثالث عبد بالعبادة والخدمة. والناس في هذا ضربان: عبد لله مخلصاً...وعبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها. وإيّاه قصد النبي عليه الصّلاة والسّلام بقوله: تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار»[١٣].

العبودية، بمعنى إطاعة غير الله، ووضع الشخص نفسه في خدمة هذا وذاك في غير رضى الخالق، قد وردت كثيراً في القرآن الكريم وفي الأحاديث الإسلامية. وفيما يلي أمثلة لذلك:

﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلاَ سيكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيهِمْ ضِدّاً﴾[١٤].

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ أَفأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[١٥].

عن الإمام علي(ع) قال: «*اَلجاهِلُ عَبْدُ شَهْوَتِه*»[١٦].

عن الإمام الحسين(ع)، قال: «*النَّاسُ عبيدُ الدُّنْيَا، والدّينُ لَعْقٌ عَلَى ألسِنَتِهِم، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ معايشُهُم، فإذَا مُحِّصُوا بالبَلاءِ قلَّ الدَّيَّانُونَ*»[١٧].

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*ليسَ العبادَةُ هيَ الرُّكُوعُ والسُّجُودُ، وإنَّما هيَ طاعَةُ الرِّجالِ. مَنْ أطاعَ المخلوقَ في معصيَةِ الخالِقِ فَقَدْ عبَدَهُ*»[١٨].

عن محمّد بن علي الجواد(ع)، قال: «*مَنْ أصْغى إلى ناطِقٍ فقَدْ عبدَهُ، فإنْ كانَ*

---

(١٣) مفردات راغب، مادة «عبد».

(١٤) مَريَم: ٨١ و ٨٢.

(١٥) الفُرْقان: ٤٣.

(١٦) فهرست الغرر: ١٨٥.

(١٧) نفسَ المهموم: ١٢٦.

(١٨) تفسير البرهان: ٦٦٥.

النّاطِقُ عَنِ اللهِ فَقَدْ عبدَ اللهَ، وإنْ كانَ ينطِقُ عنْ لسانِ إبليسَ فقَدْ عبَدَ إبْليسَ» (١٩).

نخلص مما سبق إلى أن الإسلام هو دين التوحيد في العبادة والتوحيد في الطاعة. إن أتباع الإسلام مكلّفون بأن يكونوا موحّدين في العبادة، فلا يعبدون إلاّ الله، ولا يُظهرون التذلّل والخضوع النهائي إلاّ في حضرته، ولا يشركون أحداً في عبادته. كذلك هم مكلّفون في موضع الطاعة أن يطيعوا الله من دون قيد ولا شرط، وأن ينفّذوا أوامره من دون كيف؟ ولماذا؟ وأن لا يطيعوا من يصدر أوامر مخالفة لأوامر الله، وأن لا يجعلوه شريكاً لله تعالى.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى بعَثَ مُحمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ ليُخْرِجَ عبادَهُ منْ عبادَةِ عبادِهِ إلى عِبادَتِه...ومنْ طاعَةِ عبادِهِ إلى طَاعَتِه»* (٢٠).

﴿لا إكْراهَ في ٱلدّينِ قدْ تبيَّنَ ٱلرُّشْدُ منَ ٱلغَيِّ فمنْ يكْفُرْ بالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بٱللهِ فقَدْ ٱسْتَمْسَكَ بٱلعُرْوةِ ٱلوُثْقى لَا انْفِصَامَ لَها وٱللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ (٢١).

يقول الراغب: «...والطّاغوت عبارة عن كل متعدٍّ وكل معبود من دون الله..» (٢٢).

للطّاغوت معنى واسع في اللغة، فهو يشمل كل معبود كاذب، وكل طاغٍ معتدٍ. وعليه، فمن آمن بالله حقّاً، وكفر بالطّاغوت، فقد تنزّه عن الشرك في العبادة، وعن الشرك في الطاعة. هؤلاء هم الذين يعصمهم إيمانهم، ويتمتّعون بالسعادة الحقّة.

يعرف المسلمون عموماً ما هو الشرك في العبادة، ويعلمون أن عبادة الشّمس أو القمر أو غيرهما من الأجرام السماوية، وكذلك عبادة الأصنام أو الحيوانات وغيرها من الكائنات الأرضية، ممنوعة في الإسلام لكونها شركاً في العبادة. ولكن معظم

---

(١٩) تحف العقول، الحراني: ٤٥٦.

(٢٠) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٩٦.

(٢١) البَقَرَة: ٢٥٦.

(٢٢) مفردات راغب، مادة «طغى».

المسلمين لا يعرفون ما هو الشرك في الطاعة، ولا يعلمون أن اتّباع الأفكار الشيطانية، وأهواء النفس، والطّاغوت، وكل أمر يُخالف أمر الله ممنوع أيضاً في الإسلام لكونه شركاً في الطاعة. ولكي يتبيّن الأمر للقرّاء بشكل أوضح، لا بدَّ من الإشارة إلى بعض الآيات والأحاديث التي تصف إطاعة ما يُخالف أمر الله بأنها شرك.

أكل الميتة حرام في الإسلام، فلا يجوز للمسلمين أن يطعموا من لحمها. فخطر للمشركين أن يثيروا الشكّ في ذلك بين المسلمين بإيحاءاتهم الشيطانية وعن طريق البحث والنقاش، ليحرفوهم عن مسيرة الحقّ:

كان مشركو العرب يجادلون المسلمين فيقولون لهم: كيف تأكلون مما تقتلون أنتم ولا تأكلون ممّا قتله الله، وقتيل الله أولى بالأكل من قتيلكم[٢٣].

فأعلن الله للمسلمين:

﴿..وإنَّ الشَّياطِينَ ليُوحُونَ إلى أوْلِيائِهِمْ ليُجادِلُوكُم وإنْ أطَعْتُمُوهُم إنَّكُم لَمُشرِكُونَ﴾[٢٤].

﴿وإنْ جَاهَداكَ علَى أنْ تُشرِكَ بي مَا ليْسَ لكَ بهِ علْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[٢٥].

قال الإمام علي(ع): «*ما صامُوا لَهُم ولَا صلُّوا ولكِنْ أمرُوهُم بمعصِيَةِ اللهِ فأطاعُوهُم. ثمَّ قالَ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ(ص) يقولُ: مَنْ أطاعَ مَخْلُوقاً في غيْرِ طاعةِ اللهِ جلَّ وعزَّ فقَدْ كفرَ واتَّخذَ إلهاً منْ دُونِ اللهِ*»[٢٦].

﴿وما يُؤْمِنُ أكْثَرُهُم بِاللهِ إلَّا وهُم مُشرِكُونَ﴾[٢٧].

عن أبي جعفرالباقر(ع)، قال: «*شِرْكُ طَاعَةٍ ليسْ شِرْكَ عِبادَةٍ*»[٢٨].

---

(٢٣) تفسير مجمع البيان ٤: ٣٥٨.

(٢٤) الأنعام: ١٢١.

(٢٥) لقمان: ١٥.

(٢٦) تحف العقول، الحراني: ٤٢٠.

(٢٧) يُوسُف: ١٠٦.

(٢٨) بحار الأنوار، المجلسي ١٦: ٥.

يتبيَّن من هذه الآيات والأحاديث أن الذين لا يطيعون أوامر الله، ويطيعون أوامر تُخالف أوامر الله، إنما هم مشركون، وقد سمّاهم الإمام الباقر(ع) مشركين في الطاعة، لا في العبادة.

لا بدَّ من القول إن الشرك في العبادة يختلف عن الشرك في الطاعة من عدَّة وجوه. فالشرك في العبادة يسدُّ طريق التوحيد في العبادة، أما الشرك في الطاعة فيسد طريق الشعور بالمسؤولية. الشرك في العبادة كبت للعقل ولجوء إلى الخرافة، أمّا الشرك في الطاعة فإهمال للمصلحة واتّباع لهوى النفس. الشرك في العبادة يناقض التوحيد الذي هو أول ركن من أركان الإسلام وأهمها، أمّا الشرك في الطاعة فلا ينسجم مع صحة العمل وأداء الواجبات الدينية. الشرك في العبادة إثم لا يُغتفر، وهو أعظم درجات الكفر، أمّا الشرك في الطاعة فذنب قابل للغفران، وإذا لم يصطبغ بصبغة الارتداد فلا يؤدِّي إلى الكفر.

عن أبي الحسن الرضا(ع)، قال: «*إِنَّهُ شِرْكٌ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْكُفْرَ*»[٢٩].

إن الموحد الحقيقي والمسلم الصادق هو ذلك الذي يعبد الله وحده في موضع العبادة، ولا يرى أحداً أو شيئاً جديراً بالعبادة غير الله. وفي موضع الطاعة أيضاً يكون مطيعاً لأوامر الله من دون قيد ولا شرط، وهو لا يطيع أحداً، مهما يكن مقامه، إذا كانت أوامره مخالفة لأوامر الله، فيرفضها ولا ينفّذها.

عن علي بن الحسين(ع)،قال: «*وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْمُلْكِ فَأَنْ تُطِيعَهُ وَلَا تَعْصِيَهُ إِلَّا فِيمَا يُسْخِطُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ*»[٣٠].

إذا أراد المؤمنون بالله أن يكونوا موحِّدين في طاعة الله تعالى وأن يعصموا أنفسهم من ذل العبودية لغير الله، لا بدَّ لهم من أن يلتفتوا إلى نقطتين اثنتين:

النقطة الأولى هي أن يستوعبوا التعليمات الإسلامية استيعاباً جيداً، وأن

---

(٢٩) تفسير مجمع البيان ٥: ٢٦٨.

(٣٠) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ٢٣١.

يعرفوا معاني الشرك والتوحيد في الطاعة معرفة حسنة، لكي يستطيعوا تنفيذ الأوامر الإلهيّة كلّاً في موضعه، ويتجنّبوا الإطاعات المشركة.

النقطة الثانية: هي أن يحملوا أنفسهم على التزام إطاعة الله، وعلى الامتناع عن إطاعة كل أمر يخالف رضى الله تعالى، وهكذا يستطيعون اتّباع أوامر الله بوعي، وتنزيه إيمانهم من الشرك في الطاعة. ولكي يزداد القارىء الكريم علمًا بهاتين النقطتين، لابدَّ من ذكر بعض التوضيح بشأنهما.

معرفة التوحيد والشرك

يتّفق أحياناً للمؤمنين، بسبب عدم معرفتهم بالدين وبالأوامر الإلهيّة، أن يُغلَبوا على أمرهم ويقعوا تحت سلطة الآخرين. فيستسلموا لهذا وذاك استسلاماً أعمى، ويطيعوا أوامرهم من دون اعتراض، ويخضعوا لذل العبودية لأولئك. هذه الفئة عرضة دائمًا لخطر الشرك، وقد تنحرف عن طريق التوحيد دون أن تريد هي ذلك، فتشرك بالله وهي في مقام إطاعة غير الله.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم ورُهْبانَهُم أَرْبَاباً منْ دُونِ اللهِ﴾[٣١].

عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبدالله الصادق(ع) عن هذه الآية، فقال: «*أَما واللهِ ما دَعَوْهُم إلى عبادَةِ أَنْفُسِهِم، ولوْ دَعَوْهُم إلى عبادَةِ أنفسِهِم لَما أجابُوهُم، ولكن أَحَلُّوا لَهُم حَراماً وحَرَّمُوا عليهِمْ حَلالًا، فَعَبَدُوهُم منْ حيثُ لَا يشْعُرُونَ*»[٣٢].

فلكي يصون المسلمون أنفسهم من هذا الخطر الكبير، ولا يلوّثوا إيمانهم بالشرك في الطاعة، يجب عليهم أن يتفقّهوا في الدين، وأن يميّزوا بين الحقّ والباطل، وأن يفرّقوا بين الشرك والتوحيد، وأن يعرفوا أوامر الله ونواهيه حقَّ المعرفة، وأن يطيعوا أوامر الآخرين في حدود رضى الله تعالى.

---

(٣١) التوبَة: ٣١.

(٣٢) أصول الكافي ٢: ٣٩٨.

جهّز رسول الله(ص) جيشاً لإحدى حروبه، وعيّن قائداً للجيش، وأمر الجنود بإطاعته وتنفيذ أوامره. فقام هذا القائد في بداية مسيرته بتجربة غريبة. فهو لكي يعرف مدى طاعة جنوده له، أو ليعلم درجات إدراكهم، أو لأي هدف آخر، أمر بنار فأضرمت، ثم أمرهم بأن يُلقوا بأنفسهم فيها. فراح بعض الجنود يتهيأون لتنفيذ الأمر، ورأى آخرون أن هذا الأمر غير صحيح ورفضوا إطاعته فيه.

فقال لهم شاب: لا تعجلوا حتى تأتوا رسول الله(ص) فهو إن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. فأتوا رسول الله(ص) فقال لهم: *«لوْ دخلْتُموها ما خَرَجْتُم منها أبَداً. إنما الطاعَةُ في المَعْروفِ، ولا طاعَةَ لمخلُوقٍ في معصيَةِ الخالِقِ»*[٣٣].

إن معرفة الدين والتعاليم الإلّهيّة من الواجبات المفروضة على كل مسلم، وقد حثّ أولياء الإسلام الكرام أتباعهم، في كثير من أحاديثهم، على التفقّه في الدّين، وطلبوا منهم أداء هذا التكليف المهم، فبذلك يقدرون على استيعاب أوامر الشرع الإسلامي، وتمييز الأعمال المشروعة من الأعمال غير المشروعة، ومعرفة التوحيد والشرك، وتنزيه إيمانهم من الشرك في الطاعة.

عن العالم موسى بن جعفر(ع)، قال: *«تفَقَّهُوا وإلّا أنتُم أعرابٌ جُهَّالٌ»*[٣٤].

من سوء الحظ أن قد حكمَ في التاريخ الإسلامي أشخاص عابدون لذواتهم، طالبوا الناس بأن يكونوا عبيداً لهم، وأن يطيعوا أوامرهم إطاعة عمياء وينفّذوها دون اعتراض. ولهذا عطّلوا ـ عملياً ـ التفقّه في الدّين، ومنعوا الناس من التمييز بين الشرك والتوحيد، وبين الحقّ والباطل، وبذلك حققوا أهدافهم غير المشروعة.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«إنَّ بَني أُمَيَّةَ أطلقُوا للنَّاسِ تعْليمَ الإيمانِ ولَم يُطلِقُوا تعليمَ الشِّرْكِ، لكَي إذا حَمَلُوهُم عليهِ لم يعْرفُوهُ»*[٣٥].

---

(٣٣) مجموعة ورّام ١: ٥١.

(٣٤) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢٠٨.

(٣٥) أصول الكافي، الكليني ٢: ٤١٥.

لم يكن هدف بني أُميَّة من استلاب حرية المسلمين أن يمنعوهم من معرفة معنى الشرك في الصفات، ولا الشرك في الأفعال، ولا الشرك في العبادة، لأن معرفة هذه الأنواع من الشرك وتجنّبها لن يسبب ضرراً لحكومتهم ولن يؤثر على سلطانهم ونفوذهم. وإنما هم كانوا يقصدون منع الناس من معرفة الشرك في الطاعة، لكي يطيعوا الأوامر التي يصدرونها خلافاً لتعاليم الإسلام، ولا يعصونها. وعلى أثر منع تعليم الشرك، أصبح الناس على درجة من الخضوع والطاعة والانقياد بحيث إنهم راحوا يطيعون كل أمر غير مشروع، حتى أنهم غدوا يتقبَّلون كل بدعة واضحة جلية وينفّذونها. هنا نشير إلى أمثلة من ذلك على عهد معاوية:

يقول (ابن شهرآشوب): بعد أن صمَّم معاوية بن أبي سفيان على القيام ضد الإمام علي(ع)، خطر له أن يختبر أهل الشام ليعرف مدى طاعتهم لأوامره. فاقترح عليه عمرو بن العاص طريقة لإجراء هذا الاختبار، قائلاً له: اصدر أمرك إلى الناس بأن عليهم أن يذبحوا القرع كما يذبحون الشاة، فيذكّوه قبل أن يأكلوه. فإذا أطاعوك فثق بتأييدهم وإسنادهم لك، وإلاّ فلا. فأصدر معاوية أمره بذلك، فأطاعه الناس دون أيِّ اعتراض، وانتشرت هذه (البدعة الأموية) في أرجاء الشام[٣٦].

وسرعان ما وصل خبر تلك البدعة إلى أسماع أهل العراق، وراح الناس يتساءلون عن ذلك.

إن أمير المؤمنين سُئِلَ عنْ القَرْعِ يُذْبَحُ؟ فقالَ: *«القَرْعُ ليسَ يُذَكّى، فَكُلُوهُ ولَا تَذْبَحُوهُ ولَا يسْتَهْوِيَنَّكُم الشّيطانُ لعنهُ اللهُ»*[٣٧].

إن المسلمين الذين أطاعوا أمر معاوية غير المشروع يومئذٍ، ونفّذوه على مخالفته أمر الله، هم أشبه بتلك الفئة من أهل الكتاب الذين حرَّم عليهم أحبارهم ورهبانهم ما أحلَّ الله، وحلَّلوا لهم ما حرَّم الله، فكانوا يطيعونهم إطاعة عمياء،

---

(٣٦) فروع الكافي، الكليني ٦: ٣٧٠.

(٣٧) فروع الكافي، الكليني ٦: ٣٧٠.

فيشركون وهم جاهلون.

وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها[٣٨].

بعد حرب صفين قوي سلطان معاوية، وكان الناس يطيعونه وينفّذون أوامره دون قيد أو شرط، منقادين في ذلك نحو الشرك في الطاعة أكثر فأكثر. لقد استسلم أهل الشام لمعاوية استسلاماً جعلهم يُقدِّمون إطاعة أمره على إطاعة أوامر الله ورسوله، وحتى على أوامر العقل والضمير، وكأنهم لا يعنون إلّا بما يريد وما يأمر، ولا يقيمون وزناً للعدل والإنصاف والحقّ والفضيلة والشرف والاستقامة وسائر السجايا الإنسانية الأخرى.

كان أحد الجنود الكوفيِّين قد حضر حرب صفين على بعيره، فقرَّر عند رجوعه أن يُعرِّج على الشام ليطَّلع عن كثب على نظام حكومة معاوية. وعند دخوله دمشق قابل جندياً من جنود معاوية كان قد رآه في الحرب، ويعرف أنَّه من جنود الإمام علي(ع). فتقدَّم هذا نحوه وأخذ بخناقه زاعمًا أن الناقة التي يركبها له، وأنه قد انتزعها منه في حرب صفين. فتجمَّع الناس، واشتد الكلام بينهما، حتى وصل بهما الأمر إلى الرجوع إلى معاوية. فعرض الدمشقي دعواه، واستشهد خمسين شاهداً شهدوا جميعاً بأن الناقة له. فحكم معاوية له وأمر الكوفّي بتسليمه الناقة.

عندئذٍ قال الكوفّي لمعاوية: ولكن هذا جمل وليس ناقة، مع أن الدمشقي كان منذ البداية قد زعم أن الجمل ناقة وشهد له بذلك خمسون شاهداً. في الحقيقة كان الكوفّي يريد بهذا أن يُلفت نظر معاوية إلى أن كل تلك الضجة كانت فارغة، وأن الحكم الذي أصدره كان باطلاً ومخالفاً للحقّ. غير أن معاوية لم يلتفت إليه، وقال إن الحكم قد صدر ويجب تنفيذه.

انتهى مجلس القضاء، وتفرَّق طرفا الدعوى والشهود ولكن معاوية أرسل سراً

---

(٣٨) مروج الذهب، المسعودي ٣: ٣٢.

يستدعي الكوفّي، وسأله عن ثمن الجمل فأعطاه له وأكرمه. وقال له: ابلغ علياً أني أقابله بمئة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل[٣٩].

لقد كان الدمشقي والشهود الخمسون، مثل سائر أهل الشام، يؤيدون معاوية ويطيعونه من دون قيد ولا شرط. ما كان فيهم من يفكّر في الحقّ والباطل، ولا في الحلال والحرام، ولا في رضى الله وسخطه كل ما كان يهمهم هو أن يفعلوا ما يُرضي معاوية وأصحابه ويصيب بالضرر علياً(ع) وأصحابه، فكما قال الإمام الصادق(ع) إن بني أُميَّة لم يمنحوا الناس الحرية لكي يعرفوا الشرك ويستوعبوا التعاليم الإسلامية على حقيقتها، وذلك لكي يستخدموا الناس حينما يشاؤون في أعمال الشرك وفرض غاياتهم غير المشروعة عليهم.

وعليه، فإن معرفة التوحيد والشرك، وتمييز الأعمال الحسنة من الأعمال السيِّئة، من الشروط الأولى لصيانة الإيمان من الشرك في الطاعة. فالمؤمنون بالله إذا أرادوا حفظ إيمانهم من خطر الشرك، وعدم انحرافهم عن مسير التوحيد، يجب أن تكون خطوتهم الأولى تمييز الشرك من التوحيد، ومعرفة الطاعة المشروعة وغير المشروعة، لكي يتمكّنوا من إطاعة أوامر الله تعالى بوعي وإدراك، فيتجنبوا إطاعة الأوامر التي تخالف أمر الله عزَّ وجلّ.

التزام الطاعة

الشرط الثاني في تجنب الشرك في الطاعة هو التزام إطاعة أوامر الله تعالى. فالذين يريدون أن لا يتلوّث إيمانهم بالشرك عليهم ـ بالإضافة إلى معرفة التوحيد والشرك ـ أن يعزموا بإرادة جادة أن يطيعوا الله فعلاً من دون قيد أو شرط، وأن يمتنعوا عن إطاعة أيِّ أمر يُخالف أمر الله، إذ إن التمييز بين الشرك والتوحيد لا يكفي وحده لدفع الناس إلى طاعة الله، ومنعهم من طاعة غير الله بصفتها شركاً في الطاعة.

---

(٣٩) مروج الذهب، المسعودي، بتلخيص ٣: ٣١.

كثيرون أولئك الذين يؤمنون بالله، ويعرفون الحقّ والباطل حقّ المعرفة، ويميّزون بين الشرك والتوحيد، ولكنهم عبيد لشهواتهم وأهوائهم النفسية، فينحرفون عن طريق الحقّ من أجل أن يُشبعوا غرائزهم وشهواتهم الحيوانية، ويتّجهون في طريق خدمة أهوائهم، تاركين طريق التوحيد. هؤلاء عرضة دائمًا لخطر الشرك في الطاعة، وقد لا يتورعون، في سبيل تحقيق أمنياتهم، عن سحق الكرامة الإنسانية، ولا عن معصية الله، ولا عن تحمّل ذلّ العبودية لهذا وذاك، ولا عن ارتكاب آثام كبيرة لنيل أهدافهم غير المشروعة، بل قد يرتكبون أحياناً جرائم لا تُغتفر في ذلك السبيل. يقول الإمام علي(ع) في هؤلاء:

«أقْبَلُوا على جيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بأكْلِها واصْطَلَحُوا على حُبِّها وَمنْ عَشَقَ شَيْئاً أعْشى بصرَهُ، وأمرَضَ قلبَهُ، فهُوَ ينظُرُ بعينٍ غيرِ صحيحةٍ، ويسْمَعُ بأُذنٍ غيرِ سميعةٍ، قدْ خرَقَتِ الشّهواتُ عقلَهُ، وأماتتِ الدُّنيَا قلبَهُ، ووَلِهَتْ عليها نفسُهُ، فهو عَبْدٌ لها ولمن في يدِهِ شيءٌ منْها، حيْثُما زالتْ زالَ إليْها، وحيْثُما أقبلَتْ أقبلَ عليْها، لَا ينزَجِرُ منْ اللهِ بزاجِرٍ، ولَا يتّعظُ منْهُ بواعظٍ»[٤٠].

إن عبيد الدنيا وعشاق العلائق المادية ينسون الإنسانية، ولا يتذكّرون الله، ويتغافلون عن المعنويات، ويقصرون عن إدراك الحقائق. سيئو الحظ هؤلاء هم أسيرو الدنيا، لا يفكّرون إلاّ بها، وكل همهم هو إشباع الغرائز واجتلاب المنافع المادية، لا يفكّرون في تزكية النفس، ولا في سموّ الروح، ولا في تكامل المعنى، وهي كلها هدف الإنسانية الرفيع، ولا يقيمون وزناً لمكارم الأخلاق ولا للسجايا الإنسانية. هؤلاء، بسلوكهم غير المشروع هذا، إنما يظلمون أنفسهم ظلمًا عظيمًا. إنهم يتركون طاعة الله تعالى، ويستبدلونها بالعبودية للدنيا، يعصون أوامر الله ويضعون أنفسهم في خدمة عُبّاد الدنيا وطاعتهم، يضحّون بالروح في سبيل الجسم، ويقدِّمون المعنويات قرباناً للماديات، يبيعون الآخرة بالدنيا، يضيّعون رأسمال الإنسانية الثمين من أجل إشباع

---

(٤٠) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٨.

ميولهم الحيوانية. وهؤلاء هم أشقى الناس وأتعسهم في نظر أولياء الله.

عن النبي(ص)، قال: *«شَرُّ النَّاسِ مَنْ باعَ آخِرَتَهُ بدُنياهُ، وشَرٌّ مَنْ ذلكِ مَنْ باعَ آخرتَهُ بدُنيا غَيْرِهِ»*[٤١].

كان أبو العلاء (يزيد بن أبي مسلم) أخاً في الرضاعة للحجّاج بن يوسف، ويدير له ديوان المكـاتيب لقـاء مرتب شهري قدره ثلاثمئة درهم ما كانت تكفيه معيشته. ومع ذلك فقد كان يقتل الناس من أجل الحجّاج. مرض الرجل يوماً فعاده الحجّاج في بيته، فرآه قد وضع أمامه كانوناً من طين وسراجاً من خشب. فقال له: يا أبا العلاء، لا أرى رزقك يكفيك. فردَّ عليه قائلاً: لئن لم تكفني ثلاثمئة درهم، فلن تكفيني ثلاثمئة ألف درهم[٤٢].

يزيد بن أبي مسلم لم يكن رجل حقّ وحقيقة، ولم يكن يتحمّل ضنك العيش على سبيل الزهد والتقوى في مرضاة الله، بل كان هذا الإنسان ذو الحظ المنكود والمعيشة الحقيرة، عبداً من عبيد الحجّاج، يريق دماء الأبرياء في سبيل توطيد أركان حكمه الظالم الجائر. فهو قد اشترى رضى المخلوق بسخط الخالق، وداس بقدمه الكرامة الإنسانية لتنفيذ أغراض غير مشروعة لشخص جبّار. إنه، كما قال رسول الله(ص)، قد باع آخـرتـه بدنيا غيره، فلحق بركب أتعس النـاس وأرذلهم. لم يخلُ التاريخ الإسلامي من أمثال هذا الشخص الوضيع الرذيل في الماضي والحاضر، وقد تسبّبوا في كثـير من المصائب، وأنزلوا الأذى بدين الله، وكانوا، بأعمالهم القبيحة والقذرة، قد تسبّبوا في تعاسة الآخرين، من جهة، وفي سقوطهم وهلاكهم، من جهة أُخرى.

بعـد واقعـة كربـلاء الدموية، وفي الوقت الذي كان فيه أهل بيت الإمام الحسين(ع) في الشام، اجتمع الناس في يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة، وكان قد حضره الإمام السجّاد(ع). ودخل يزيد المسجد ليؤمّ المصلّين، فأمر الخطيب أن يرقى المنبر،

---

(٤١) كتاب شهاب: ٣١.

(٤٢) الوزراء والكتّاب: ٧٢.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم راح يسبُّ علي بن أبي طالب والحسين(ع)، وتجرَّأ في كلامه على مقاميهما الإلهيَّين. ثم أخذ يمدح معاوية ويزيد ويمجّدهما، ونسب إليهما الكثير من الصفات الحميدة والخصال المجيدة. فصاح به علي بن الحسين(ع): ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق[٤٣].

وعليه، فإن التزام طاعة الخالق في أوامره هو الشرط الثاني لصيانة الإيمان من الشرك. كثير من المؤمنين بالله لا يلتزمون مثل هذا الالتزام. لذلك فهم عندما يرون أن الأمر الإلهي يمنعهم من إشباع أهوائهم وشهواتهم يهملون طاعة الله، وينحرفون عن طريق الحقّ والفضيلة، كما فعل الخطيب الشامي المذكور، فيرتكبون بذلك إثمًا كبيراً، ويستسلمون لعبودية كل وضيع ومنحط ويطيعونه لنيل مقام أو ثروة.

وهناك في قبال أولئك فئة تتحمّل المسؤولية وملتزمة تطبيق الأوامر الإلهيّة، ولا تطيع الأوامر غير المشروعة، ولا تهتم بأوامر هذا وذاك، لا تميل نحو الإثم والفساد، وتلتزم في أقوالها وأفعالها العدل والحقّ والفضيلة والصدق والاستقامة، وتزن رغباتها بميزان التعليمات الدينية. وإذا ما تعارض دفع الضرر أو اجتلاب المنفعة مع أمر إلهي، فإنّها تتقبّل الضرر، وتتنازل عن المنفعة، من أجل تنفيذ أمر إلهي.

حدَّثنا (محمَّد بن أبي العتاهية) قال: حدَّثني أبي: لما امتنعت من قول الشعر وتركته أمر (المهدي) بحبسي في سجن الجرائم فاخرجت من بين يديه إلى السجن فلما أُدخلته دهشت وذهل عقلي ورأيت منظراً هالني فرميت بطرفي أطلب موضعاً آوي إليه أو رجلاً آنس بمجالسته فإذا أنا بكهل حسن السّمت، نظيف الثوب يبين عليه سيماء الخير فقصدته فجلست إليه من غير أن أُسلم عليه أو أسأله عن شيء من أمره، لَما أنا فيه من الجزع والحيرة فمكثت كذلك ملياً وأنا مطرق مفكّر في حالي فأنشد هذا الرجل هذين البيتين. فقال:

تعـوَّدتُ مَسَّ الـضُّـر حتّى ألِفْتُـهُ وأَسْلَمَني حُسْنُ العَـزَاءِ إلى الصّـبر

---

(٤٣) نفس المهموم: ٢٨٤.

وحـــيَّرَني يَأْسٌ منَ النَّـــاسِ واثِقـاً بِحُسْنِ صُنْعِ الله منْ حيثُ لَا أدْرِي

فاستحسنت هذين البيتين وتبرّكت بهما وثابَ إليّ عقلي فأقبلت على الرجل فقلت له: تفضّل اعزّك الله بإعادة هذين البيتن. فقال لي: ويحك يا إسماعيل ـ ولم يكنّني ـ ما أسوأ أدبك وأقلّ عقلك ومروءتك، دخلتَ إلَيّ ولم تسلّم عليّ بتسليم المسلم على المسلم ولا توجّعت لي توجّع المبتلى للمبتلى ولا سألتني مسألةَ الوارد على المقيم حتّى إذا سمعت مني بيتين من الشعر الذي لم يجعل الله فيك خيراً ولاأدباً ولا جعل لك معاشاً غيره لم تتذكّر ما سلف منك فتتلافاه ولا اعتذرت مما قدَّمته وفرَّطت فيه من الحقّ حتّى استنشدتني مبتدياً كأن بيننا أُنساً قديمًا ومعرفة شافية وصحبة تبسط المنقبض!

فقلت له: اعذرني متفضّلاً فإن دون ما أنا فيه مدهش.

قال: وفي أيّ شيء أنت إنـما تركت قول الشعر الذي كان جاهك عندهم وسبيلك إليهم فحبسوك حتى تقوله وأنت لا بدَّ من أن تقوله فتطلق وأنا يُدعى بي الساعة فأطالب بإحضار عيسى بن زيد ابن رسول الله صلَّى الله عليه وآله فإن دللت عليه فسوف يُقتل وبذلك ألقى الله بدمه وكان رسول الله صلَّى الله عليه وآله خصمي فيه وإلّا قُتلتُ فأنا أولى بالحيرة منك وأنت ترى احتسابي وصبري.

فقلت: يكفيك الله،وأطرقت خجلاً منه.

فقال لي: لا أجمع عليك التوبيخ والمنع، اسمع البيتين واحفظهما فأعادهما عليَّ مراراً حتى حفظتهما، ثم دُعي بهِ وبي، فلما قمنا قلت: من أنت أعزَّك الله؟

قال: أنا حاضر صاحب عيسى بن زيد.

فأُدخلنا على المهدي فلما وقف بين يديه قال له: أين عيسى بن زيد.

قال: ما يدريني أين عيسى، طلبتـه وأخفتـه فهرب منك في البلاد وأخذتني فحبستني فمن أين أقف على موضع هارب منك وأنا محبوس؟

فقال له: فأين كان متوارياً ومتى آخر عهدك به وعند من لقيته؟

فقال: ما لقيته منذ توارى ولا أعرف له خبراً.

قال: والله لتدلّني عليه أو لأضربنّ عنقك الساعة.

قال: اصنع ما بدا لك أنا أدلك على ابن رسول الله صلّى الله عليه وآله لتقتله فألقى الله ورسوله وهما يطالباني بدمه والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه.

قال: اضربوا عنقه. فقدِّم فضُرب عنقه.

ثم دعاني فقال: أتقول الشعر أو أُلحقك به.

فقلت: بل أقول الشعر.

فقال: اطلقوه[٤٤].

تجيز التعليمات الإسلامية للمسلمين، لكي يحافظوا على حياتهم وعند الضرورة، أن يرتكبوا بعض المحرّمات بقدر الضرورة، ولكن ما من مسلم يجوز له أن يضحي بحياة أخيه في الدين من أجل نفسه هو، كأن يقتله أو يدفع به للقتل لينجو هو بحياته. لقد كان هذا الإنسان الشريف المؤمن موحداً حقيقياً في مقام طاعة الله. فهو، من جهة، كانت له معرفة بالدين، ويميّز بين الشرك والتوحيد، ويعرف أوامر الله ونواهيه، وكان عازماً، من جهة أُخرى، على إطاعة الله تعالى من دون قيد ولا شرط، وعلى عدم العبودية لغير الله، وعدم تلويث إيمانه بالشرك في الطاعة. كان قد كبح حبَّ الذّات وحب الحياة بقوة الإيمان في ظل التوحيد في الطاعة، فضحّى بحياته واستقبل الموت، ولكنه لم يرتض عصيان الله، ولا الاستهانة بكرامة الإنسان، ولا أن يرتكب إثمًا لا يُرضي الله، بأن يتسبّب في مقتل شخص من أجل أن يبقى هو حيًّاً بضعة أيام أُخرى.

نستنتج من مجموع البحث أن المؤمنين بالله لا يمكن أن يتمتّعوا بالصيانة الإيمانية، ولا أن يتجنّبوا الفساد في العقيدة والأخلاق، إلّا إذا استطاعوا أن يحولوا دون تلوث إيمانهم بالشرك، وأن يكونوا موحّدين في مقام العبادة والعبودية. وبحسب

---

(٤٤) جوامع الحكايات: ٣٤٧.

الآيات الأحـاديث التي ذُكـرت، رأينـا أن للتوحيد مرحلتين: التوحيد في العبادة، والتوحيد في الطاعة.

الموحد في العبادة هو الذي يعبد الله وحده، ولا يُشرك معه أحداً، ولا يرى أحداً أو شيئاً غيره يستحق العبادة.

الموحد في الطاعة هو الذي يطيع الله من دون قيد ولا شرط، ولا يرى له شريكاً في الأمر، ويمتنع عن إطاعة كل أمر يخالف أمر الله. وكلتا هاتين المرحلتين هما أساس سعادة الإنسان وطريق رفعته وتكامله.

إن الـذين ليسـوا موحِّـدين في العبادة، ويجعلون غيره معبوداً لهم يعبدونه، يكونون أسرى الانحراف الفكري، والفساد في العقيدة. فهؤلاء قد قمعوا العقل، من جهة، واستهانوا بالإنسانية، وخضعوا لذلّ عبادة مخلوق مثلهم، وهم، من جهة أُخرى، قد ارتكبوا أعمالاً غير إنسانية ولا أخلاقية، بدافع من معتقداتهم الخرافية، بحيث إنهم أخذوا في بعض الأوقات يحرقون الأطفال والحيوانات الأحياء قرابين للآلهة، أو يثبتون عبوديتهم لأصنامهم الجامدة بذبح الأطفال أو بالإقدام على الانتحار.

والذين ليسوا موحِّدين في الطاعة، وينفذون أوامر تُخالف أمر الله، يكونون دائمًا عرضة لأنواع المفاسد والآثام. إن القسم الأعظم من السيِّئات الأخلاقية ومن الإجرام عند الناس ناجم عن الشرك في الطاعة، وعن إطاعة غير الله، وقد يكون بعضهم عبيداً لأهوائهم الباطنية، فيطيعون هوى النفس في إشباع شهوات الغضب، وحب المال والجاه، وغير ذلك من الغرائز والميول، فيعصون الله، ويلوِّثون أذيالهم بشتّى أنـواع الفسـاد والأعمال المنافية للأخلاق. وثمّة آخرون يطيعون طواغيت زمانهم والمستبدين المعاندين، ويعصون الله بإطاعتهم لأوامر أولئك غير المشروعة، ويرتكبون أكبر الجرائم والآثام والأعمال غير الإنسانية، فيكونون سبباً في سقوطهم وهلاكهم. ونتائج أعمال هاتين الفئتين متشابهة من الناحية المعنوية، فمخالفة أمر الله، كيفما تكن، شرك في الطاعة، ومن يعصي أمر الله يكن على قدر عصيانه آثمًا وفاسداً في أخلاقه.

من المعلوم أن دور الحكومات المستبدة قد انقضى في الدول المتقدمة اليوم، حيث أُعطي زمام إدارتها بيد نخبة من الناس، وأصبحت القوانين والقرارات الحكومية تقوم مقام الإرادة الفردية المستبدة. ولكن هل يمكن، مع هذا التطور العميق، أن نقول إن الحكم الطاغوتي قد زال من هذه الدول، وإن الشرك في الطاعة ـ بمعنى إطاعة الأوامر غير الإلهيّة للمستبدين ـ قد انتهى فيها؟

الجواب عن هذا السؤال بالنفي، فشعوب الدول الحرّة اليوم، مثل الشعوب التي كانت رازحة تحت استبداد الطغاة بالأمس، ما تزال تطيع أوامر طغاة زمانها، وتنفذ تلك الأوامر الظالمة، مع فارق أن الطغاة بالأمس كانوا مفروضين فرضاً، أمسكوا بزمام الأمور بالقوة، وأجبروا الناس على إطاعة أوامرهم، بينما طغاة اليوم يأتون عن طريق الانتخـاب، إذ يقوم الناس بمنحهم آراءهم ويضعونهم على كراسي الحكم، وبذلك يلبس الناس أطواق العبودية والطاعة طوعاً في أعناقهم.

الإلهيّة ينية

والتشريعية على جميع الشؤون المادية والمعنوية. ومعيار الحكومة الطاغوتية هو إصدار أوامـر مخالفة لأوامر الله، وميزان الشرك في الطاعة يعتمد على مقدار إطاعة أوامر الطاغوت وتنفيذ طلباته غير المشروعة. ولا فرق في أن تكون هذه المخالفة لأوامر الله بأمر شخص مستبدّ واحد، أو بأمر من الأكثرية القانونية، ففي كلتا الحالتين تكون الحكومة حكومة طاغوتية، ويكون المنفِّذون مشركين في الطاعة.

قبل ثلاثة قرون، كتب (مونتسكيو) كتاباً وضع فيه القوانين موضع البحث والدرس من جهات مختلفة، وخصَّص جانباً من كتابه لدراسة الرقّ والعبودية التي كان المجتمع يومئذٍ مبتلى بها. يقول:

«إن تحرير أعداد كثيرة من العبيد بقانون خاص ليس من الصلاح في شيء لأنـه يسبِّب اختـلال النظام الاقتصادي للمجتمع، كما أن له مفاسد اجتماعية وسياسية. خذ مثلاً الظلم الذي حدث لشعب (ولسيني) حيث أن الغلمان الذين تحرَّروا نالوا حقّ التصويت في الانتخابات وحازوا الأكثرية،

فوضعوا قانوناً يقضي بأن كل شخص حرّ أصلاً يريد أن يتزوج يجب أن يدعو أحد الغلمان المحرَّرين لينام مع عروسه ليلة زفافها، ثم يستعيدها في الليلة التالية»[٤٥].

أن القتـل والجرح والتدمير التعذيب في المعسكرات والجرائم الأخرى التي ارتكبت خلال الحرب العالمية الثانية بأمر من أصحاب السلطة الظالمين المحبِّين للجاه، وعن طريق القوانين الجائرة غير الإنسانية التي وضعتها الدول المتقدمة لاستغلال الشعوب الضعيفة ونفَّذتها بالجبر والإكراه بالقوة، كلها تبيّن الحقيقة القائلة بأن واضعي القوانين اليوم لا يختلفون عن المستبدين بالأمس من حيث عبادتهم لذواتهم، ومن حيث طبيعتهم الافتراسية أحياناً، وهم، في حبهم للاستعلاء واجتذاب المنافع المادية، يسيرون في طرق ليس فيها شيء من العدل والإنصاف، ولا هي تجري على وفق الحق والفضيلة والضمير الأخلاقي والكرامة الإنسانية، بل هي على خلاف الموازين الإلهيّة، يحملون شعوب تلك البلدان، بوعي أو بدون وعي، على إطاعة حكومتهم الطاغوتية، وتنفيذ أوامرهم غير المشروعة.

في الإسلام، تنفيذ كل أمر مخالف لأمر الله شرك في الطاعة، ومنفّذه يسحق كرامته الإنسانية ويجعل من نفسه عبداً للآمر.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَنْ أطاعَ رَجُلًا في مَعْصيَةٍ فَقَدْ عَبَدَهُ*»[٤٦].

---

(٤٥) روح القوانين: ٢٩٩.

(٤٦) أصول الكافي، الكليني ٢: ٣٩٨.

الفصل الثالث عشر

﴿ولَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

القرآن الكريم

نسيان النفس

نسيان النفس من جملة العيوب المعنوية الكبيرة، وأحد الأمراض الأخلاقية الخطيرة، فبسبب هذا المرض يُصاب الإنسان بالضعة ودناءة النفس، فينسى إنسانيته، ويتخلّى عن كرامته، ويهمل نداء الضمير الأخلاقي، ولا يقيم وزناً للسجايا الإنسانية. إن امرءً هذا شأنه يكون عرضة للتلوّث بالسيئات الأخلاقية، ويسير نحو الانحطاط والسقوط لإطاعته أهواءه النفسية وميوله الغريزية في أقواله وأعماله، ولا أُباليّته في ارتكاب الأعمال غير الإنسانية والمنافية للأخلاق، ولا يقيم وزناً للحقّ والفضيلة، ويتعامى عن العدل والإنصاف، سريع الاندفاع نحو الإثم والفساد، ولا يتورّع عن ارتكاب أقبح الأعمال في سبيل تحقيق شهواته وأُمنياته، ويستهين بالكرامة الإنسانية، وينحدر من قمة إنسانيته إلى حضيض الحيوانية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «قَبيحٌ بِذِي العَقْلِ أَنْ يَكُونَ بَهيمَةً وقَدْ أَمكَنَهُ أَنْ يَكُونَ إِنساناً»[1].

---

(١) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١٠: ٤٠٦.

«الحسن هو ما يعيننا على الصعود نحو التكامل، ويهدينا من الحيوانية إلى التحرر.

والقبيح هو ما يتعارض والتكامل، ويدفع نحو الانحطاط والحيوانية، مبتعداً عن الكمال.

وبعبارة أُخرى، الحسن في نظر الإنسان هو احترام شخصية الإنسان. والقبيح هو الذي لا يحترم هذه الشخصية.

إن احترام شخصية الإنسان قائم على معرفة كرامة الإنسان بصفته عامل التكامل بعون الله. لا يمكن أن نتصوّر كرامة تخلو من مسؤولية، والمسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان خطيرة، فهو ليس مسؤولاً عن مصيره وحده، بل بيده مصير التكامل، وله في كل لحظة أن يختار الصعود أو النزول»[٢].

نسيان النفس عقاب الذين ينسون الله، ويغفلون عن خالق العالم، ولا يتذكّرون مسؤوليتهم أمامه، ويتعامون عن سنن الله التكوينية وقوانينه التشريعية، ويهملون العمل بمناهج التسامي والتكامل. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿ولاَ تكُونُوا كاَلَّذينَ نَسُوا اَللهَ فأنْساهُمْ أنفسهُم أُولئِكَ هُمُ اَلفاسِقُونَ﴾[٣].

تذكُّر الله تعالى يبعث على الوعي الذاتي والتخلّق بالصفات الحميدة والسجايا الإنسانية، ونسيان الله تعالى يبعث على نسيان الذّات والتلوّث بالآثام والسيِّئات. الأخلاقية. بذكر الله يتنبّه الإنسان إلى مسؤوليته المعنوية، ويلتزم أوامر الله في قوله وفعله، ويعتاد على الصدق وتحمّل المسؤولية، وينال السعادة والنجاة، وبنسيان الله تعالى تُنسى المسؤولية المعنوية، ويميل الإنسان إلى العصيان، ويتبّع أهواءه وغرائزه، ولا يُبالي بواجباته الإنسانية، ولكي يشبع شهواته يمتنع عن إطاعة الأوامر الإلهيّة، ويتّخذ سبيله على طريق الانحراف والضلال.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَنْ كانَ ذاكِراً لله على الحقيقةِ فهوَ مُطيعٌ*،

---

(٢) مصير البشرية: ١٥٨.

(٣) الحشر: ١٩.

ومنْ كانَ غافِلًا عنهُ فهوَ عاصٍ. والطاعةُ علامةُ الهدايَةِ، والمعصيَةُ علامةُ الضَّلالَةِ، وأصلُهما منَ الذِكْرِ والغَفْلَةِ»[٤].

رأس مال الإنسان

ذكر الله رأس مال إنساني لا يقدَّر بثمن، فهو قد امتزج بطينته بأمر من الله تعالى، وهو ما تعبِّر عنه الأحاديث الإسلامية باسم «المعرفة الفطرية». لهذا، عندما يستيقظ ذهن الطفل، وتبدأ قوة إدراكه بالعمل، يشرع في التفكير في نفسه وفيمن أوجده، وعن طريق التنبُّه إلى نفسه يتنبَّه إلى الله تعالى. وبدافع من هذه المعرفة الفطرية والإحساس الباطني، ينمو في الطفل حب الاستطلاع والبحث، فيأخذ بطرح الأسئلة على أبويه، ويُصيخ بدقة إلى ما يدور حوله من حديث، فهو يريد أن يزداد معرفة بخالقه، وأن يقترب منه، وأن يقدِّم له فروض الشكر. إن هذه الوديعة التي أودعها الله في أعماق الروح الإنسانية هي نقطة الارتكاز التي استند إليها الأنبياء، وهي قاعدة الأديان المكينة.

«الإيمان أمر طبيعي، وهو وليد حاجتنا وإحساسنا الباطني. ضع الدين تحت الضغط قرناً من الزمان، ثم قلِّل من ضغطك، تجد أنه في غضون سنة واحدة كيف يرفع رأسه. الإيمان أقرب إلى الطبيعة من الشكّ، ولذلك فهو أسهل»[٥].

لو أبقى الإنسان المعرفة الفطرية حيّة في دخيلته، وزادها تفتّحاً بقوة العقل والتفكّر في آيات الله، لبلغ مرحلة الإيمان الاستدلالي، ولصار عارفاً بالله، ولأدّى واجباته الأخلاقية والإنسانية في ظل ذكر الله، ولاستمتع بالسعادة الحقيقية.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«مَنْ عَمَرَ قَلْبَهُ بدوامِ الذِّكْرِ حَسُنَتْ أفعالُهُ في السِّرِّ والجَهْرِ»*[٦].

---

(٤) مصباح الشريعة: ٥.

(٥) مباهج الفلسفة: ٤٧٦.

(٦) فهرست الغرر: ١٢٥.

إذا كبت الإنسان معرفته الفطرية، ولم يصغِ إلى النداء الباطني والانجذاب الروحاني، وغفل عن ذكر خالق العالم، نسي نفسه وجفته النظرة الإنسانية التي هي أساس السمو والتكامل.

قال الإمام علي أمير المؤمنين(ع)، «*مَنْ نَسِيَ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْساهُ اللهُ نَفْسَهُ وأَعْمى قَلْبَهُ*»[٧].

ولكي تتبيّن العلاقة بين نسيان النفس ونسيان الله، ويتنبّه المعنيون إلى هذا الأمر التربوي المهم من وجهة النظر الدينية. سنبحث ذلك في هذا الفصل مستشهدين ببعض آيات القرآن الكريم وبالأحاديث الإسلامية الشريفة.

يقول الراغب: «النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإمّا عن قصد، حتى يحذف عن القلب ذكره»[٨].

النوع الأول من النسيان ليس هنا موضع بحثه، وصاحبه لا يُقبّح به، لأنّه نسيان ناجم عن ضعف في الذاكرة، فهو ليس اختيارياً، بل يكون لعارض من شيخوخة أو مرض. أما موضوع بحثنا فهما النوعان الثاني والثالث، وأصحابهما هم الذين عن غفلة، أو تغافل، أو تعمّد، ينسون ذكر الله، ويهملون مسؤولياتهم فينسون بالنتيجة أنفسهم.

هؤلاء، فضلاً عن سحقهم بالأقدام قيمهم المعنوية وكراماتهم الإنسانية، فإنهم، بسبب من نسيانهم أنفسهم، قد يتطبّعون بطبيعة الافتراس، فيعتدون على حقوق الآخرين من دون رادع ولا خوف، ويفرحون لما يسبّبونه لهم من شقاء وتعاسة.

في أيام خلافة (عبدالله بن الزبير) في الحجاز، ذهب حامل ختم الخليفة عبدالملك بن مروان من الشام إلى زيارة بيت الله الحرام، وهناك التقى مع أحد خواص عبدالله بن الزبير ومن خلال البحث والجدال تنازع الرجلان وافترقا.

---

(٧) فهرست الغرر: ٣٨١.

(٨) المفردات، الراغب، مادة «نسي».

وبعد دخول الحجاج بن يوسف مكة وقتل عبدالله بن الزبير تمَّ القبض على أصحاب ابن الزبير وإلقائهم في السجن بعد إرسالهم إلى الكوفة، وكان أحد الأشخاص الذين أُلقي القبض عليهم هو الشخص الذي تنازع مع حامل ختم الخليفة.

وكتب الحجّاج من العراق برسالة إلى عبدالملك حول مصير السجناء، فأمر عبدالملك حاجبه بالردّ على الرسالة وذلك بتعيين عددهم وكتابة أسمائهم، فكانت العبارة «أحصهم واكتب اسماءهم» وبعد كتابة الرسالة وتوقيعها من قبل الخليفة أعطيت لحامل ختم الخليفة لتدقيقها وختمها. وكان حامل ختم الخليفة قد عرف أن أحد السجناء المذكورين في الرسالة هو الشخص الذي تنازع معه عند زيارته لبيت الله، فأراد انتهاز الفرصة والإنتقام منه، ولذلك فكّر بفكرة شيطانية عجيبة. فقال بصوت عالٍ لقد نسيت أن أضع نقطة على إحدى الكلمات، فهل لي الإذن بوضعها؟ فأذن له، فوضع نقطة على «حـ» احصهم فأصبحت أخصهم وبعد ذلك أُغلقت الرسالة وهيّئت للتوزيع مع بقية الرسائل.

وبذلك تغيّر أمر الخليفة إلى خصي خواص عبدالله بن الزبير. وعند وصول الرسالة إلى الحجّاج تمَّ العمل الهمجي وذلك بخصي السجناء وحرمانهم من الحياة الطبيعية[٩].

هل لنا أن نصف حامل أختام عبدالملك بأنه إنسان؟ أكان يملك شيئاً من الشرف الإنساني؟ هل كان يعرف شيئاً عن روح الإنصاف التي هي إلهام من الله؟ هل تجيز الإنسانية لشخص ما أن يرتكب مثل هذه الجريمة الكبرى فيصيب عشرات الأشخاص بعاهة دائمة وعذاب مقيم مرير؟

إن حامل أختام عبدالملك وأمثاله، من الذين نسوا أنفسهم لنسيانهم الله تعالى، قد نسوا الإنسانية وتنكّروا لسجاياها. وما دام هؤلاء عبيداً لأهوائهم وغرائزهم،

---

(٩) حوامع الحكايات: ٢٧٨.

ومطيعين للغضب والشهوة، فسيظلون وحوشاً في صورة إنسان، إلّا ذا صَحَتْ قلوبهم، ورجعوا عن طريق الضلال، وكبحوا هوى النفس بذكر الله، وأصلحوا غرائزهم بقوة الإيمان، واتّبعوا العقل والضمير، واستعادوا بالمجاهدة والسعي إنسانيتهم.

الناس في نسيان الله فئتان: فئة الماديين، وفئة المؤمنين الغافلين.

الماديون نسوا الله منذ أن وعوا المعرفة الفطرية، فمنذ البداية نسوا ذكر الله الكامن طبيعياً في دخيلة كل إنسان، فأزاحوا ذكره عن خواطرهم عن عمد وتقصّد. أما المؤمنون الغافلون فقد التفتوا إلى المعرفة الفطرية، وسعوا لمعرفة الله، وعلى أثر دراسة آيات الله والإمعان فيها استطاعوا أن يصلوا إلى مرحلة المعرفة الاستدلالية، بنسبةأوبأُخرى،والتحقوا بفريق الإلٰهيّين. ولكنهم في غمرة سعيهم لإشباع غرائزهم، وتحقيق أمانيهم غير المشروعة، نسوا الله وغفلوا عن ذكره. إنّ الغفلة عن ذكر الله، في كلتا الحالتين، تؤدّي إلى نسيان النفس، وإلى منع الإنسان من القيام بواجباته الإنسانية، وإلى السير في طريق الفساد الأخلاقي. ولكي نوضّح هاتين الحالتين بعض الشيء، نواصل هنا الإشارة إلى الحالة النفسية عند كل فئة وطريقة تفكيرها.

الماديون

أتباع المذهب المادي يعتبرون البشر وسائر الكائنات الأرضية والسماوية قد قد خُلقوا صدفة، ولا يؤمنون بالخالق الحكيم ومشيئته الحكيمة، معتقدين أنّ الإنسان، بكل مواهبه واستعداداته الذاتية هو نتيجة لتأثيرات المادة الجامدة غير العاقلة، وناجم عن التطورات والتحوّلات العمي التي وجدت في الطبيعة صدفة. هؤلاء يرون الإنسان كائناً مادياً مئة بالمئة، ولا ينظرون إلى تطوّره وتقدّمه إلّا من حيث شؤونه المادية والطبيعية، من دون أن يقيموا وزناً للإنسان من حيث سموّه الروحي وتكامله المعنوي.

هدف الحياة عند هذه الفئة هو إشباع الغرائز والرغبات النفسية، والتمتّع باللذّات المادية. ولا يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهدف إلّا الموانع الطبيعية والصحيّة

التي تبقي على حياتهم، وكذلك الموانع الاجتماعية لئلا يطردهم المجتمع من بين صفوفه أو يعاقبهم القانون. أما من الجهات الأخرى فهم يرون أنفسهم أحراراً، لا يلتزمون في قول أو فعل ما يفرضه الضمير الأخلاقي والمسؤولية المعنوية، ولا يعنون بالسموّ الروحي والتكامل المعنوي، ولا يفكّرون بالسجايا الإنسانية ولا بمكارم الأخلاق.

بعبارة أُخرى، تختلف نظرة المؤمنين بالله إلى الإنسان عن نظرة الماديين إليه اختلافاً مبدئياً وأساسياً، فكل من هاتين الفئتين تنظر إليه من منظورها الخاص بها.

الإلهيون

هذه الفئة تعتقد أن الإنسان من مخلوقات الخالق الحكيم، وإن الحكيم لا يمكن أن يصدر منه عمل لغو وباطل. فجميع الأعضاء والجوارح التي وضعها الخالق العليم في بناء الإنسان، وجميع القوى والقدرات التي منحها له، إنما كانت لأغراض حكيمة ولسد حاجاته المختلفة، ولكل منها نصيبها في إسعاد الإنسان مادياً ومعنوياً.

خلق الله تعالى الإنسان ووهبه حقّ الخيار في أعماله الإرادية والحرية فيها، وعهد إليه أمر السير في طريق الرفعة والتكامل، أو السير في طريق الضعة والانحطاط. فمن جهة جهزّه الله تعالى بما جهَّز به الحيوان من القوى المادية والغرائز الطبيعية، مثل حب الذّات، والميول الجنسية، وحب الولد، والاستعلاء، واللذّة، والرغبة في الانتقام، وغير ذلك من الميول الحيوانية التي يتمكّن بها من إدارة حياته المادية، ومن الإبقاء على حياته الفردية والجماعية. وهو من جهة أُخرى قد جهّزه بكنوز إنسانية ثمينة، ومتّعه بقوى معنوية رفيعة، يتمكّن بها من صياغة إنسانيته والوصول إلى الكمال الجدير بالإنسان. لقد وهب له المعرفة الفطرية لكي يدرك وجود الله تعالى عن طريق الجاذب الباطني، وأن يتذكّر خالقه. ووهب له العقل لكي يعرف به الخير والشّر، ويميّز به الصلاح والفساد. ووهب له الضمير الأخلاقي لكي يشخّص به، من دون مربٍّ أو معلّم، أُمهات الفضائل والرذائل، ويتّبع نداءه ـ وهو نداء الإنسانية في الإنسان ـ في التعامل مع الناس. ووهب له الميول الإنسانية السامية لكي

يجهّز نفسه بمكارم الأخلاق، ويتمتّع بكرامة النفس وسموّ الروح. وفضلاً عن ذلك أرسل الأنبياء لبيان ما على الإنسان وماله في جميع الحالات والظروف، ولإيقاظ حسّ الشعور بالمسؤولية في دخيلته، ولهدايته إلى طريق الإنسانية.

لو أن الإنسان استعمل حريته استعمالاً سليمًا، وعُني بشؤونه المادية الحيوانية إلى جانب عنايته بالجوانب المعنوية الإنسانية، واستمع إلى نداء العقل والضمير من الداخل، ونداء الأنبياء من الخارج، وصاغ نفسه على وفق النهج الإلهي، لأصبح إنساناً يرقى مدارج الكمال الرفيعة. أما لو أنه أساء استعمال الحرية، وكبت الإنسانية في ذاته، واتّبع أهواءه وميوله الغريزية، ولم يعن إلّا بالشهوات والشؤون المادية، لكان نصيبه الانحطاط والسقوط ولانحدر إلى أدنى من مرتبة الحيوانات.

عقيدة الماديّين

يعتقد الماديون أن الإنسان، بكل قواه الداخلية والخارجية إنما هو حصيلة حركة المادة، والعوامل الطبيعية، والصدفة ،ولا شأن لأية إرادة حكيمة في وجوده، وكذلك لا شأن لأيّ تقدير أو حساب عليم. يقول هؤلاء أن الإنسان والحيوان ليسا إلّا ظاهرة مادية مئة بالمئة، وجدت في أحضان الطبيعة . صدفة وبشكل عشوائي مع فارق أنَّ الحيوان لا يملك غير غرائزه الحيوانية وميوله الطبيعية، بينما الإنسان يملك، بالإضافة إلى تلك الغرائز والميول، مزايا إنسانية، كما أنه، على أثر سلسلة من العلل المادية والتفاعلات التصادفية التي وقعت في الطبيعة، ظهر فيه العقل والضمير وغيرهما من الخصائص الخاصة بالإنسان، فكان له هذا التفوّق والامتياز من باب الاتفاق.

إن الذين يؤيدون هذه النظرية، ويعتقدون أن الإنسان ظاهرة تصادفية من صنع الطبيعة، عاجزون عن فهم إنسانية الإنسان وعن معرفة مقامه الرفيع. إنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى الإنسان بعين الواقع، ويدركوا قيمته الحقيقية، ويعرفوه كما هو ويحسبوا حساب جوانبه المعنوية والروحية إلى جانب حسبانهم جوانبه المادية.

إن من يتصوّر أن قوة العقل والضمير قد ظهرت في الإنسان على أثر تطورات عشوائية لا يمكن بالطبع أن يشعر بأيّ مسؤولية أمام الطبيعة الجامدة العمياء، ولا يجد نفسه، أخلاقياً ملزماً باحترام إنسانية الإنسان عملياً، وأن يلتزم الشرف والفضيلة رغم شهواته غير المشروعة وميوله العدوانية، فيمتنع عن ارتكاب الأعمال غير الإنسانية والمنافية للأخلاق.

يقـول الماديون في أنفسهم أن غريزة الشهوة الحيوانية والضمير الأخلاقي الإنساني ظاهرتان طبيعيتان تصادفيتـان، وليستا قائمتين على أيّ أساس من تقدير وحساب وحكمة ومصلحة في دخيلة الإنسان. وعليه، فعندما لا ينسجم إشباع الشهوة مع نداء الضمـير الأخلاقي، فليس ثمّة ما يوجب كبح الرغبة في إشباع الغريزة، وإطـاعـة نداء الضمـير الأخلاقي، والامتناع عن التلذّذ بالرغبة المطلوبة، وقبول الحرمان منها.

النـظرية المـادية تحطّ من مقام الإنسان الشامخ وتضع من مكانته وقيمته، وتعتبره كائناً تافهاً حقيراً. أتباع هذه النظرية يكبحون في أنفسهم الرغبة في البحث عن الله، ويبعدون المعرفة الفطرية عن صفحات خواطرهم، وينسون وجود الله تعالى. وبنسيانهم الله ينسون أنفسهم، وبتغافلهم عن الخالق الحكيم يغفلون عن الإنسانية وقيمها، وينسون أنفسهم إلى درجة أنهم في إنكارهم الله يعارضون ضميرهم العقلي والاستدلالي، ويقمعون إدراكهم الطبيعي، ويتغاضون عن الآيات الإلٰهيّة وبراهينه، وينكرون وجود الخالق من دون دليل. وما هذا التغاضي عن الحقيقة إلّا الدليل الأكبر على نسيان النفس وفقدان السجايا الإنسانية.

«ليس في قاموس البشر حقيقة أوضح وأهم من حقيقة وجود الله. فنحن مهما أوغلنا في تاريخ العلم والفلسفة فلن نعثر على مفكّر استطاع أن يقيم الدليل على عدم وجود الله، ولكننا نجدهم يتناولون أدلة المؤمنين بوجود الله بالنقد والتشكيك. ومن المؤسف أن تبدو هذه الانتقادات والتشكيكات في نظر النـاس العاديين كأنها تعني أن للناقدين أدلة على عدم وجود الله، بينما من

البديهي أن (تفنيد أدلة أحد الطرفين) لا يمكن أن يكون (دليل إثبات لدعوى الطرف الآخر).

إن إنكار الله ليس وقوفاً في وجه حالة الروح الطبيعية والتفكير المحايد فحسب، بل إن إنكـار الله ـ كما يقول (آندره جيد) ـ ليس بتلك البساطة المتصوّرة، فذاك يقتضي الكثير من الصفاقة.

في الواقع، منكر الله يدَّعي دعوى لا يمكن إثباتها بأيّة مقولة منطقية، إذ إن من ينكر وجود الله يجب أن يكون عالماً بجميع أجزاء عالم الوجود لكي يزعم ذاك الزعم، فأيُّ إنسان هذا الذي يعلم كل شيء؟»[١٠].

النظرية المادية أيّدها في الماضي فريق من الناس، وما يزال اليوم من يؤيدها أيضاً. ففي عصرنا هذا هناك الكثيرون في البلدان الشيوعية وغير الشيوعية يفكّرون تفكـيراً مادياً، ناسين الله وناسين أنفسهم، ومتغاضين عن الإنسانية وسجاياها، ولا ينـظرون إلى الحياة إلّا من المنـظور المادي، ويضعون أنفسهم، بكل ما لديهم من إمكانيات علمية وفنية، في خدمة ميولهم وغرائزهم الحيوانية.

إلّا أنه ـ يمكن العثور بين هذه الفئات المادية ـ على علماء ذوي قلوب بصيرة، عارفين بخطأ الماديِّين، ويؤلمهم ضلالهم، ويأسفون على نسيانهم وغفلتهم، ويسعون إلى إنقاذهم بالتحدّث إليهم عن الله وعن الوعي الذاتي، ولكن ما أقل الآذان السميعة!

«الأستاذ (إيغو شافار وتوتيج) أستاذ الرياضيات في جامعة موسكو، رفض قبول دعوة جامعة باريس لمنحه درجة دكتواره فخرية، قائلاً أنَّه يخشى ـ إذا قبـل درجـة الـدكتوراه المذكورة ـ أن يمنع عند عودته من دخول الاتحاد السوفيتي. هذا الرياضي الذي أمضى ثلاثين سنة أستاذاً في الجامعة، طرد منها بسبب بعض المخالفات العلنية.

في معرض ردِّه على سؤال عن رأيه في النظام الذي يمكن أن يقوم مقام

---

(١٠) التفكير المذهبي: ٢١٨.

النظام الحكومي الحالي في الاتحاد السوفيتي، قال: إن ما نحتاجه هو التغير والتحوّل في الروح. إن علينا أن نعود إلى الله وإلى أنفسنا»[١١].

هكذا نجد أن الماديين هم أول فريق نسي الله بنسيان المعرفة الفطرية، فكان أن نسوا أنفسهم، وغفلوا عن سموّ الإنسان والقيم الإنسانية، وسجنوا أنفسهم في الأمور المادية والميول الحيوانية، واستسلموا لإطاعة أهواء النفس والعبودية للغرائز، فأصبحوا عرضة للأعمال اللاانسانية واللااخلاقية.

الإلهيّون الغافلون

الفريق الثاني الذي ينسى نفسه على أثر نسيانه الله هو فريق الإلهيّين الغافلين. فهؤلاء، على الرغم من استعمال عقولهم، قد دُفعوا بالمعرفة الفطرية، لمعرفة الله،وآمنوا بخالق الكون بإمعان النظر في الآيات الإلهيّة، ولكنهم، بسبب ما ابتلوا به من الأخلاق غير المحمودة، مثل حبّ الذّات، وحبّ الجاه، وحبّ المال والمقام، والإفراط في الشهوات والغرائز والعلائق المادية والشؤون الدنيوية، غفلوا عن وجود الله أو نسوا ذكره، فكانت النتيجة أن نسوا أنفسهم، وانحرفوا عن طريق الحقّ والفضيلة، وارتكبوا الأعمال غير الإنسانية.

ينتاب الإنسان في بعض الحالات ـ بتحريك من الغرائز والميول الباطنية، أو على أثر مواجهة وقائع وأحداث خارجية ـ نوع من وسوسة الإثم والأفكار الشيطانية، فيضع في ذهنه الخطط الإجرامية، ويصبح عرضة للسقوط الأخلاقي.

أما المؤمنون المتّقون الذين لم ينسوا الله، ولم ينسوا مسؤوليتهم أمامه، فإنهم يلجأون في أمثال هذه اللحظات الخطيرة والمضلّة إلى قوة الإيمان، وبذكرهم الله يعودون إلى أنفسهم، ويتغلّبون على الوسوسة، ويطردون من أذهانهم فكرة الجريمة، ويقون أنفسهم من الخبث والفساد.

---

(١١) صحيفة كيهان، العدد: ١٠٥١٠.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[١٢].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*ذِكْرُ اللهِ دَعامَةُ الدِّينِ وعِصْمَةٌ مِنَ الشَّيطانِ*»[١٣].

العمر والحياة لا قيمة لهما عند رجال الله إلاّ إذا تصرّمتا في طاعة الله وذكره، واقترنا بالحقّ والفضيلة، وإلاّ فإن عمراً تكثر فيه الأعمال السيئة، وتنفّذ فيه الأفكار الشيطانية، وينقضي بالإثم والفساد، من الخير أن لا يكون.

يقول الإمام زين العابدين(ع) في دعائه: «*وعَمِّرْني مَا كانَ عُمْري بِذْلَةً في طاعَتِكَ، فإذا كانَ عُمْري مَرْتَعاً للشَّيطانِ فَاقْبِضْني إلَيْكَ قبلَ أنْ يسبِقَ مَقْتُكَ إلَيَّ، أو يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ*»[١٤].

إن الذين يغفلون عن ذكر الله، وينسون أنفسهم، ولا يتذكّرون مسؤوليتهم المعنوية إزاء وساوس الإثم والمعصية، يفقدون النظرة الإنسانية، وينسون الإنصاف والعدالة، ويرتكبون الآثام لتحقيق أمانيِّهم غير المشروعة، ويلطِّخون رداء الإنسانية بأعمالهم المنافية للأخلاق.

المنصور الدوانيقي [ثاني خلفاء بني العباس] طرد خالداً البرمكي من منصبه في أعمال الديوان، ونصَّب أبا أيوب مكانه، وأرسل خالداً إلى ولاية فارس حيث ظلَّ والياً عليها سنتين. إلاّ أنَّ أبا أيوب ـ الذي كان عارفاً بفضل خالد وعلمه ـ كان دائم القلق من أن يعيده الخليفة إلى منصبه السابق، ويُحرم هو من مقامه الرفيع. فخامرته فكرة الدسّ لخالد كي يحطَّ من قدره عند الخليفة، ويحافظ هو على مركزه بأيّ شكل من أشكال الإساءة إلى سمعته.

نجح أبو أيوب في دسائسه الخفية وخططه اللاّ إنسانية، وأثار سوء ظنّ المنصور

---

(١٢) الأعْراف: ٢٠١.

(١٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٤٠٤.

(١٤) الصحيفة السّجاديّة، الدعاء: ٢٠.

في خالد، فعزله عن ولاية فارس، وطالبه بدفع ثلاثة آلاف ألف درهم (ثلاثة ملايين)، فأطلع خالد المنصور على أن كل ما يملكه لا يتجاوز السبعمئة ألف درهم. غير أن هذا رفض قبول ذلك، وأمر باستحصال مبلغ الثلاثة ملايين منه.

فتقدَّم لإعانته (صالح) صاحب المصلَّى بمبلغ خمسين ألف دينار، و(مبارك) التركي بمبلغ ألف ألف درهم. كما أن «الخيزران» أرسلت له عقداً من الجواهر تصل قيمته إلى ألف ألف ومئتي ألف درهم، وذلك رعاية لأخوّة (الفضل)، ابن خالد، بالرضاعة، مع ابنها (هارون). وإذ عرف منصور بالأمر ووثق من صحة قول خالد عن مقدار ما يملك، تخلَّى عن مطالبته بالمبلغ. وإذ صعب ذلك على أبي أيوب، استدعى صرّافاً مسيحياً وأعطاه بعض المال، وطلب إليه أن يعترف بأن ذلك المال يخصّ خالداً ثم أوصل إلى المنصور أن خالداً يحتفظ ببعض المال عند فلان. فاستدعى المنصور الصّراف وسأله عن المال، فاعترف الصرّاف بأن لخالد عنده بعض المال. فاستدعى المنصور خالداً وسأله عن ذلك المال، فأقسم خالد أنه لم يدَّخر مالاً، وأنه لم ير ذلك الصرّاف من قبل.

أمر المنصور خالداً بالبقاء في مجلسه، وطلب إحضار الصرّاف، وسأله عمّا إذا كان يعرف خالداً إذا رآه، فرد هذا بالإيجاب، قائلاً أنه يعرفه إذا رآه. عندئذٍ التفت المنصور إلى خالد وقال: لقد أظهر الله براءتك وقال للنصراني: هذا هو خالد، فكيف لم تعرفه؟

فقال الصرّاف: يا أمير المؤمنين، أعطني الأمان لأذكر لك الحقّيقة. فآمنه المنصور، فسرد له الحكاية كما حدثت. فتغيّرت نظرة المنصور نحو أبي أيوب، وساء الظنّ به، ولم يعد يثق بأقواله[١٥].

لم يكن أبو أيوب هذا من أتباع المذهب المادي، ولم يكن ينكر وجود الخالق. لقد كان إلهياً، ولكنه كان إلهياً غافلاً، فغشيت غريزة حب الاستعلاء والتفوّق روحه،

---

(١٥) ملخص من كتاب الوزراء والكتّاب: ١٣٧.

ودفعه حبّ المقام والرئاسة إلى نسيان الله، فكانت النتيجة أنّه نسي نفسه، وداس بقدمه على كرامته الإنسانية، فهو قد ركبته وسوسة الإثم والأفكار الشيطانية في سبيل تحقيق أُمنياته، فوضع خططاً إجرامية ونفّذها عملياً، وبذلك افترى، من جهة، على خالد البرمكي وشوّه سمعته، واستغفل، من جهة أُخرى، الصرّاف وحمله على القيام بعمل غير إنساني. بديهي إن الذي لا يكنُّ أيّ احترام لكرامته الإنسانية لا يمكن أن نتوقع منه أن يحترم كرامة الآخرين، وأن يثمّن القيم الإنسانية عند هذا وذاك.

كتب الإمام علي(ع) في عهده إلى مالك الأشتر: «*...فإنَّ الجاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِه يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ*»[١٦].

فالإلهيّون إذا غفلوا عن الله، ونسوا ذكره، ابتلوا، مثل أبي أيوب، بنسيان أنفسهم، أبعدتهم الغرائز والشهوات عن طريق الحقّ والفضيلة، وأصبحوا عرضة للإثم والسيِّئات الأخلاقية، وفي النهاية انحدروا إلى السقوط والهلاك، إلّا إذا رجعوا إلى أنفسهم، واستعادوا الذكرى، ولم ينسوا الله ومسؤولياتهم الإنسانية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*إتَّقِ أيُّها السّامِعُ، مِنْ سَكْرَتِكَ، واسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ*»[١٧].

إن الإيمان بخالق الكون، والاعتقاد بالمسؤولية في حضرة الله تعالى المقدَّسة، هما اللّذان يضمنان تنفيذ الأوامر الإلهيّة، وهما اللّذان يردعان الإنسان عن ارتكاب الإثم والسيِّئات الأخلاقية، على شرط أن لا ينسى هذا الإنسان المؤمن بالله، ولا يغفل عن ذكره أبداً. إن تذكّر الله من وسائل نجاة الإنسان وسعادته، وهو من أرفع صفات المؤمن، وقد وضعه نبي الإسلام(ص) في مصافّ أعظم السجايا الإنسانية:

عن النبيِّ(ص)، أنه قال: «*سَيِّدُ الأعمالِ ثلاثُ خصالٍ: إنصافُكَ مِنْ نَفْسِكَ، ومُواساةُ الأخِ في اللهِ، وذِكْرُ اللهِ تبارَكَ وتَعالى عَلى كُلِّ حالٍ*»[١٨].

---

(١٦) نهج البلاغة، الرسالة: ٥٣.

(١٧) فهرست الغرر: ٢٩٦.

(١٨) مشكاة الأنوار: ٥٥.

والإيمان، كالعلم، حالة روحية وشأن من الشؤون النفسية، وهو يفقد، بالإهمال والغفلة، بهاءه وسطوعه،حتى يدخل حالة من الخمود شيئاً فشيئاً، ومن ثم يلفه النسيان في النهاية. ولكن مثلما يقوم العالم بالتمرين والممارسة العلمية والعملية لكي يظل محافظاً على معلوماته، ويستمر في المطالعة والبحث لكي يصون معارفه من خطر النسيان، كذلك على المؤمن أن يتوسّل بكل وسيلة تمكّنه من التوجه إلى حضرة الله تعالى، وأن يبقي ذكر الله حيّاً في قلبه، وأن يراه حاضراً وناظراً دائماً، وأن لا ينسى مسؤوليته بأيّ حال من الأحوال، لأنّه في هذه الحالة وحدها يستطيع أن يحرّر نفسه من ربقة أهواء النفس، وأن يُمسك بزمام الغرائز والشهوات، وأن ينزّه نفسه من الآثام والسيّئات الأخلاقية.

يقـرر الإسـلام للمسلمـين عبادات واجبة وأُخرى مستحبة، ومنها الصّلاة، فالمسلمون مكلّفون بأن يؤدوا هذه العبادة الكبرى بضع مرات يومياً قياماً في حضرة الله تعالى، فيذكرون اسمه، ويلهجون بذكره، ويجدّدون معه عهد العبودية والطاعة. وإذا ما أُقيمت الصّـلاة كما ينبغي، بخلوص وتـوجُّه تامَّين، فإنّها تمنح المصلّي وقاية روحية، فلا ينسى نفسه، ولا يغفل عن الإنسانية، ولا تنال منه الأفكار الشيطانية، ولا يتّجه إلى الإثم والفساد.

﴿أتْـلُ مَا أُوحِي إِليكَ منَ ٱلكِتَابِ وأَقِمِ ٱلصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن ٱلفَحْشاءِ وٱلْمُنْكَرِ﴾(١٩).

الصّلاة في الأديان

ولا ننسى أن نقول إن الصَّلاة ليست من الواجبات الخاصة بالمسلمين، ولا هي مختصة بالإسلام، فهي من العبادات التي شرَّعها الله تعالى في أديان الأنبياء السابقين بصور متنوعة. ويستفاد من بعض الآيات والأحاديث أنَّ أسمى هدف لهذه الفريضة

(١٩) العنكبوت: ٤٥.

هو ذكر الله تعالى، والتوجّه إليه. وهذا ما أشار إليه الله تعالى فيما أوحى به إلى موسى بن عمران:

﴿إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾[٢٠].

«يقول (مونتسكيو): بما أن الإنسان كائن ذو مشاعر، فإنّه عُرضة لمئات الأهواء. وإن شخصاً هذا شأنه من الابتلاء بأهوائه يمكن في كل لحظة أن ينسى خالقه، كما إن شخصاً مثل هذا ينسى نفسه في كل لحظة، بل قد ينسى الآخرين أيضاً في كل آن. ولهذا يدعوه الله تعالى إليه عن طريق الأديان لكيلا يغفل عن ذكر الله، خالقه. ويعمد الفلاسفة ومعلمو الأخلاق إلى لفت نظره إلى نفسه بوساطة المبادىء الأخلاقية لكيلا ينسى نفسه، وليتجنّب المعاصي. كذلك يفعل المشرِّعون، فهم يضعون أنواع القوانين السياسية والمدنية لتعريف الفرد بواجباته نحو الآخرين لكيلا ينسى الناس، لأن الإنسان قد خُلق للعيش في مجتمع، فهو لا يستطيع أن يحيا منفرداً عن الآخرين»[٢١].

يشير مونتسكيو في قوله هذا إلى النسيان عند الإنسان في ثلاث مراحل: نسيانه الله، ونسيانه نفسه، ونسيانه الناس، وإن الإنسان لكيلا ينسى الله يجب عليه أن يلتزم التعليمات الدينية، وهو لكيلا ينسى نفسه عليه أن يجعل أقواله تتطابق مع الموازين الأخلاقية التي وضعها الفلاسفة، وهو لكيلا ينسى الناس عليه أن يطيع القوانين السياسية والمدنية التي يضعها المقنّنون.

ينظر مونتسكيو إلى الدين من المنظور الكنسي، ويتبيّن من أقواله أن المسيحية لا تُشبع جميع حاجات المجتمع، وأن تذكُّر الله لا يكفي وحده لعلاج نسيان الإنسان نفسه والناس، وبناء على ذلك يجب على أتباع هذا الدين ـ إضافة إلى تذكُّر الله والعمل بأوامر الدين ـ أن يلتزموا مبادىء الفلاسفة الأخلاقية، والقوانين التي يضعها

---

(٢٠) طه: ١٤.

(٢١) روح القوانين، منتسكيو: ٤.

المقنّنون، التزاماً عملياً، لكيلا ينسوا أنفسهم، ولا ينسوا الناس.

أما الإسلام، هذا الدين الإلهيّ الجامع الكامل، فهو يُشبع جميع الحاجات البشرية، لأن هذا الدين المقدَّس يعني عناية شاملة بالشؤون الأخلاقية والحقوق المدنية، ويبيّن واجبات الناس في مراحل الحياة كافة. فلا حاجة لأتباع القرآن الكريم ـ من أجل النجاة من نسيان النفس ونسيان الناس ـ إلى تعليمات الفلاسفة الأخلاقية، ولا إلى قوانين المقنِّين المدنية. إن المسلمين الصادقين، بقيامهم بأداء الفرائض الدينية واتّباع السنن الإسلامية، يُبقون ذكر الله حيّاً في قلوبهم أبداً، وفي ظل إحياء ذكر الله يقومون، من جهة، بواجباتهم الأخلاقية والإنسانية، ولا يصابون بالنسيان، ويرعون، من جهة أُخرى ـ بدافع من الإيمان ـ حقوق الآخرين طبقاً للشريعة الإلهيّة، فلا ينسون الناس.

لماذا نعبد الله؟

يسأل الشبان أحياناً: ما دام الله تعالى غير محتاج إلى عبادتنا، فلماذا يجب أن نصلّي؟ لماذا نصوم؟ لماذا يجب أن نعبد الله؟ وما هي نتيجة أعمالنا الواجبة والمستحبة؟

في الإجابة عن أسئلة هؤلاء لا بدَّ أن نقول: نعم، إن الله تعالى غنيّ عن عبادتنا، بل إنّنا نحن الذين نحتاج إلى عبادتنا له. إنّنا نحن الذين يجب أن نعبد الله، وأن نطأطىء رأس العبودية في حضرته، إذا شئنا أن نحكم هوى النفس، وأن نتحرَّر من العبودية للغرائز والشهوات، وأن لا نتلوّث بالآثام والأعمال اللّا إنسانية التي هي مدعاة للتعاسة في الدنيا والآخرة، فالعبادة هي التي تُذكّرنا بالله، وتَذَكُّر الله يوقظ فينا الشعور بالمسؤولية، وبالشعور بالمسؤولية ندرك أعمالنا الحسنة والسيّئة، ونعمل على جعل أقوالنا وأفعالنا تحظى برضى الله، ونتجنّب الأعمال السيّئة والأخلاق غير الحميدة، وبذلك نهيّىء لأنفسنا أسباب سعادتنا المادية والمعنوية.

من المناسب أن نشير إلى أن عبادة الله وتذكّره، في الإسلام، لا يحافظان على

مصلحة المجتمع ولا يحملان الناس على الشعور بالمسؤولية، والتمسّك بحسن الأخلاق، ورعاية حقوق الناس المدنية، فحسب، بل لهما أعمق الأثر في صيانة الفرد وتقوية إرادته أيضاً. إن المسلم الحقّ، والمؤمن إيماناً صادقاً بخالق العالَم، إذا واجهته مشكلة من مشاكل الحياة، ووجود نفسه أمام إحدى المآسي الأليمة، لجأ إلى الله لكيلا تتحطّم قوة احتماله، ولا تهدّه المصائب والآلام الثقيلة فينهار تحت وطأتها، وتوسّل بالعبادة والدعاء لتوثيق العلاقة بينه وبين الله تعالى، ويطلب العون منه، ويتغلّب على المشكلات بعون من قدرة الله الأزلية. ولا يقوى على هذا العمل العظيم إلاّ المسلمون الصادقون.

﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلاةِ، وإنَّها لكبيرَةٌ إلاَّ عَلى ٱلخَاشِعِينَ﴾[٢٢].

عن الإمام الصادق(ع)، أنه قال: «*كانَ علي عليهِ السَّلامُ إذا هالَهُ شيء فزع قامَ إلى الصَّلاةِ. ثم تلا هذه الآية:﴿وَٱستعينُوا بِٱلصَّبرِ وَٱلصَّلاةِ...﴾*»[٢٣].

عن مسمع، قال: قال أبو عبدالله الصادق(ع):«*يا مسمعُ، ما يمنَعُ أحدكُم، إذا دخَلَ عليهِ غمٌّ من غُمومِ الدُّنيا، أنْ يَتوضَّأ ثُمّ يَدخلَ مسجدهُ، فيَركَع ركعتَيْن، فيدعوَ الله فيها. أما سمِعْتَ الله يقولُ:﴿ٱستعينُوا بِٱلصَّبرِ وَٱلصَّلاةِ..﴾، قال: الصَّبْرُ هوَ الصَّوْمُ*»[٢٤].

«يقول الدكتور (كارل): ليس المقصود من التعبُّد هو العبادة فحسب، بلْ إن الدعاء والتعبُّد تتجلّى فيهما روح عبودية الإنسان، وهما أقوى أشكال القوة التي يستطيع الإنسان خلقها. لو أن الإنسان أدّى العبادة بإدراك وإخلاص، لظهر في داخله تغيُّر عميق ملحوظ. وكما أن قوة جاذبية الأرض غير قابلة للإنكار، كذلك لا يمكن إنكار قوة الجاذبية الناجمة عن العبادة.

---

(٢٢) البَقَرَة: ٤٥.

(٢٣) تفسير البرهان، تفسير الآية.

(٢٤) تفسير البرهان، تفسير الآية.

إنني بصفتي طبيباً لا بدَّ لي من القول إنني خلال عملي واجهت مرضى لم تنفع فيهم طرق العلاج على اختلافها، ولكنَّهم بالتوسّل بالقواعد الدينية والدعاء نالوا نتائج إيجابية، وتخلّصوا مما أوجده فيهم المرض من حزن وغم.

يسعى الإنسان دائمًا إلى التوسّل بالقدرة الإلهيّة الأزلية التي تدبِّر العالم ليزيد من قدرته الضئيلة المحدودة. إننا حينما نتعبّد نتوسّل، في الحقيقة، بالقدرة العظيمة التي يأتمر بأمرها كل عالَم الوجود بسداه ولحمته، ونستمد منها العون. فلو أمكن فهم قوة العبادة كما هي في الحقيقة، وأدخلت في الحياة اليومية للرجال والنساء، لأمكن أن نتطلّع، بعونها، إلى عالم أفضل وحياة أغنى»[٢٥].

مَثَل ذكر الله في ضمان سلامة الروح واتّقاء الفساد الأخلاقي، كمثل المناهج الصحية التي ترمي إلى حفظ سلامة الجسم والوقاية من المرض. إن من يريد أن يكون متمتّعاً دائمًا بنعمة الصحة، ولا يتحمّل عذاب المرض، عليه أن يلتزم الوصايا الصحية في كل زمان ومكان، وأن يطبّق تعليماتها. كذلك الذي يريد أن يتمتّع دائمًا بسلامة الروح وطهارة الضمير، وأن لا يُصاب بالأمراض الأخلاقية، عليه، في جميع الحالات، أن يكون ذاكراً لله، وأن لا يغفل عنه أبداً، وأن لا ينسى مسؤوليته أمام مقامه المقدَّس. يصف القرآن الكريم العقلاء المؤمنين المسؤولين بما يلي:

﴿إنَّ في خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وٱلأرضِ وٱختلافِ ٱلَّيلِ وٱلنَّهار لأياتٍ لأولي الألبَـابِ * ٱلَّذينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قياماً وقُعُوداً وعَلى جُنُوبِهم ويتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وٱلأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحَانَكَ فقِنَا عذَاب ٱلنَّارِ﴾[٢٦].

لا حدود لذكر الله

على الرغم من أن كل فريضة عبادية فرضها الإسلام هي رابط بين المخلوق

---

(٢٥) جولة في دنيا العلم: ٧٣.

(٢٦) آل عمْرَان: ١٩٠ و ١٩١.

والخالق، وأنّها إذا ما أُدِّيَتْ بكل خضوع وتوجُّه، فإنّها تجدّد ذكر الله في قلب العابد. فإنّنا نعرف أن للفرائض التشريعية حدوداً معينة من حيث المكان والزمان، ومن حيث الكيفية والكمية، وأن المسلم الملتزم الذي يريد أن يكون متوجهاً إلى الله تعالى في كل الأحوال، ينبغي أن لا يحصر ذكر الله تعالى في إطار العبادات فقط ويكتفي بأنه يذكر الله تعالى أثناء أداء الفرائض فحسب. وهذا ما أُشير إليه في القرآن الكريم وفي أحاديث أولياء الإسلام العظام.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَا مِنْ شيءٍ إلّا ولهُ حدٌّ ينتهي إليهِ، إلّا الذِّكْرُ، فليسَ لهُ حدٌّ ينتَهي إليهِ. فَرَضَ اللهُ عزَّ وجلّ الفرائضَ، فمنْ أدّاهُنَّ فهوَ حدُّهُنَّ، وشهْرَ رمضانَ، فمنْ صامَهُ فهوَ حدُّهُ، والحجّ، فمنْ حجّ فهوَ حدُّهُ، إلّا الذِّكْرَ، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يرْضَ منهُ بالقليل، ولم يجعلْ لهُ حدّاً ينتهي إليهِ. ثمّ تلا هذهِ الآيَة: ﴿يا أيُّها الّذينَ ءَامنوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكراً كثيراً وسبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصيلاً﴾*»[٢٧].

نخلص مما سبق أن نسيان النفس، وعدم الاهتمام بالمسؤوليات الإنسانية، يؤديان إلى فساد الأخلاق ومن ثم إلى السقوط والهلاك، فمن ينسى نفسه ويغفل عن كرامته، وينسى مقامه ومنزلته المعنوية، يكون ذا فكر منحرف ومسيرة معوجّة، فيصبح عبداً لهواه ومطيعاً لغرائزه، ويميل إلى التطبّع بالطبائع الحيوانية، وينقلب حقيراً وضيعاً، ولا يردعه رادع عن ارتكاب الأعمال اللّا إنسانية واللّا أخلاقية في سبيل إشباع شهواته وتمنّياته النفسية.

إن دواء نسيان النفس ومكافحة الإثم والجريمة هو العودة إلى الله تعالى، والشعور بالمسؤولية أمامه. فلكي تبقى الإنسانية حيّة ويقظة في قلوب المسلمين، ويقوا أنفسهم من خطر نسيان النفس، أوجب الإسلام على المسلمين أن يذكروا الله دائماً، وأن لا يغفلوا عن التوجّه إليه، وأن يروه حاضراً وناظراً في جميع الأحوال.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*منْ أشدِّ ما فرَضَ اللهُ على خلقِهِ ذِكْرُ اللهِ كثيراً*. ثمَّ قالَ: *أمَا لا أعْني سُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولا إلهَ إلّا اللهُ واللهُ أكبَر، وإن كانَ*

(٢٧) الأحزاب: ٤١ و ٤٢، أُصول الكافي، الكليني ٢: ٤٩٨.

منهُ، ولكنْ ذكْرُ اللهِ عندَ ما أحلَّ وحرَّمَ فإنْ كانَ طاعةً عملَ بِها، وإنْ كانَ معصيةً تركَهَا» (٢٨).

لقد تربّى في مدرسة الإسلام كثير من الشخصيات اليقظة ومن ذوي الألباب، ممن كانوا في ظل ذكر الله واعين، فحافظوا على إنسانيتهم من أن يلفّها النسيان، ولم يلوّثوا أذيالهم بما يتنافى وشرف الإنسان. وهناك منهم من لم يضيّع نفسه في الظروف الحسّاسةوالخطيرة، فما غفل عن واجبه الإنساني، ولا خضع لعبودية الغرائز والشهوات، وأشاح بوجهه عن غير المشروع من مقام ومنصب، وعاف المال والجاه الملوّثين بالإثم والمعصية.

وصل (هارون الرشيد) إلى مكة فقضى حجّه، وشهد مناسكه ومشاعره، ثم انصرف قافلاً إلى بغداد وذلك في آخر شهر ذي الحجّة من سنة ثمانين ومئة. فلما همّ بالانصراف، وذكر القفول إلى العراق. رفع إليه أهل مكة كتاباً يسألونه فيه أن يولّي عليهم قاضياً عدْلاً، فأدخلهم على نفسه، فقال: إن شئتم فاختاروا منكم رجلاً صالحاً أُولّيه قضاءكم وإن أحببتم بعثتُ إليكم من العراق رجلاً لا آلوكم فيه إلّا خيراً. فخرجوا فاختاروا رجلاً، فاختلفوا فيه، فاختارت طائفة منهم رجلاً، واختارت أُخرى رجلاً آخر. فلما اختلفوا ارتفعوا إلى الرشيد يذكرون اختلافهم. فقال لهم هارون: أدخلوا عليّ هذين الرجلين اللّذين اختلفتم فيهما، فإذا برجلين، أحدهما شيخ من قريش، والآخر غلام حدث من الموالي. فلما نظر إليهما الرشيد قال للشيخ: أُدن مني، فدنا منه. فقال له الرشيد: أيُّها القاضي، إن بيني وبين وزيري هذا خصومة وتنازعاً، فاقضِ بيننا بالحقّ.

فقال الشيخ: قصّا عليّ قصتكما، فقصّا عليه، فقال الشيخ: تقيم البيّنة يا أمير المؤمنين على ما ذكرته، أو يحلف وزيرك هذا. فقال له هارون: إن أخي لا يدافعني ما أقول، ولا ينكر إلّا قليلاً مما أدّعي، فلم يزالا يردّدان القول بينهما ويتنازعان، حتّى قضى

---

(٢٨) مشكاة الأنوار: ٥٤

القاضي لأمير المؤمنين على الوزير، فقال له: قم، فقام عنه.

ثم دعا بالغلام الحدث، الذي دعته الطائفة الأخرى فدخل عليه: فقال له: ادن مني، فدنا منه، فقال له هارون: إن بيني وبين وزيري تنازعاً وخصومة فاسمع منّا قولنا، ثمَّ اقضِ بيننا بالحقّ، فقال لهما: إن مقعدكما مختلف ومجلسكما متنائي وأخشى إذا اختلف مجلسكما أن يختلف قولكما فإذا تفاضل مجلس الخصوم اختلف بينهما القول وكان صاحب المجلس الأرفع ألحن بحجّته وأدحض لحجّة صاحبه وكان إصغاء الحاكم إلى صاحب المجلس الأرفع أكثر وإليه أميل، ولكن تقومان من مجلسكما هذا الذي قد استعليتما فيه فتجلسا بين يديّ ثم أسمع منكما قولكما، واقضي لمن رأيت الحقّ له ثم لا أُبالي على من دار منكما. فقال الرشيد: صدقت وبررت في قولك. فقام الرشيد وقام عمرو بن مسعدة، حتى صارا بين يديه جالسَين. فلما جلسا بين يديه ذهب الرشيد ليتكلم، فقال له القاضي: لو تركت هذا يتكلم فإنه أسنّ منك فقال الرشيد: إن الحقّ أسنّ منه، فقال القاضي: بلى ولكن رسول الله(ص) قال لحويصة ومحيصة: كبر كبر. يريد ليتكلم عمّكما، لأنه أسنّ منكما وأكبر، فتكلّم عمرو بن مسعدة ثم تكلم الرشيد وتنازعا الخصومة وترافعا الحجّة بينهما، حتى رأى القاضي أن الحقّ لعمرو فقضى له به على الرشيد: فلما قضى عليه قال لهما: عودا إلى مجلسكما فعادا، فعجب الرشيد من قضائه وعدله واحتفاظه وقلة ميله فالتفت إلى عمرو فقال: إن هذا أحقّ بقضاء القضاة من الذي استقضيناه. فقال عمرو: بلى والله ولكن القوم أحق بقاضيهم إلّاأن يأذنوا فيه. فدعا الرشيد برجال مكة فأدخلهم على نفسه، وأجزل لهم العطاء، وأحسن على قاضيهم الثناء ثم قال لهم: هل لكم أن تأذنوا أولّيه قضاء القضاة، فيسير إلى العراق يقضي بينهم؟ فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين أنت أحقّ به، نؤثرك على أنفسنا. فأرسل إليه الرشيد فقال: إني قد ولّيتك قضاء القضاة فسر إلى العراق لتقضي بينهم، وتولّى القضاة في البلدان والأمصار من تحت يدك وتولّيتهم إليك، وعزلهم عليك فقال القاضي: إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعاً وطاعة، وإن يخيّرني في نفسي أخترت العافية،

وجوار هذا البيت الحرام، فخذ على نفسك فإني مصبح على ظهر إن شاء الله. فخرج الرشيد ومعه الفتى حتى قدم العراق، فولاّه القضاء، وجعل إليه قضاء القضاة، فلم يزل بها قاضياً حتى توفي، وذلك بعد ثلاثة أعوام من تولّيته فلما توفّى اغتم الرشيد وشقَّ عليه فجعل الناس يعزُّونه فيه علمًا منهم بما بلغ منه الغم عليه. فسأل عن قاضي يوليه قاضي القضـاة والعراق بعد ذلك، فرفعت إليه تسمية عشرة رجال من خيار الناس وعلمائهم وأشرافهم.

فلما دُفعت إليه التسمية، أمر بهم فأُدخلوا عليه رجلًا رجلًا يتفرَّس فيهم من يولّيه القضاء فنظر إلى رجل منهم توسَّم فيه الخير والعلم فأمر به، فقُدِّم إليه فلما صار بين يديه، قال له: ما أسمك؟ قال: معشوق. قال: فما كنيتك؟ قال: (أبو الهوى). قال: فما نقش خاتمك؟ قال: دام الحب دام، وعلى الله التمام. فقال له: قم لا قمت.

ثمَّ دعا بالآخر وكان قد تفرَّس فيه ما تفرَّس في صاحبه فقال له: ما نقش خاتمك؟ فقال:﴿ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾. فقال له أخرج.

فدعا الرشيد بيحيى بن خالد بن برمك، وكان ممن رفع إليه أسماءهم، فعنّفه بهم، وقال: رفعتَ إلى أسماء المجانين. قال له: والله ما في العراقيِّين أعقل من الرجلين اللَّذين سألت، ولا أفضل منهما فقال: ويحك إني اختبرت منهما جنوناً. قال يحيى: إنهما والله كانا كارهين لما دعوتهما إليه وإنما أرادا التخلّص منك قال: ويحك! أعدهما عليَّ فطُلبا فلم يُوجدا[٢٩].

---

(٢٩) الإمامة والسياسة ٢: ١٩٣.

الفصل الرابع عشر

«لَا تَعْمَلْ شَيْئاً مِنَ الخَيْرِ
رِئاءً، وَلَا تَدَعْهُ حَياءً»

رسول الله(ص)

الرِّياء

يطلب الإنسان الجاه والمحبوبية بدافع من حبّ الذّات والأنانية، فهو يريد أن ينفذ إلى قلوب الآخرين ليحكمها، يريد أن يكون له بين الناس مقام مرموق، أن يحبّوه، ويجلُّوه، ويكرموه.

في قضية المحبوبية هذه نقطتان جديرتان بالإهتمام:

الأولى: هي أن عقائد الناس وآراءهم متباينة، كما هي متباينة طلباتهم وميولهم. ولذلك فإنّ العوامل التي تُوصل إلى الجاه والمحبوبية بين الملل والأقوام، وحتى بين الفئات والجماعات، متباينة أيضاً. فكثيراً ما نجد أن شخصاً ينال منزلة ومقاماً في مجتمع ما لاتّصافه بصفه بعينها، فيكون موضع احترام الناس وتقديرهم، ويتمتّع بالجاه والمحبوبية في ذلك المجتمع. إلّا أنّ تلك الصفة نفسها لا تكون مدعاة للمحبوبية في مجتمع آخر، ولا تجلب عواطف الناس، ولا ينال المتّصف بها شيئاً من الجاه والمقام.

الثانية: هي أنّ اهتمام الناس متوجّه اليوم إلى الأمور المادية والشؤون الدنيوية، وإهمال الجوانب المعنوية والإنسانية، أو التقليل من شأنها. لذلك فإن الكثير

من مظاهر المحبّة في المجتمعات المعاصرة مشوبٌ بالأهواء والميول النفسية، فتقاس مقامات الناس ومراكزهم بالمنافع المادية، وتوزن الصداقات بالمعايير الدنيوية، وقلّما تُؤخذ القيم الإنسانية بنظر الاعتبار.

الإيمان والتقوى، في المجتمع الإسلامي وبين أتباع القرآن الكريم الصادقين: أكبر معيار من معايير المكانة والمقام، وأظهر عامل من عوامل العزّة والمحبوبية. فالذين يؤمنون في بواطنهم إيماناً صادقاً، ويطيعون ـ عملياً ـ أوامر الله تعالى، ويتناهون عمّا نهى عنه، تكون لهم منزلة في أعماق القلوب، ويتمتّعون بعواطف إنسانية طاهرة. يقول القرآن الكريم في هؤلاء:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً﴾[1].

وليست الأهواء النفسية والميول المادية هي منشأ هذا الودّ وهذه المحبة، وإنّما مصدرهما هو جاذبية المعرفة الفطرية ونداء الضمير الأخلاقي اللّذان جُبلا بمشيئة الله في طبيعة الإنسان واستقرتا في باطنه. الإنسان بطبعه تسره الطهارة ويفرح بالطيبة، ويثمّن الصدق في العمل، وينظر بعين الإحترام والتكريم إلى الصالحين. بل إن غير الصالحين والملوّثة أذيالهم بالمعاصي يحترمون الأخيار الطاهرين، ويأسفون على افتقارهم إلى الصدق والشعور بالمسؤولية.

إن ما يدفع المؤمنين الصادقين إلى الأعمال الصالحة والتزام الحقّ والفضيلة هو المسؤولية المعنوية وإطاعة أوامر الله. إنهم يعرفون أن الإيمان والعمل الصالح يجعلان المرء محبوباً في المجتمع، ولا شكّ في أنّ المرء ليسرُّه أن يجد نفسه محبوباً لدى الناس ويكنّون له الودّ، بَيْدَ أنّ هؤلاء الصالحين يؤدُّون واجباتهم الدينية بنيّة خالصة من أجل مرضاة الله، لا من أجل أن يتباهوا أمام الآخرين باعمالهم الصالحات، لينالوا بذلك مقاماً أو يكسبوا وُدَّ المجتمع. ولمّا لم يكن دافعهم في أداء الفرائض وتجنّب المحرّمات سوى طاعة الله، فإن معرفة الناس بذلك لا يقلّل من خلوص نيّتهم، والمسرّة التي يشعرون بها جرّاء ذلك لا تمنع

---

(١) مريم: ٩٦.

مسيرتهم نحو السموّ والتكامل.

عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر(ع)، قالَ: سألتُهُ عنْ الرجُل يعمَلُ الشيءَ منَ الخير فيراهُ إنسانٌ فيسرُّهُ ذلكَ. قالَ: «*لَا بَأْسَ. مَا منْ أَحَدٍ إلّا وهوَ يُحِبُّ أنْ يَظْهَرَ لَهُ في النَّاسِ الخَيْرُ إذَا لم يكُنْ صنَعَ ذلِكَ لذلِكَ*»[٢].

لا بدَّ من القول بأنَّ التغلُّب على الهوى وقهر حبّ الجاه من الصعوبة بمكان. إن الذين اكتمل إيمانهم قادرون على قهر النفس المعاندة بعون الله، وعلى إزالة حبِّ التظاهر من خواطرهم بالعزم والإرادة، وعلى القيام بالأعمال الصالحة، في السرِّ والعلن، بكل خلوص نيّة، وبدافع من الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهيّة.

أما الذين لم يكتمل إيمانهم، فإنّهم عند القيام بعمل صالح، غالباً ما يصابون بالانحراف في تفكيرهم، وبالغش في دخيلتهم، فتظهر فيهم فكرة الرياء، ويفقدون صفـاء الباطن وخلوص النيّة، ولا يقدرون على أداء الواجبات الدينية بنيّة منزَّهة وضمير طاهر.

وقد حدَّثني أوثق مشايخي أن رجلاً كان لا يقدر على الإخلاص في العمل وترك الرياء فاحتال وقال: إن في طرف البلد مسجداً مهجوراً لا يدخله أحد فأمضي إليه ليلاً وأعبد الله فيه، فمضى إليه في ليلة مظلمة، وكانت ذات رعد وبرق ومطر. فشرع في العبادة فبينما هو في الصلاة إذ دخل عليه داخل فأحسَّ به فدخله السرور برؤية ذلك الداخل له وهو على حالة العبادة في الليلة الظلماء فأخذ في الجد والاجتهاد في عبادته إلى أن جاء النهار فنظر إلى ذلك فإذا هو كلب أسود قد دخل المسجد مما أصابه من المطر فتندّم ذلك الرجل على ما د خله حال دخوله وقال: يا نفس إنّي فررت من أن أُشرك بعبادة ربي أحداً من الناس فوقعت في أن أشركت معه في العبادة كلباً أسوداً يا أسفاه ويا ويلاه على ذلك[٣]

---

(٢) الكافي، الكليني ٢: ٢٩٧

(٣) لئالىء الأخبار: ٣٢٨.

الرياء، نفاق، ومنشأ النفاق النفسي هو إحساس المنافق بالحقارة في باطنه، وبالذل في دخيلته، المنافقون يتصنّعون في أقوالهم وأفعالهم، ويظهرون للناس على غير حقيقتهم، وذلك لكي يعوّضوا ـ عن هذا الطريق ـ ما يشعرون به من نقص، ويخففوا ما يحسُّون به من آلام نفسية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*نِفَاقُ الْمَرْءِ مِنْ ذُلٍّ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ*»[٤].

الإحساس بالحقارة

إن الذين تنقصهم القيم الأخلاقية، وينظر إليهم الناس نظرة امتهان وتحقير، يحاولون نيل بعض الكرامة الشخصية والحصول على بعض المقام في المجتمع الإسلامي، فيتوسّلون بالمخادعة والرياء، ويتظاهرون بالزهد والتقوى، ويلبسون لبوس الإيمان والصلاح كذباً. إنهم يريدون بالرياء والنفاق استغفال الناس، وحشر أنفسهم في زمرة الصالحين الطاهرين، والفوز بحسن تقدير الآخرين، لكي يكونوا، مثل المؤمنين الصادقين، محبوبين عند الناس، فيخفّ بذلك إحساسهم بالذلّ والضعة.

يحب المنافقون المراؤون المدح والثناء، وما هدفهم من الأعمال الصالحة التي يقومون بها، وأدائهم الفرائض الدينية، إلّا لجلب استحسان الآخرين، وللتأثير فيهم، من دون أن يكونوا في الواقع معنيِّين بأداء واجباتهم الإنسانية وإطاعة الأوامر الإلهيّة. إنهم لا يفعلون خيراً إلّا بشرط أن يكون له صدى في المجتمع، فيراه الناس، أو يسمعوا به، في الأقل، وإلّا فإنّهم لا يقيمون وزناً للطهارة والصلاح، ولا يعنيهم من الأعمال الحسنة والسيّئة شيء.

قال أمير المؤمنين علي(ع): «*ثَلاثُ عَلاماتٍ لِلْمُرائي: يَنْشَطُ إِذَا رَأَى النَّاسَ، ويَكْسَلُ إِذَا كانَ وَحْدَهُ، ويُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ*»[٥].

---

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٧٧٧.

(٥) الكافي، الكليني ٢: ٢٩٥.

أما المؤمنون الصادقون الذين يذكرون الله في جميع الأحوال، سرّهم وعلانيتهم سواء، فهم صالحون دائمو الشعور بالمسؤولية، ويعملون على وفق معتقداتهم الداخلية وعلائقهم الروحية، وأقوالهم وأفعالهم، مثل آرائهم وأفكارهم، منزّهة من الخبث وبريئة من الفساد. هذه الفئة الطاهرة تتمتّع بقلوب مطمئنة وبإرادة قوية، بسبب اتكالها على الله، فتقول قولتها بصراحة، تعمل ما تعمل بحزم، لا تخاف المشكلات، ولا تقلقها الأحداث والوقائع. تلك هي الفئة المطيعة لله بحقّ، والعبادة له بخلوص نيّة، لا تنسى نفسها، ولا تغفل عن قيمها الإنسانية، وتأبى الدناءة والضعة امام المخلوق.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ أَخْلَصَ النيّة تَنَزَّهَ عَنْ الدَّنِيَّة*»[٦].

كان أبو منصور وزير السّلطان طغرل، رجلاً عالماً وخائفاً من الله، وكان بعد كل فريضة يجلس على السجادة، ويشتغل بالتسبيح والدعاء حتى طلوع الشّمس، ثم كان يذهب بعدها إلى السّلطان طغرل.

في أحد الأيام صادفت حادثة مهمة للسّلطان قبل طلوع الشّمس فطلب الوزير، فذهبت الخدم إلى منزله فشاهدوه جالساً على السجادة ومشغولاً بالذكر، فأبلغوه أمر السلطان العاجل بالحضور بين يديه، فلم ينتبه لهم، فكرّروا له الأمر مرّتين وثلاث فلم ينتبه فعزموا على الرجوع، وقالوا للسلطان: بأنّه رجل مغرور ومتمرّد لم يستجب لأمر السلطان وقوله. وبهذا الكلام اشتعلت نيران غضب السلطان.

بعد طلوع الشمس وإتمام الوزير قراءة الأدعية ذهب إلى السلطان.

صرخ السلطان في وجهه وقال: لماذا أتيت متأخراً؟

فأجاب الوزير: أيّها السلطان أنا عبد لله وخادم للسلطان طغرل، يجب عليّ أوّلاً أداء وظيفة العبودية لله ثم خدمتك. خرج هذا الكلام من أعماق قلب الوزير وبنيّة خالصة. وقد أثّر بشكل عميق بقلب السلطان وضميره ودمعت عيناه.

وقد قام السلطان بمدح الوزير وقال: عبادة الله مقدّمة وذلك ببركة هذا العمل

---

(٦) فهرست الغرر: ٩٣.

تنتظم أعمالنا وتُحرس المملكة بضيائه[٧].

المرائي قلق الضمير

الـرياء ومخـادعة الناس من الأمور غير الطبيعية التي تخالف الفطرة، وإنّ التحـرّك غير الطبيعي لا دوام له ولا يمكن أن يستمر. لذلك فإن المنافقين الذين يستغفلون الناس بالغش والخداع يتّصفون، خلافاً للمؤمنين، بقلوب قلقة وبضمائر مضطربة. هذه الفئة المخادعة التي تعرف حقيقة ذاتها جيِّداًوتدري أن أقوالها وأفعالها تختلف عن آرائها وأفكارها، تكون في اضطراب وقلق دائمين، وترى نفسها عرضة للخطر، وتخشى أن ينكشف سرُّها في يوم من الأيّام، وتُهتك أستارها، ويطّلع المجتمع على ريائها ونفاقها، فيفتضح أمرها ويسربلها العار. فهل يُقدم الإنسان العاقل على مثل هذا السلوك القبيح والخطر؟

عن أبي عبـدالله الصادق(ع)، قال: «*يَا أَبَا حَفْصٍ، مَا يَصْنَعُ الإِنسانُ أَنْ يتَقَرَّبَ إلى النَّاس بخِلافِ ما يَعْلَمُ اللهُ؟ إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليهِ وآلهِ يقولُ: مَنْ أَسَرَّ سَريرَةً ردَّاهُ اللهُ رِداءَها، إنْ خَيْراً فَخَيراً، وإنْ شَرّاً فشَرّاً*»[٨].

يبذل المرائي كل جهده كي يراه الناس بالملامح التي اصطنعها لنفسه تصنعُّاً، ولا يطّلعوا على حقيقته. وعندما ينكشف سر المرائي لأول مرَّة، ويطّلع بعض الناس على مكره وخداعه. يصاب باضطراب شديد، ويستولي عليه الغضب، ولكي يَجبُرَ ما تحطَّم من كرامته، يعمد إلى إهانتهم وتحقيرهم وهتك أسرارهم، انتقاماً منهم.

كان (الأصمعي) من شعراء العصر العباسي المشهورين، وكان أيضاً مقتدراً وذو استعداد في قصصه المضحكة والمزاح. وكان يلقي القصائد في مجالس رجال الدولة، وأحياناً، يحكي القصص الفكاهية فيُضحك الحاضرين.

---

(٧) جوامع الحكايات: ١٧٣.

(٨) مشكاة الأنوار: ٣١١.

في أحد الأيام قال جعفر البرمكي رئيس وزراء هارون الرشيد لأحد خدّامه: إجلب لي ألف دينار أريد أن اذهب إلى منزل الأصمعي فإذا قال لي قصة واضحكني سأضع كيسة الذهب في حاشية قميصه.

دخل جعفر البرمكي ومعه أنس بن شيخ بيت الأصمعي. حيث حكى الأصمعي قصص مختلفة وكانت كل قصة تحكي جانباً من الحياة.

وبعد الخروج من البيت قال أنس لجعفر: لقد سعى الأصمعي بإضحاكك ولكن لم تضحك، لم يكن هدفك ذلك فيجب إرجاع المبلغ إلى الخزانة.

قال جعفر: أُف لك، أنا اعطيته خمسمائة درهم قبل وصلونا إلى بيته لتهيئة الطعام، والآن شاهدت قد وضع بجانبه جرة ماء مكسورة وبرقع وسجادة وسخة مفروشة. حيث لاحظت وجود النعمة والإحسان والمدح على لسانه ولكن لم ألاحظ ظهور الإحسان شكره للنعمة، فلماذا نعطيه المال[٩] .

على الرغم من أن الأصمعي كان موسراً، إلّا أنّه أظهر نفسه وكأنّه من أفقر الفقراء. فهل كان هدفه من ذلك هو أن يظهر بمظهر الزاهد الراغب عن الدنيا ليجلب انتباه الآخرين إلى صلاحه وتقواه، أم أنّه كان يريد أن يبدو في نظر القادمين فقيراً مسكيناً لكي ينال شيئاً من إعاناتهم السخية، أم كان هناك ثمّة هدف آخر حمله على أن يفعل ما فعل؟ على كل حال كان انطباع جعفر البرمكي عن الوضع الداخلي للأصمعي ومعيشته انطباع من يرى شخصاً منافقاً ذا وجهين، فأساء به الظنّ، وبمشاهدة ذلك المشهد المصطنع انقبضت نفسه وتألم أشد الألم بحيث إنّ قصصه الفكهة لم تستطع أن تنتزع منه ابتسامة، وغادر المنزل أخيراً في مرارة وتأثر.

كذلك اضطرب حال الأصمعي بعد أن لاحظ انكشاف سرّه ونفاقه أمام جعفر. ولّما وجد أنّه لا يستطيع أن يستعيد كرامته المفقودة ومكانته المعهودة، راح يذمّه ويهجوه في شعره.

---

(٩) الوزراء والكتّاب: ٢٦٤.

في عالم الطبيعة، الإنسان هوْ الكائن الوحيد القادر على إظهار نفسه خلافاً لحقيقته، فيرائي وينافق، ويتّخذ صورة غير حقيقية. أما سائر المخلوقات فليست تقدر على ذلك. فللنباتات في نظام الخلق مسيرة معلومة، لا بدَّ لها أن تقطعها في حركتها نحو التكامل، دون أن تقدر على التملّص والمراوغة.

والحيوانـات كذلـك محكومة بقانون الخلق، محصورة ضمن إطار الغرائز، لا مناص لها من أن تعمل وفق ما تمليه عليها تلك الغرائز، من دون أن تتخطّاها قيد أنملة. الإنسان هو وحده الذي خُلق حرّاً بقضاء إلهي حكيم، فهو وحده الذي يستطيع أن يُظهر شخصيّته الحقيقية كما هي، أو أن يُخفي، بالرياء، حقيقتها ويظهرها بصورة مغايرة لها.

«الإنسان كائن حيّ ناطق، أيّ أنه ذو عقل وقوة تمييز، تمنحانه القدرة على التدخّل في كيفية مظاهر روحه، أيّ جوهر الوجود، فإذا شاء بنفسه، أو اضطرته الـظروف والأحـوال الاجتماعية إلى ذلك، فإنّه يستطيع أن يُظهر شخصيّته بخـلاف حقيقتها. كثير من الناس قد أصبحوا، في أقوالهم وأفعالهم ومهنهم وعلاقاتهم الاجتماعية، بعيدين عن طبيعتهم الحقيقية، يقولون ما لا يؤمنون به، ويفعلون ما لم يكونوا ليفعلوه لو تُركت لهم حرية الاختيار، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية على أُسس تنسجم مع ميولهم وتمنّياتهم القلبية. هؤلاء هم أسرى بعض الملاحظات والضوابط غير الصحيحة تكاد تكون قيداً غير مرئي في أعناقهم يجرّهم إلى حيث يريد»[١٠].

لا يقتصر الرياء والتظاهر على المجالات الدينية وحدها، بل هما ينفذان في الأمور الدنيوية أيضاً، فمن ينحرف في أداء فريضة دينية، أو في القيام بأيّ عمل عادي، عن الهـدف الأصـلي لتلك الفريضة أو ذاك العمل، فيخامر نيّته شيء من التظاهر والسعي لجلب انتباه الآخرين، يكون قد لوّث نفسه بالرياء.

---

(١٠) عالم غريب عن نفسه: ٦.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «...*وأكْثَرُ ما يَقَعُ الرِّئاءُ في البَصَرِ والكلامِ والأكْلِ والشُّرْبِ والَمجيءِ والُمجالسةِ واللِّباسِ والضَّحْكِ والصَّلاة والَحجِّ والجِهادِ وقراءَةِ القُرْآنِ وسايرِ العِباداتِ الظَّاهِرَةِ*»[١١].

الشرك الخفي

الإسلام ينظر إلى التظاهر والرياء، سواء أكانا في الأمور الدينية أم في الأمور الدنيوية، على أنّها من السيِّئات الأخلاقية، وقد نهى أئمة المسلمين أصحابهم عنها. ولكن الرّياء في العبادة أقبح بكثير من الرياء في الأمور العادية، وذلك لأن الرياء في العبادة، فضلاً عن كونه فساداً أخلاقياً، يتنافى مع التوحيد في العبادة، وعمل كهذا في حضرة الله تعالى مستقبح ومردود. إن الذين يؤدُّون الواجبات الدينية رياءً وتظاهراً وجلباً لانتباه الناس، يكونون أشبه بالذين يجعلون الأصنام، أو النار، أو أيّ شيء أرضي أو سماوي، شركاء لله ويعبدونها، بفارق أن معبودات هؤلاء مشهودة، وشركهم علني، بينما المراؤون يعبدون في الواقع صنماً باطنياً غير مشهود، ويكون شركهم خفياً، لا يعلم به الناس، ولكنّهم أنفسهم يعلمون بانحرافهم الروحي وشركهم الباطني.

ولكي يتبيّن الرياء في الشؤون الدينية والدنيوية بشكل أوضح، ويزداد اطلاع القرّاء على أخطار هذه السجيّة المذمومة، نورد في هذا الفصل آيات وأحاديث تختص أوّلاً بالرياء في العبادات مما يوجب الشرك بالله تعالى، ويؤدي إلى كثير من المفاسد الاجتماعية، ومن ثم نتناول بالبحث الرياء في الأعمال العادية والأمور الدنيوية.

قالَ ابنُ أوْسٍ: دخلتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ، فرأيْتُ في وجههِ ما سَاءَني. فقلْتُ: مَا الذي أرَى بكَ؟

فقال: «*أخَافُ على أُمَّتي الشِّرْكَ*.

فقلتُ: أيُشْركُونَ منْ بعدِكَ؟

---

(١١) مصباح الشريعة: ٣٣.

فقال: *أما إنّهم لا يعبُدون شمساً ولا قمراً، ولا وثناً، ولا حجراً، ولكنّهم يراؤون بأعمالهم والرِّياءُ هو الشِّرْكُ كُلّا»*[١٢].

﴿فمَنْ كانَ يرجُوا لِقاءَ ربِّهِ فلْيَعْمَل عَملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادَةِ ربِّه أحداً﴾[١٣].

عن أبي عبدالله الصادق(ع) في قوله تعالى: ﴿فمَن كانَ يرجُوا لِقاءَ ربِّه...﴾، قال: *«الرَّجُلُ يَعْملُ شيئاً من الثَّوابِ لا يَطْلُبُ به وجْهَ الله، إنَّما يَطْلُبُ تزْكِيَةَ النَّاس، يَشْتَهي أنْ يَسْمَعَ بهِ النَّاسُ، فهذَا الذي أشْرَكَ بعبادَةِ ربِّه»*[١٤].

التوحيد في العبادة ركن أساس من أركان الدين الإسلامي المقدَّس، وعبادة غير الله، مهما يكن شكلها وصورتها، تؤدّي إلى الانحراف عن مسيرة التوحيد نحو الشرك والمشركين.

هاتان الروايتان تشيران بوضوح إلى أن الرياء في العبادة صورة من صور الشرك، وأن المرائين، بالشوائب من أعمالهم، يجعلون غير الله، في مقام العبادة، شريكاً لله.

سُئل رسول الله صلّى الله عليه وآله: فيمَ النَّجاةُ غداً؟

فقال: *«إنَّما النَّجاةُ في أنْ لا تُخادعُوا الله فيَخْدَعَكُم، فإنَّه منْ يُخادعِ الله يَخْدَعْهُ ويُخلَعْ منهُ الإيمانَ، ونفسَهُ يَخْدَعُ لوْ يشْعرُ.*

فقيلَ لهُ: وكيف يُخادعُ اللهَ؟

قالَ: *يَعْمَلُ بما أمرَهُ اللهُ ثمَّ يُريدُ بهِ غيرَهُ. فاتَّقوا اللهَ واجْتَنبُوا الرِّياءَ فإنَّه شِرْكٌ باللهِ. إنَّ المرائي يُدْعى يومَ القيامَةِ بأرْبعَةِ أسماءٍ: يا كافِرُ، يا فاجِرُ، يا غادِرُ، يا خاسِرُ»*[١٥].

---

(١٢) مجموعة ورّام ٢: ٢٣٣.

(١٣) الكهف: ١١٠.

(١٤) سفينة البحار، القمّي ١: ٤٩٩.

(١٥) أمالي الصدوق: ٣٤٦.

ليس الرياء في العبادة خداعاً لله فحسب، فإن المرائي، بأعماله المصطنعة غير الحقيقية، يخدع الناس كذلك، فيظهر نفسه، كذباً،أنّه يطيع أوامر الله، وبذلك يستغفل الناس، ويضلّلهم.

الإمام السجّاد(ع) بيّن لأصحابه التعاليم الإسلامية الخاصة بهذا الموضوع، وحذّرهم من ارتكاب ذنب التظاهر والرياء، ووصف هذا العمل اللا أخلاقي بأنّه ظلم بعباد الله، ووضعه في مصاف سائر الآثام الاجتماعية، وسأل الله تعالى أن يُرضي المخدوعين عنه.

«فأيُّما عبدٍ منْ عبيدِكَ، أوْ أمَةٍ منْ إمائكَ، كانتْ لهُ قِبَلي مظْلِمَةٌ ظلَمْتُها إيّاه في نفسه، أو في عرْضِه، أو في ماله، أوْ في أهلهِ وولْده، أو غَيْبَةٌ أغْتَبْتُهُ بها، أوْ تحامُلٌ عليْهِ بميْل ، أوْ هوىً، أوْ أنفَةٍ، أوْ حَميَّةٍ، أوْ رئَاءٍ، أوْ عصبيَّةٍ، غائباً كانَ أوْ شاهداً، وحيّاً كانَ أوْ ميّتاً، فقَصُرتْ يَدي، وضاقَ وسْعي عنْ ردِّها إليهِ والتَّحَلُّل منْهُ، فأسْألُكَ، يَا منْ يمْلكُ الحاجات، وهي مُسْتَجيبَةٌ لمشيَّئته، ومُسْرعَةٌ إلى إرادَتِه، أن تُصَلّي علَى مُحَمَّدٍ وعلَى آل مُحَمَّدٍ، وأنْ تُرْضِيَهُ عنّي بمَا شِئْتَ، وتَهَبَ لي مِن عَنْدِكَ رَحْمَةً»[١٦].

كثيراً ما صادف في تأريخ الإسلام أن قامت عناصر خائنة وفاسدة باندساسها في صفوف الصالحين الطاهرين لتنفيذ مآربها القذرة، فأظهرت بالغش والمكر أنّها من المؤمنين الصالحين، وخدعت الناس باسم الدِّين والتديّن، استحوذت على ثقتهم، وبذلك تمكّنت من تحقيق أهدافها غير المشروعة، وتسببت في كثير من الخسائر الفادحة التي لم يمكن جبر بعضها.

كان بعضهم يتّخذون صبغة الزهد والتقوى لكي يتجسّسوا لمصلحة الحكام الظالمين، فكانوا ينفذون إلى محافل المسلمين الأحرار والمجاهدين، ويطّلعون على أسرارهم وقراراتهم، ثم يقدِّمون تلك المعلومات إلى الحكّام الجبّارين، لإحباط خطط المسلمين للتحرّر ولإبقائهم تحت نير الأسر والشقاء.

---

(١٦) الصحيفة السجّادية: ٣٤٨.

كان بعضهم يتّخـذون مظاهـر خادعـة وينتظمون كمسلمين ضمن أعضاء الفئات المسلمة، بهدف إحباط حركات المسلمين التحرّرية، وتشتّت شمل وحدتهم، ولكنهم في الظروف الحساسة كانوا يقومون بما يتعارض ومصلحة النهضة، فيخلقون التفرقة بأعمالهم، ويستثيرون سوء الظنّ بين الفئات والجماعات، ويبعثون اليأس في القلوب، ويمهّدون للظالمين الطريق ليستمروا في ظلمهم.

وكان آخرون يدخلون عن طريق الخداع والرياء، مدفوعين بدوافع حبّ الجاه والمحبـوبية، أو لجلب المنافع المادية، أو لأيٍّ هوى نفسي آخر، فيستغفلون الناس بالنفاق والتظاهر بالتقى والصلاح، فينالون بالمكر والخداع مآربهم الباطلة. وفيما يلي نورد بعض الأمثلة على ذلك من التاريخ:

في الأيام التي كان فيها مسلم بن عقيل(ع) في الكوفة مبعوثاً من قبل الإمام الحسين(ع) لأخذ البيعة له من الناس، وصل الكوفة عبيدالله ابن زياد والياً عليها من قبل يزيد بن معاوية، وهدَّد الناس بالقتل إن هم خالفوا أوامره، وأخذ العرفاء أخذاً شديداً، مُعدّاً نفسه لقمع حركة التشيّع والقضاء عليها.

ولما سمع مسلم بن عقيل بمجيء عبيدالله إلى الكوفة ومقالته التي قالها وما أخذ به العرفاء والناس، قرَّر أن يترك دار المختار ـ التي كان قد اتَّخذها مقراً لنشاطه ـ وينتقل إلى دار هاني بن عروة، فدخلها، فاخذت الشيعة تختلف إليه في دار هاني على تستـر واستخفاء من عبيدالله، وتواصوا بالكتمان. فدعا ابن زياد مولى له يقال له (معقل) فقال له: خذ ثلاثة آلاف درهم واطلب مسلم بن عقيل والتمس أصحابه، فإذا ظفرت بواحد منهم أو جماعة فأعطهم هذه الثلاثة آلاف درهم، وقل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فإنّك لو أعطيتهم إيّاها لاطمأنوا إليك ، وثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم أغدُ عليهم ورح حتى تعرف مستقر مسلم بن عقيل وتدخل عليه. ففعل ذلك وجاء حتى جلس إلى مسلم بن عوسجة الأسدي في المسجد الأعظم وهو يصلّي، فسمع قوماً يقولون: هذا يبايع للحسين(ع). فجاء وجلس إلى جنبه حتى فرغ من صلاته، ثم قال: يا عبدالله، إني امرؤٌ من أهل الشام، أنعم الله

عليّ بحب أهل البيت وحب من أحبهم. وتباكى له، وقال: معي ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم، بلغني أنّه قَدِم الكوفة رجل يبايع لابن بنت رسول الله(ص)، فكنت أُريد لقاءه، فلم أجد أحداً يدلني عليه، ولا أعرف مكانه. وإني لجالس في المسجد الآن إذ سمعت نفراً من المؤمنين يقولون: هذا رجل له علم بأهل هذا البيت، وإني أتيتك لتقبض مني هذا المال وتُدخلني على صاحبك، فإنّي أخ من إخوانك وثقة عليك، وإن شئت أخذتَ بيعتي له قبل لقائه. فقال له ابن عوسجة: إحمد الله على لقائك إيّاي فقد سرَّني ذلك، لتنال الذي تحب ولينصر الله بك أهل بيت نبيه عليه وعليهم السلام، ولقد ساءني معرفة الناس إيّاي بهذا الأمر قبل أن يتم، مخافة هذا الطاغية وسطوته. قال له معقل: لا يكون إلّا خيراً. خذ البيعة عليَّ. فأخذ بيعته وأخذ عليه المواثيق المغلظة لينـاصحنّ وليكتمنَّ، فأعطاه من ذلك ما رضي به. ثم قال: اختلف إليَّ أياماً في منزلي فإنّي طالب لك الإذن على صاحبك. وأخذ يختلف مع الناس، فطلب له الإذن، فأذن له، فأخذ مسلم بن عقيل بيعته، وأمر أبا ثمامة الصائدي بقبض المال منه، وهو الذي كان يقبض أموالهم وما يعين به بعضهم بعضاً، ويشتري لهم السلاح، وكان بصيراً وفارساً من فرسان العرب ووجوه الشيعة. وأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم، فهو أول داخل وآخر خارج، حتى فهم ما احتاج إليه ابن زياد من أمرهم، فكان يخبره به أوّلاً بأوّل[١٧].

إن نفاق هذا المنافق قد أدّى إلى مفاسد كبيرة ما كان بالإمكان جبرها، كمقتل مسلم بن عقيل وهـاني ابن عروة، والتمهيد لواقعة كربلاء الدامية التي قُتل فيها الحسين(ع) وأصحابه العظام، وهم من أكرم أبناء الإسلام، وبذلك مكّن لتوطيد سلطان يزيد وأعماله الفاسدة.

كان أبو جعفر (محمّد بن القاسم العلويّ) من أبناء رسول الله(ص)، ويصل نسبه من جانب أبويه في ثلاثة أظهر إلى الإمام السجّاد(ع). كان عالماً، فقيهاً مؤمناً،

---

(١٧) الإرشاد، المفيد: ١٨٩

حرّاً، شجاعاً. وكان يسكن الكوفة ويواصل نشاطه ضد حكومة المعتصم العباسي الظالمة. وعندما عزمت سلطات الحكم على القضاء عليه، اضطر إلى ترك الكوفة إلى أرض خراسان الواسعة، وظلَّ زماناً ينتقل من مدينة إلى أُخرى، حتى انتهى به الأمر إلى المقام في مدينة (مرو)، حيث راح يحرّض الناس على حكم المعتصم، فتجمّع حوله الناس المظلومون المحرومون، وبايعه في فترة قصيرة أربعون ألف شخص.

وفي إحدى الليالي جمع الجند ليتحدّث إليهم عن الانتفاضة وليُعِدَّهم لمواجهة جنود المعتصم. وقبل أن يباشر الكلام ويشرح برنامجه للجند، طرق سمعه صوت رجل يبكي، فعجب لذلك، وسأل عن الباكي وعن السبب، فظهر بعد التحقيق أن أحد الجنود قد انتزع من أحدهم بساطه بالقوة، فأخذ هذا يبكي بصوت مرتفع. فاستدعى محمَّد بن القاسم الجندي وسأله عمَّا دفعه إلى القيام بذلك الأمر القبيح، فقال الجندي: لقد بايعناك لكي نتمكّن من أخذ ما نشاء من أموال الناس، وأن نفعل ما نريد. فأمر محمّد بإرجاع البساط إلى صاحبه، وحلّ الجند، قائلاً: إن ناساً كهؤلاء لا يمكن أن يُستعان بهم في سبيل دين الله[١٨].

يبدو أن هذا الجندي المنافق الآثم كان قد عُهد إليه منذ البداية أن يبايع محمَّد بن القاسم مبايعة مسلم صادق يشعر بمسؤوليته، فيتغلغل في صفوف المجاهدين بالخداع والرياء وبالإعلان، كذباً، أنّه مستعد لإعلاء كلمة الحقّ وإقامة العدل، ثم، في أشدِّ اللحظات حسّاسية، يرتكب مثل هذا العمل الشائن ليلقي باليأس والقنوط في القلب الطاهر لذلك القائد المؤمن، ويثير سوء الظنّ في قلوب الجنود، ويشتّت جمعاً قد تضافر لمحاربة المعتصم وحكمه الجباري، لكي يظل المجتمع الإسلامي يرسف في أغلال الأسر والشقاء.

وقد يسعى أشخاص خبثت قلوبهم لنيل السمعة الحسنة من أجل الوصول إلى أهدافهم غير المشروعة عن طريق إلقاء شِباك الغش والرياء، ولبس لبوس المتدينين

---

(١٨) تتمة المنتهى: ٢٢٠.

الصادقين، والتظاهر بالتعبُّد الكاذب الخادع، ليتمكَّنوا من اجتلاب ثقة الناس واطمئنانهم، فيكون ذلك وسيلة لهم للاعتداء على أموال الناس وحقوقهم.

إن إعرابياً دخل المسجد فرأى رجلاً يصلي بخشوع وخضوع فأعجبه ذلك فقال له: نعم ما تصلي قال: وأنا صائم فإن صلاة الصائم بضعف صلاة المفطر فقال له الأعرابي: تفضّل واحفظ ناقتي هذه فإن لي حاجة حقّ أقضيها، فخرج لحاجته فركب المصلّي ناقته وخرج فلما قضى الأعرابي حاجته رجع فلم يجد الرجل ولا الناقة وطلبه فلم يقدر عليه فخرج وهو يقول (فرداً):

صلّى فأعجبني وصام فرامني نحّ القلوص عن المصلّي الصائم[١٩]

أنّه حكي أنّه قدم رجل إلى بغداد ومعه عقد يساوي ألف دينار، فأراد بيعه فلم يتّفق. فجاء إلى عطّار موصوف بالخير والديانة فأودع العقد عنده وحجّ وأتى بهدية للعطار وسلّم عليه فقال: من أنت ومن يعرفك؟ فقال: أنا صاحب العقد فلمّا كلّمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا: ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذّب عليه إلّا هذا. فتحيّر الحاج وتردّد إليه فما زاده إلّا شتماً وضرباً. فقيل له: لو ذهبت إلى عضد الدولة لحصل لك من فراسته خير. فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال ما شأنك فقص عليه فقال إذهب غداً واجلس في دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمرّ عليك في اليوم الرابع فأقف وأسلم عليك فلا ترد عليّ إلا السلام فإذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمني بما يقول لك. ففعل الحاج ذلك فلمّا كان في اليوم الرابع جاء عضد الدولة في موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال: السلام عليكم. فقال الحاج: وعليكم السلام. ولم يتحرّك، فقال يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تُعرض علينا حوائجك؟ فقال له ما اتفق هذا ولم يزده على ذلك شيئاً هذا والعسكر واقف بكماله فانذهل العطار وأيقن بالموت فلما انصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الحاج وقال له: يا أخي متى أودعتني هذا العقد وفي أيّ شيء هو ملفوف

---

(١٩) الثالي، الأخبار: ٣٣٠.

فذكّرني لعلّي أتذكّر؟ فقال: من صفته كذا وكذا فقام وفتّش ثمّ فتح جراباً وأخرج منه العقد وقال: والله أعلم إنني كنت ناسياً ولو لم تذكّرني ما تذكّرت فأخذ الحاج العقد ومضى إلى عضد الدولة فأعلمه فعلّقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودي عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى إلى بلاده[٢٠].

وعليه، فإنّ الرياء في العبادة انحراف عن عبادة الواحد الأحد، واتجاه إلى الشرك. الرياء في العبادة يعني مخادعة الله، وغشّ الناس، وخيانة الدِّين، وهو، في النهاية، سقوط وهلاك.

الفئة المؤمنة الصادقة، والفئة المنافقة المرائية، كلتاهما تتحدَّثان عن الله، وكلتاهما تنطقان بكلمة التوحيد الطيبة، ولكن الفرق بينهما هو أن الفئة المؤمنة موحّدة في العبادة أيضاً، ولا تعبد إلاّ الله، وتؤدِّي الفرائض الإلهيّة بنيّة خالصة، طاعة لله تعالى، وتسير في مدارج السموّ والكمال في ظل الإيمان والأعمال الصالحات، بينما الفئة المنافقة مشركة بالفعل، ترائي في العبادة، وعن طريق الغش والخداع والمكر تلبس نواياها السود وأفكارهم الأثيمة لبوس الدِّين، فتكون نتيجة مكرها وخداعها أن يكون مصيرها التعاسة والشقاء. يقول القرآن الكريم في هذا:

﴿إليهِ يَصعَدُ ٱلكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وٱلعَمَلُ ٱلصَّالحُ يَرفَعُهُ وٱلَّذينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئاتِ لُهم عذابٌ شديدٌ و مَكرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[٢١].

عن الإمام الباقر(ع)، قال: «*قالَ رسُولُ الله صلَّى الله عليه وآله: إنَّ لكُلِّ قولٍ مِصاداقاً مِنْ عَمَلٍ يُصدِّقُهُ أو يُكَذِّبُهُ. فَإذا قالَ ابنُ آدَم وصَدَّقَ قولَهُ بِعَمَلِه رُفِعَ قَولُهُ بِعَمَلِه إلى الله، وإذا قالَ وخَالفَ عملُهُ قولَهُ رُدَّ قولَهُ على عَمَلِه الخَبيثِ وهَوى بهِ إلى النَّار*»[٢٢].

---

(٢٠) ثمرات الأوراق: ١٤٣.

(٢١)فاطر:١٠

(٢٢) تفسير الصافي: ٤٤٥.

الرياء في الأخلاق

لا بدّ من القول بأنّ المسلمين الصادقين فضلاً عن كونهم لا يلوّثون العبادات التوقيفية ـ وهي التي أقرّها الشارع المقدّس بكيفيات وكميات معلومة ـ بالرياء، فإنّهم كذلك يتجنّبون كل صبغة مرائية في الأخلاق والأعمال التي لها شأن ديني، وتسبغ على المرء سيماء التديّن، وذلك بموجب تعاليم أئمة الدِّين(ع).

عن معاذ بن جبل، قال: قال لي رسول الله(ص): *«يَا مُعاذ، احْذَرْ أَنْ يُرى عَلَيْكَ آثَارُ الْمُحْسِنينَ، وأَنْتَ تَخْلُو مِنْ ذلِكَ، فَتُحْشَرُ مَعَ الْمُرائينَ»*[٢٣].

وعنه(ص)، قال: *«إِيّاكَ وَتَخَشُّعَ النِّفاقِ، وهُوَ أن يُرى الجَسَدُ خاشِعاً والقَلْبُ لَيْسَ بِخاشِعٍ»*[٢٤].

سبق القول بأن المراءاة ليست منحصرة في العبادات والشؤون الدينية، إذ إن هذه السجيّة المذمومة قد تتطرق إلى الأعمال العادية والأمور الدنيوية أيضاً، فتحمل المرء على التلوّن والتصنُّع والتظاهر بغير ما هو الحقّ، فتؤدي إلى حدوث مفاسد كثرة.

هنـالك في المجتمعات البشرية أُناس يميلون إلى التظاهر والتفاخر، بهدف التعويض عمّا فيهم من ضعة باطنية، فيشيّدون لأنفسهم من الرياء بيتاً يسكنونه، ولبـاساً يرتدونه، ومركباً يركبونه، ورفيقاً يرافقونه، وطعاماً يقدّمونه، وكلاماً يقولونه، وخادماً يستخدمونه، فلا يتركون في أُمور دنياهم أمراً لا يراؤون فيه، ولا اتجاهاً في الحياة دون أن يحرفـوه عن مسيرته الأصلية. إن الإسلام يدين الرياء في الأعمال العادية والشؤون الحياتية بمثلما هو يدينه في العبادة ويذمّه، وقد وعد الله هؤلاء المرائين عذاباً شديداً. وفيما يلي إشارة إلى بعض تلك الحالات المرائية التي وردت في بعض الأحاديث الدينية:

---

(٢٣) المستطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي ١: ١٠٠.

(٢٤) تحف العقول، الحراني: ١٠٠.

بيت الـرياء: ضرورات الحياة تفرض على المرء أن يعدّ لنفسه وعائلته بيتاً يسكنـونـه، وهذا أمر مهم بحيث أن المشرّع الإسلامي قد استثنى بيت السكنى الخاص من أن يستولي عليه الدائن ويطرد أهله منه لقاء دينه.

في المجتمع بعض الأثرياء يبنون لأنفسهم بيتاً من الرياء للتظاهر والتباهي، فيوسّعـونه أكثر مما تتطلبه حاجتهم، ويزيّنونه بأنواع الزينات ليفخروا بذلك أمام الناس، وليتباهوا بثرواتهم، ويبيّنوا تفوقهم المالي على غيرهم، لعلهم يخلقون لأنفسهم شخصية بين النـاس، دون أن يدركـوا أن هذا يؤدّي إلى خسـرانهم وسوء حظهم وتعاستهم. فإن من يبني لنفسه بيتاً من الرياء لا يكون قد خطا بخلاف مصلحته الخاصة، فحسب، بل يكون بهذا العمل المذموم والمخالف للأخلاق قد ظلم المجتمع، وبذر بذور الحقد والبغضاء في القلوب، وأثار سوء الظن والعداء بين الناس. إن بيت الرياء في الدنيا يكون بلاء ينزل بصاحبه، ويجعله غرضاً لحسد الناس وسوء الظنّ به، وهو في الآخرة نار حارقة وعذاب أليم، حيث ينال صاحب بيت الرياء عقابه فيه.

عن النبي(ص)، أنّه قال: *«مَنْ بَنَى بُنْياناً رِياءً وسُمْعَةً حَمَلَهُ اللهُ يومَ القيامَةِ علَى عُنُقِهِ وهَو مُشْتَعِلٌ ويُلْقَى في النَّارِ»*[٢٥].

قيلَ: يا رَسول الله كيفَ يُبْنى رياءً وسُمْعَةً؟

قالَ: *«يُبْنى فَضْلًا على ما يَكْفيهِ استطالَةً مِنْهُ على جيرانِهِ ومُباهاةً لإخوانِهِ»*[٢٦].

إنّه لمن سوء الحظ أن يكون اليوم أيضاً مسلمون من الأثرياء الذين يبنون بيوت رياء وعمارات سامقة جليلة تزيد على ما يحتاجونه في حياتهم أضعاف المرّات، ويبذلون الملايين لتزيين غرفها بأنواع من الرخام والمرايا والتماثيل. في حين إن قسماً كبيراً من تلك العمارات لا حاجة لهم فيها وتبقى متروكة طيلة السنة، بينما

(٢٥) السهاب: ٥٣.

(٢٦) أمالي الصدوق: ٢٥٦.

نجد أن في مدينة هؤلاء المثرين، أو بلدهم، الكثير من العوائل الفقيرة المعدمة التي لا تستطيع أن تبني لنفسها حتى أحقر البيوت من الطين واللبن يسكنونها مع عوائلهم، ليتخلّصوا من عذاب التشرّد.

لو كان قائد الإسلام حيّاً أمَا كان يطرد أمثال هؤلاء الأثرياء من حضوره؟ أمَا كان يردّ بشيء على عملهم القبيح؟ أكـان يرضى بدخول تلك البيوت المبينة على الرياء، فيصادق بدخولها على ذلك العمل المذموم؟ أكان يسكت على هذا الإسراف الذي يولّد العداء والنفاق؟ أكان الرسول الأكرم(ص) ينظر إلى هذه الأعمال المرائية بلا مبـالاة، ومن دون أن يُظهر شيئاً من استنكاره لها وبراءته منها؟ لا شكَّ في أن الإجابات عن هذه الأسئلة تكون بالنفي، والدليل على ذلك موقفه من أحد بيوت الرياء هذه، كما يتجلّى في هذه الرواية:

«في الحديثِ أنّه(ص) دُعي إلى طعامٍ فإذا البيتُ مُظلِمٌ فَانصرفَ ولَمْ يَدخُلْ»[٢٧].

أيّ أنّه رأى الغرفة التي دخلها موشّاة بالذهب والفضة ومزينة بشتّى الزينات.

لقد اطلق الإسلام صفات خاصة على البيوت المحمودة، وكذلك على البيوت المذمومة، ومنها بيوت الرياء. والمطلوب في البيوت المحمودة أن تكون في محل جيد، وأن تكفي مرافقه حاجات ساكنيه، وأن يراعي جيرانه واجبات الجوار، وأن يكون ذا جوّ نظيف، ومـاء صحيّ، واسعـاً، وذا ضوء كافٍ، وغير ذلك من الشروط الصحيّة والرفاهية. وقد وردت في هذا أحاديث كثيرة، نذكر واحداً منها:

عن أبي عبـدالله الصادق(ع)، قال: «*لَا تَطيبُ السُّكْنى إلّا بثَلاثٍ: اَلهواءَ الطَّيِّبُ، والماءُ الغَزيرُ العَذْبُ، والأرْضُ الخَوّارَةُ*»[٢٨].

المراءاة: يحيا الإنسان حياة اجتماعية بالنظر لأن أعضاء المجتمع يحتاج بعضهم

---

(٢٧) لسان العرب، مادة «ظلم».

(٢٨) تحف العقول، الحراني: ٣٢٠.

إلى بعض في تبادل العون والمساعدة. ولّما كان الناس متباينون في مواهبهم، واستعداداتهم الفطرية، ومعلوماتهم المكتسبة، وكفاءاتهم، وخبرتهم، كان لا بدَّ أن تتباين الأعمال والمهن التي يتّخذونها، فمنهم عمّال، ومنهم أرباب عمل، وبعضهم أطباء أو طبيبات، وآخرون ممرّضون أو ممرّضات، ومنهم المديرون ومنهم المستخدمون، بعض آمرون وبعض مأمورون، وبعض مخدومون وبعض خادمون، ولكنهم جميعاً بشر، وكل فئة منهم بمثابة العضو المفيد في جسم الإنسان، وينبغي أن تحظى الفئات جميعها باحترام المجتمع وتقديره.

ولكن بعض ذوي السلطة المرائين، لكي يُظهروا أنفسهم كباراً عظاماً، ويُشبعوا رغبتهم في التفوّق والتعالي، يعمدون إلى استخدام العمال والخدم لمجرد التفاخر، فيوقفونهم أمام أنظار الناس كالتماثيل المعدنية أو الحجرية، فلا يصرفونهم، ولا يجيزونهم بالجلوس، ولا يشغلونهم بعمل. إنّ هذا السلوك الشائن يعني تحقير الإنسان وإهانة شخصيته، وهذا مذموم في التعاليم الدينية، والذين يفعلون ذلك لهم عذاب أليم عند الله، كما جاء في الأحاديث.

عن النبي (ص)، أنّه قال: «*مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ*»[٢٩].

وعن طاووس اليماني، قال: سمعت أمير المؤمنين(ع) يقول: «*إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظُرَ إِلى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَانْظُر إِلى رجُلٍ جَالِسٍ وحَوْلَهُ قَوْمٌ قِيامٌ*»[٣٠].

مائدة الرياء: من الأمور المألوفة التي يمكن أن يدخل فيها الرياء والتظاهر، وتحرف الإنسان عن طريق الفضيلة والأخلاق إلى طريق الرياء، هو إقامة الولائم التي تقدَّم فيها ألوان متعددة من الطعام. وقد وردت أحاديث كثيرة عن أئمة المسلمين تحثّ الناس من جهة على كرم الضيافة وتكريم الضيف، وتحذّرهم من جهة أُخرى من

---

(٢٩) الشهاب: ٥٤.

(٣٠) سفينة البحار، القمّي ٢: ٩٥.

الإسراف والإفراط.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*إذا أتاك أخوك فأته بما عندك، وإذا دعوته فتكلّف له*»[٣١].

إلّا أنّ هناك أحاديث أُخرى تحذّر المسلمين من تجاوز حد الاعتدال في هذا التكلّف إلى حدود الإسراف والإفراط، لئلا تصطبغ بصبغة الرياء، لأن الإسلام يعتبر مائدة الرياء من الذنوب الأخلاقية الكبيرة المعاقب عليها يوم القيامة.

عن النبي(ص)، أنّه قال: «*مَنْ أطْعَمَ طَعاماً رِئاءً وسُمْعَةً أطْعَمَهُ اللهُ مِنْ صَديدِ جَهَنَّمَ*»[٣٢].

تكريم الرياء: المقابلة الاجتماعية الحسنة ومراعاة الأدب في معاشرة الناس عموماً من العوامل المهمة والمؤثرة في سعادة الإنسان. ولقد عني أئمة الإسلام في تعاليمهم الأخلاقية بهذا الأمر عناية فائقة، وحثّوا أصحابهم على تكريم بعضهم بعضاً، وقالوا إن تكريم المسلم تكريم لله تعالى.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَنْ أتاهُ أخُوهُ المُسْلِمُ فأكْرِمْهُ فإنّما أكْرَمَ اللهَ عزّ وجلّ*»[٣٣].

بيدَ أنَّ إكرام الناس واحترامهم يجب أن يكون بدافع الشعور بالمسؤولية وفي نطاق الحدود والموازين الأخلاقية، إذ لو تجاوز الحدَّ ومال إلى الإفراط لأصبح من باب إهانة الآخرين وتحقيرهم، أو لاصطبغ بصبغة التملّق، أو الرياء، أو التظاهر. وهذا مذموم في الأخلاق الإسلامية ومستقبح.

استقبل رسول الله(ص) رجل من بني فهد وهو يضرب عبداً له، والعبد يقول: أعوذ بالله فلم يقلع الرجل عنه، فلما أبصر العبد برسول الله(ص) قال: أعوذ بمحمّد

---

(٣١) بحار الأنوار، المجلسي ١٦: ٢٤.

(٣٢) سفينة البحار، القمّي ٢: ٧٦.

(٣٣) الكافي، الكليني ٢: ٢٠٦.

فأقلع عن ضربه. فقال رسول الله(ص): «*يَتعوَّذُ باللهِ فلَا تعيذُهُ؟ ويتعوَّذُ بمُحَمَّدٍ فتعيذُهُ؟ واللهُ أحقُّ أنْ يُجارَ عائِذُهُ مِنْ مُحَمَّدٍ*.

فقالَ الرَّجُلُ: هو حرٌّ لوجْهِ الله.

فقالَ رسولُ اللهِ(ص): *والَّذي بَعَثني بالحَقِّ نَبيّاً لَوْ لم تَفْعَل لواقع وجهُكَ حرَّ النَّارِ*»[٣٤].

هذا الإنسان العارف بواجباته قد ارتكب خطأً كبيراً بعدم احترام الخالق، ففضَّل الاستعاذة بالنبي على الاستعاذة بالله، وبتكريمه المرائي لنبي الإسلام أساء الأدب إلى مقام الخالق سبحانه، فأثار بعمله القبيح هذا غضب رسول الله(ص)، وعرَّض نفسه لانتقاده الشديد.

في نظر الإسلام، المراءاة في الأمور العادية والشؤون الدنيوية لا تقتصر على هذه الحالات التي ذكرناها، بل إن أولياء الدين قد ذكروا أموراً أُخرى في أحاديثهم الكثيرة، وحذّروا أصحابهم منها، ولكنّنا نكتفي بما سبق لكيلا يطول الكلام.

على أثر ضعف الإيمان وهبوط القيم الدينية في عالمنا المعاصر، أصبح اهتمام الناس موجّهاً نحو الماديات، وغفلوا عن المعنويات. لذلك كان ما نراه من التظاهر والرياء في الأمور المادية والشؤون الدنيوية أكثر بكثير من الرياء في العبادات والمظاهر الدينية. واليك بعض الأمثلة على ذلك:

هنالك، كما نعلم، فوارق كثيرة وفواصل واسعة بين الدول الغربية والدول الشرقية النامية، في العديد من الوجوه، بحيث إن شعوب هذه الدول الأخيرة تتعذّب من جرّاء تخلّفها وتشعر بالحقارة مما فيها من نواقص.

فإذا شاء هؤلاء أن يزيلوا نواقصهم ويتخلّصوا من شعورهم بالتخلّف، وجب عليهم أن يضعوا يداً بيد، وأن يخططوا لتقدّمهم بوعي بالمحاسبة الدقيقة، وأن يهيّئوا سُبل تكاملهم الشامل عن طريق نشر الثقافة والعلم، وبالإصلاح الأخلاقي،

---

(٣٤) بحار الأنوار المجلسي ١٦: ٢٨٢، ٧٤: ١٧٣.

وبالسعي والعمل، واستخدم كل العوامل الأخرى، لكي يقلّلوا تدريجياً الفواصل التي تفصلهم عن الدول الغربية.

ولكن الذي يُؤسف له أن نجد في هذه الدول رجالاً ونساءً يريدون، عن طريق المراءاة، أن يُظهروا أنفسهم بمظهر التقدّميّين، وأن يُخفوا تخلّفهم الباطني بالتصنّع الظاهري. فبدلاً من أن يتوجّه هؤلاء المتغرّبون إلى الكمال الحقيقي، وأن يزيلوا نقصهم باكتساب العلم والأخلاق، يصبغون ظاهر أنفسهم بالصبغة الغربية، فليتزمون آداب الغربيّين وعاداتهم، ويستسلمون من دون قيد ولا شرط للمعايير الغربية، فيلبسون كما يلبس الغربي، ويتجمّلون كما يتجمّل الغربي، ويتحدّثون كما يتحدّث الغربي عن دنيا الغرب، ويستعملون الألفاظ الغربية في كلامهم من دون ضرورة لها، وكالغربيّين يحتضنون الكلاب، ومثلهم يستمعون إلى الموسيقى الغربية، وكما يرقص أولئك يرقصون، يحضرون احتفالات رأس السنة الغربية، ويشربون ويسكرون ويعربدون أكثر مما يفعل الغربيون.

إن أمثال هذه المظاهر فضلاً عن كونها لا تُعوّض ما فيهم من نقص ولا تزيل تخلّفهم، فإنّها، على العكس من ذلك، تكشف، بهذه الأعمال المرائية والمصطنعة، عن ضعفهم الخفي، وتبرز ما يريدون ستره من شعورهم الباطني بالنقص.

نستخلص من هذا البحث أن التظاهر والرياء من جملة السيِّئات الأخلاقية، وهما السبب في كثير من المفاسد المادية والمعنوية. إن المرائين، بأعمالهم المصطنعة والمخادعة، يُخفون ملامحهم الحقيقية، ويظهرون أنفسهم على غير حقيقتها، لكي يخدعوا الناس ويستغفلوهم، وبذلك يجعلون من أنفسهم، بالغش، غير ما هم في الواقع.

يمنع الإسلام الرياء في العبادات كما يمنعها في الأعمال العادية والشؤون الدنيوية، بفارق أن الرياء في الأعمال الدنيوية يتّسم بكونه سيّئة أخلاقية، وأمثال هؤلاء المرائين يعاقبون بجرم فساد الأخلاق. أما المراؤون في العبادات، فهم فضلاً عن فسادهم الأخلاقي يكونون قد أشركوا بالله، والشرك إثم عظيم لا يُغتفر، ولذلك فإن

الذين يراؤون في العبادة، يكونون قد جعلوا الناس شركاء لله في العبادة فيعبدون غير الله، فهم بهذا يستحقون عقاب المشركين.

أما المسلمون الصادقون فيتّبعون تعاليم أئمة الدين في القيام بالصالح من الأعـمال بجد، وبخلوص نيّة، وبدافع من شعورهم بالمسؤولية، لا يفكّرون في ثناء الناس عليهم، لئلا تتلوث أعمالهم الصالحة بالرياء وبالسمعة، ولا هم يقعون أسرى الضعف النفسي، فيتأثّرون بآراء الناس ويقلعون عن عمل الخير.

عن النبي(ص)، أنّه قال: «*لَا تَعْمَلْ شَيْئاً مِنَ الخَيْرِ رِياءً، وَلَا تَدَعْهُ حَياءً*»[٣٥].

(٣٥) تحف العقول، الحراني: ٥٨.

الفصل الخامس عشر

«المُتَكَلِّفُ ظاهِرُهُ رِياءٌ وَباطِنُهُ نِفاقٌ، فَهُما جَناحانِ يَطيرُ بِهِما المُتَكَلِّفُ»

الإمام الصادق (ع)

التّكلّف

التكلّف هو أن يقوم المرء بعملٍ ما بصعوبة ومشقة، أو أنّ يتعهّد القيام بعملٍ ما بتصنّع والتزام. ثمّة أمران يمكن أن يدفعا الإنسان إلى تحمّل التكلّف والمشقة:

الأول: ممدوح، وهو ما يتحرّاه الإنسان لينال به الكمال والسموّ الحقيقيين.

والثاني: مذموم، وهو ما يتحرّاه الإنسان لإشباع حبّ الظهور والمراءاة. والإسلام يشير إلى كلا هذين النوعين من التكلّف، الممدوح والمذموم، ففي كل منهما وردت آيات وأحاديث. ولّما كانت معرفة التكلّف، بنوعيه، من شروط الشعور بالمسؤولية ومن لوازم حسن الأخلاق، فإننا سوف نتحدّث في هذا الفصل عنه، ممدوحاً ومذموماً.

التكلّف الممدوح

يجري شطر من رشد الإنسان وتكامله وفقاً لنظام الخلق التكويني الحكيم، بحيث إنّ كل فرد من أفراد البشر يتمتّع بذلك بحكم الطبيعة الجبرية، من دون أيّ تكلفٍ ومشقة. إلّا أنّ الشطر الآخر من ارتفاع الإنسان وتكامله اكتسابي، فلا يبلغهما

الإنسان إلّا بالسعي وبذل الجهد، وإلّا بتحمّل الصعاب ومقارعة المشكلات، وإلّا بالتكلّف والعناء. وفيما يلي أمثلة لذلك:

١ـ إن من يريد أن يكون إنساناً، يعيش حرّاً شريفاً، ويتخلّق بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، ويتجنّب الإثم والأعمال اللّا إنسانية، ويبلغ مرتبة الكمال التي تليق بالإنسان، لا بدَّ له من أن يتحمّل مشقة تزكية النفس، ويصبر على ما يلاقيه في المجاهدة من صعاب، وينتصر، مع التكلّف، على هوى النفس، ويكبح جماح الغرائز الحرون، ويكبت الرغبات غير المشروعة في داخله.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*أكْرِهْ نَفْسَكَ على الفَضائِلِ، فَإنَّ الرَّذائِلَ أنتَ مطْبُوعٌ عليْهَا*»[١].

أساس تقدّم الإنسان وحجر الزاوية في تكامله هو مجاهدة النفس، وإخضاع الأهواء والرغبات الحيوانية. إن مصلحة الحياة وضمان السعادة المادية والمعنوية يوجبان على الإنسان أن يقوّم غرائزه العمي التي لا تحسّ، وأنّ يقيّد ميوله المطلقة المتحرّرة، وأن يضع زمام الأهواء والشهوات بيد العقل، ويمنعها من الطغيان والعناد.

تصف الأحـاديث الإسلامية مجاهدة النفس بالجهاد الأكبر، وذلك لأن هذه المجاهدة الصعبة أشقّ على الإنسان من كل نزال دموي في ميدان الحرب، ولذلك يكون الانتصار فيها على العدو الباطني والنفس المشاكسة أثمن وأغنى بالنتائج من الفوز في ميدان الحرب على العدو الخارجي. ولهذا نظر أئمة الإسلام إلى الجهاد ضد النفس على أنه أسمى أنواع الجهاد الأخرى، وبيَّنوا لأصحابهم أهميته ومقامه.

عن أبي جعفر الباقر(ع)، قال: «*لَا فَضْلَ كالجِهادِ، ولَا جِهادَ كمُجاهَدَةِ الهوى*»[٢].

٢ـ إن من يريد أن يصبح عالماً ويطوي مدارج الرفعة والكمال، لا بدَّ له من

---

(١) فهرست الغرر: ٣٠٩.

(٢) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٢٧١.

أن يتحمّل عناء الدرس ومشاق البحث والمطالعة، وأن يكيِّف نفسه مع صعوبات مناهج الدرس ومشكلاتها، وأن يتعلّم عدم إضاعة الوقت، وأن لا يخلد إلى الدعة والكسل.

كان أئمة الإسلام يسعون لحمل الناس على إدراك أهمية العلم، ويحثّونهم على طلبه، ويرغّبونهم فيه، فيستعملون مختلف أساليب القول والتعبير في بيان لزوم طلب العلم، دون أن تحول المشكلات بينهم وبين ذلك، وأن لا يقعد بهم ما يتحمّلونه في سبيل ذلك من مشاق.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«لوْ عَلِمَ النّاسُ مَا في العِلْمِ لطَلَبُوهُ، ولوْ بسفْكِ المُهَجِ وخَوْضِ اللُّجَجِ»*(٣).

إن ما يتكلّفه المرء في سبيل تعلّم العلم ممدوح ومقبول عقلاً وشرعاً، ذلك لأن مواهبه الكامنة تنتقل بالعلم والمعرفة من القوة إلى الفعل، وتظهر استعداداته، ويصل الإنسان في ضوء العلم إلى كماله النهائي.

٣ـ إن من يريد أن يكون محبّاً للناس، وأن يُوقظ في نفسه حبّ التعاون ـ وهو من مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية ـ ويبقيه يقظاً، لا بدَّ له من أن يجتهد في قضاء حوائج إخوانه وأخواته وفي حلّ مشكلاتهم بقدر ما يُطيق، وإن اقتضى الأمر أن يستعين بالآخرين، حتى على حساب كرامته، متحمِّلاً ما يكلِّفه ذلك من شعور بالامتهان. إن من لا يستعين بالآخرين في حل مشكلات الناس، ويضعف عن تحمُّل المشقة في سبيل ذلك، يكون قد تخلّى عن إرادته في أن يكون محبّاً للناس، وعن تحمّله المسؤولية في القيام بواجبه، ولا يكون قد رعى حدود الكرامة الإنسانية وشرفها.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال لرفاعة بن موسى: *«يا رفاعةُ، مَا آمَنَ باللهِ ولا بمحَمَّدٍ ولابعَليّ عَليْهما وآلِهِما السّلامُ منْ إذَا أتاهُ أخُوهُ المُؤمِنُ في حَاجَةٍ لمْ يَضْحكْ في وجْهِهِ، فإنْ كانتْ حاجَتُهُ عندهُ سارَعَ إلى قَضائِها، وإنْ لمْ تكُنْ منْ عِندهِ تكلَّفَ منْ عندِ غيرِهِ حتّى يقْضِيَهَا لهُ، فإذا كانَ بخلافِ مَا وصفتُهُ فلَا ولايَةَ بينَنا وبيْنَهُ»*(٤).

---

(٣) بحار الأنوار، المجلسي ١: ٥٧.

(٤) سفينة البحار، القمّي ١: ٣٥٦.

٤ـ إن من يريد أن يقضي حياته بشرف، وأن يصون نفسه عن الضعة وذل الحاجة، وأن لا يكون في تكسّب معاشه ومعاش عياله عالة على عاتق أحد، لا بدَّ له من أن يتحمَّل عناء العمل وتعبه، وأن يسعى سعيه للحصول على رزقه، وأن يحافظ على رأسماله الثمين، دينه وشرفه، بالاستغناء عن الناس.

لقد وصف أئمة الإسلام السعي من أجل المعاش بأنّه من جملة التكاليف الممدوحة، وعدُّوه من بين العبادات، وحثُّوا أصحابهم على القيام بهذا العمل المقدَّس، وقالوا إن قيمة العمل المعنوية لضمان الحياة وإمرار المعاش مثل الجهاد في سبيل الله.

عن أبي الحسن موسى بن جعفر(ع)، قال: «*مَنْ طَلَبَ الرِّزْقَ مِنْ حِلِّهِ لِيَعُودَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وعِيالِهِ كانَ كالمجاهِدِ في سبيلِ اللهِ*»[٥].

٥ـ إن الشعوب والأقوام التي تريد حقّاً الاستقلال والحرية، وتسعى لكي تنعم بخصائص الحياة الإنسانية، ليس بإمكانها أن تتكلَّف اللّا أباليّة في قبال الحكومات المستبدة الظالمة، فلا بدَّ لها من أن تناضل من أجل التحرّر من الاستعباد والأسر، إذ إن الحياة الحرَّة الكريمة لا ينالها الإنسان من دون سعي حثيث وتحمُّل المشاق والمصائب.

إنَّ الأحرار الذين يستهدفون إعلاء كلمة الحقّ والعدل، لا يخشون الصعاب والمشكلات في سبيل القضاء على الظلم والجَور، بل يتحمَّلون الآلام والشدائد، ويتقبّلون المشاق على ما فيها من تكلّف، ويتقدّمون بعزم راسخ وخطوات ثابتة نحو الهدف النهائي.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ جَعَلَ الحَقَّ مَطْلَبَهُ لانَ لَهُ الشَّديدُ وقَرُبَ عليهِ البَعيدُ*»[٦].

كانت هذه نماذج من التكلّف الممدوح الذي يسعى فيها الإنسان، بتحمّل

---

(٥) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب التّجارة: ١٠٠.

(٦) فهرست الغرر: ٧٦.

المشقة والنصب، إلى طيٍّ مراحل من طريق الكمال لينال ذلك الرشد الذي يليق بمقام الإنسان. فالتكلّف الممدوح يرتضيه العقل والدين كلاهما، وإذا كان هذا التكلّف قد جرى بخلوص نيّة وطهارة ضمير، شملته العناية الإلٰهيّة، وكان له خير الجزاء في يوم الجزاء من الباري تعالى. وقد ضمّن الإمام السجّاد(ع) هذا المعنى في دعاء له، حيث طلب إلى الله تعالى أن يُعينه على ذلك:

«...ولا نَتَكَلَّفُ إلّا مَا يُدْني مِنْ ثَوابِكَ»[٧].

المكابدة في الحياة الإنسانية أمر حتمي لا مناص منه، لأن خالق الكون وضع، بقضائه الحكيم، نظام الخلق على أساس من التباين والتّضادّ، فكان بنو البشر فوق الأرض، بصرف النظر عن عناصرهم وأديانهم، يواجهون الموانع الطبيعية، والمشكلات الاجتماعية، والميول الباطنية المتضاربة، التي لا بدَّ لهم من الصراع معها ومحاربتها، فتنقضي أعمارهم بضروب من العذاب والمشقة. ولقد جاء كل هذا في آية قصيرة من آيات القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَدٍ...﴾[٨].

التكليف والتكلّف من جذر لغوي واحد، وكلاهما يعنيان العناء والمكابدة. فالناس، بمختلف طبقاتهم، مكلّفون، دينياً أو علمياً، أو أخلاقياً، أو قانونياً، أو غير ذلك من الفروض الطبيعية والاجتماعية، بالقيام بمختلف الواجبات مع تحمّل ما في ذلك من المشقة والعناء. والمؤمن الذي يرغب أن ينال السموّ المعنوي والروحي، لا بدَّ له من أن يقوم بالتكاليف الدينية، ويؤدّي الفرائض الإلٰهيّة، ويتحمّل ما فيها من تعب ونصب. وطالب العلم الذي يبتغي بلوغ مرتبة الكمال العلمي، عليه أن يدرس المناهج الدراسية، ويكيِّف نفسه مع مشكلات الدراسة العلمية الثقيلة، ويتقبَّل ما يلاقيه في سبيل ذلك من عنت وإرهاق. والمجتمع الذي يسعى لنيل السعادة والرفاه، لا بدَّ

---

(٧) الصحيفة السجّادية، الدعاء: ٤٤.

(٨) البلد: ٤.

لأفراده من أن يكونوا ممن يشعرون بالمسؤولية وينفّذون التكاليف التي يلقيها المجتمع على عواتقهم، ويتحمّلون الضغوط القانونية والتزام التعاليم الأخلاقية، ويتغاضون عن ميولهم ورغباتهم الخاصة غير المشروعة.

وهكذا نجد أن أداء التكاليف يعني التكلّف وتحمل المشاق، وأن المكلَّف الذي يريد تنفيذ ما كُلِّف به، لا بدَّ له من أن يتحمّل ما يستوجبه ذلك من عناء وتكلُّف.

إن ما ينبغي قوله هنا هو أن التكلّف الممدوح في العبادات، وكذلك التكلّفات العلمية والاقتصادية والاجتماعية، هي تلك التكلّفات الناجمة عن طبيعة التكليف نفسه، ولا تتجاوز حدودها، إذ إن التكلّف المفرط ليس مطلوباً في الشارع المقدَّس، ولا يطلب إلى الناس تحمّله، وهذا ما سوف نوضّحه فيما يلي.

صيام شهر رمضان من الفرائض الدينية، كما نعلم، ونعلم أيضاً أن التكلّف وتحمّل المشقة من طبيعة هذه الفريضة. والمسلمون مكلَّفون بأن يتحمّلوا هذا التكلّف في إطاعتهم أمر الله تعالى. ولكن لمّا كان الصيام للمسافر وللمريض مشقة أكبر من طبيعة التكلّف، فإن فارض هذه الفريضة قد أعفى المسافرين والمرضى من أداء ذلك التكليف، واكتفى منهم بأداء القضاء.

﴿..فَمَنْ شَهِدَ منكُمُ الشهْرَ فلْيَصُمْهُ ومنْ كانَ مَريضاً أو عَلى سَفَرٍ فعِدَّةٌ منْ أيّامٍ أُخَرَ يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولاَ يُريدُ بكُمُ العُسْرَ﴾[٩].

العبادات المستحبة مطلوبة في الإسلام بشرط أن تؤدّى بلطف ورغبة ونشاط فإذا شابها شيء من التكلّف والمشقة مما يسبب فقدان الرغبة في الدين، فإنّها فضلاً عن كونها تنقلب إلى أمر غير ممدوح من الناحية المعنوية، فإن أئمة المسلمين، في كثير من أخبارهم ورواياتهم، قد نهوا أصحابهم عن القيام بالعبادات المملّة على كراهة.

عن أبي عبد الله الصادق(ع)، أنّه قال: *«لَا تُكْرِّهُوا إلى أنفُسِكُم العِبادَةَ»*[١٠].

---

(٩) البَقرة: ١٨٥.

(١٠) الكافي، الكليني ٢: ٨٦.

بعض المسلمين الذين لم يتعرّفوا على الدِّين، ولا علم لهم بالتعاليم الإسلامية، ويفرّطون في القيام بالمستحبّات، يكلّفون أنفسهم فوق طاقتها، ويضحّون بالكيفية على مذبح الكمية. هذه الفئة التي تظن أن إفراطها في أعمالها مما يرضى عنه الله وممدوح في الشرع المقدّس، يسعون إلى حمل أبنائهم أو معارفهم وأصحابهم على أن يحذوا حذوهم، ظانين أنَّ هذا مما يقوّي الإيمان ويزيد تمسُّك المرء بالإسلام، غافلين عن أن هذا السلوك يؤدّي إلى العكس من ذلك، فيزهّد الناس في العبادة، ويحملهم على إساءة الظنّ بدين الله.

يُنقل عن الإمام الصادق(ع) أنّه قصَّ على أصحابه الحكاية التالية: كان لمسلم صديق غير مسلم يسكن في جواره، وكان لا يفتأ يحدّثه عن دين الإسلام الإلهي، ويرغّبه في اعتناق الإسلام، حتى استجاب له جاره غير المسلم واعتنق الإسلام. فما كان من المسلم، في اليوم التالي، إلّاأن نهض عند طلوع الفجر وطرق باب صاحبه الحديث الإسلام، وأيقظه من نومه، واصطحبه معه إلى المسجد لأداء صلاة الصبح جماعة. انتهت الصّلاة، وتفرّق الناس تدريجياً، فاقترح المسلم على صاحبه الحديث الإسلام أن يبقيا في المسجد يذكران الله حتى طلوع الشّمس. وطلعت الشمس، فاقترح عليه أن ينويا الصوم لذلك اليوم ويبقيا في المسجد حتى الظهر ليعلّمه القرآن. وحان الظهر فصليا الظهر، ومن ثم صليا العصر، جماعة. وإذ همَّ الجار بالخروج من المسجد اقترح عليه صاحبه أن من الأفضل له أن يبقى في المسجد حتى أداء صلاتي المغرب والعشاء، ومن ثم يذهب إلى بيته. صليا المغرب والعشاء، وقام الجار الحديث الإسلام، متعباً وقد فقد صبره، فيمّم شطر بيته مع جاره المسلم. وفي فجر اليوم التالي نهض الجار المسلم عازماً على تكرار برنامج اليوم السابق، فجاء يطرق باب جاره ليصحبه إلى المسجد فخرج إليه الرجل وقال له: اتركني وشأني، أن دينك هذا صعب لا طاقة لي به[١١]!!

---

(١١) بتلخيص عن الوسائل كتاب الأمر بالمعروف، باب استحباب الرفق بالمؤمنين.

عن أبي جعفر الباقر(ع)، أنّه قال: *«إنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ فأوْغِلُوا فيهِ برِفْقٍ وَلا تُكَرِّهُوا عبادَةَ اللهِ إلى عبادِ اللهِ»*(١٢).

إن اكتساب العلوم، مثل الواجبات العبادية يستوجب التكلّف والعناء، ويبعث على التعب والنصب. إن الذين يحبون اكتساب العلم ويريدون ارتقاء مدارجه، لا بدَّ لهم من أن يتحمّلوا ما في طبيعة البرامج الدراسية من مشاق وتكلف. ولكن عليهم أن لا يبالغوا في ذلك بإفراط، وأن لا يتجاوزوا الحدود الطبيعية لتلك المشاق، وأن لا يضغطوا أكثر مما ينبغي على أدمغتهم، إذ إن الدماغ المتعب يفقد قدرته على الاستيعاب وتقبُّل المعلومات، وعندئذٍ لا يستطيع الطالب أن يستفيد من مطالعاته ودراساته. بل إن لذلك تأثيرات سيّئة في الجسم تؤدّي في النهاية إلى ضعفه ووهنه.

تأثيرات تعب الدماغ

«بقي موضوع التعب زمناً يؤلّف فصلًا في مباحث التربية البدنية، حيث كان الإهتمام موجّهاً أكثر إلى وظائف العضلات بصفتها العامل الأصلي، ولكونها قد عرفت خيراً من غيرها خلال صراع الإنسان مع الطبيعة. ولكن العوامل النفسية اخذت تُلفت الانتباه شيئاً فشيئاً، إلى جانب عامل التعب العضلي، بعد أن عُرف أن التعب يؤثّر في وظائف الجسم كله، بما فيه الدماغ والنفس. من المعلوم أن تقلّص العضلات وانبساطها لا يتمّان إلاّ بأوامر الأعصاب الانعكاسية، أو بفعل إرادي من الدماغ. وعليه، فإن لتعب الأعصاب تأثيراً كبيراً في تعب العضلات، والعكس صحيح أيضاً.

أصبح معروفاً اليوم أن النشاط الجسمي ليس وحده سبب التعب، بل إن التعب العصبي الناجم عن الإفراط في الفعاليات الذهنية، حتى من دون أيّ تعب جسمي، يؤدّي إلى إنهاك مماثل. هذه الحالة يمكن ملاحظتها بوضوح عند الطلاب أيام الامتحانات. يظهر هذا التعب الفكري نتيجة لكل أنواع

---

(١٢) الكافي، الكليني ٢: ٨٦.

الأعمال العصبية، كالشعور بالمسؤولية، والصدمات الروحية، والاهتمام الشديد؛ والتدقيق المفرط. إن إنجاز بعض الأعمال الدقيقة لا يتطلب جهداً عضلياً كبيراً، بل يحتاج إلى التنسيق الدقيق، مما يولّد خفقان القلب والاضطراب الروحي، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى التعب والإنهاك»[١٣].

«إن تعب خلية من خلايا الجسم، على وجه العموم، لا ينجم عن نوع نشاطها وحده، بل يرتبط بذلك أيضاً مدى قدرة الجسم على توفير ما تحتاجه تلك الخلية. إن ازدياد ما تأخذه الخلية النشطة من الدم، وازدياد ما تفرزه من الفضلات، يولّدان تغييراً في محيطها الداخلي، مما يجعل ذلك المحيط غير ملائم للخلايا الأخرى، وهذا ما يتسبّب عنه التزاحم فيما بين الأجهزة التنظيمية. فعندما تتعب خلية من الخلايا وتتسمّم، تتعب الخلايا الأخرى وتسمّم أيضاً، وينتشر تعب عنصر واحد فيعم الجسم كله»[١٤].

إن الفارس الذي يريد أن يقطع طريقاً طويلاً لا يشعر بتعب غير عادي، لا هو ولا فرسه، فيما إذا لم تزد سرعته عن المألوف وقطع كل يوم مرحلة واحدة، وباستراحته في الليل يزيل تعب نهاره، وينهض في اليوم التالي موفور النشاط، ويواصل مسيرته العادية. أما إذا ألح على فرسه في أن يقطع بعناء ومشقة مرحلتين في اليوم الواحد، فإنّه لا يمضي عليه وعلى فرسه طويل وقت حتى ينهكهما التعب ويصيبهما الضعف، وقد لا يستطيعان مواصلة السفر على تلك الشاكلة، فتكون النتيجة أنّه، بسبب من هذا الإفراط، يعجز عن بلوغ مقصده، ويفقد فرساً كان يمكن أن يوصله إلى حيث يريد.

والإنسان في الحياة أشبه بهذا الفارس، عليه أن يطوي مراحل الحياة خلال سنوات عمره بما وهبه الله تعالى من القوى والأعضاء. فإن هو استعملها بقدر وبحساب صحيح، طوى طريق الحياة، حتى نهاية العمر، بسلام. أمّا إذا مال نحو

---

(١٣) سلسلة ماذا أعلم، كيف نتغلب على التعب: ١٦.

(١٤) سلسلة ماذا أعلم، كيف نتغلب على التعب: ١٦.

الإفراط والإسراف، فإنّه سوف يقصر عن بلوغ النهاية الطبيعية لعمره، ويتوقّف في منتصف طريق الحياة بسبب الإنهاك والتعب. وقد جاء هذا التشبيه في حديث لرسول الله(ص) بشأن المتكلّفين المفرطين، فقال: «...*فَتَكُونُوا كَالرّاكِبِ الْمُنْبَتِّ الذي لا سَفَراً قَطَعَ وَلا ظَهْراً أَبْقى*»[١٥].

كذلك الحال مع النشاط الاقتصادي والسعي من أجل المعاش، فهو، مثل التكلف للعبادة وللعلم، يستلزم تحمّل المشقة والجهد. فالذي يريد أن ينال رزقه بالطرق المشروعة وأن يقضي حياته عزيزاً كريمًا، لا بدَّ له من أن يتحمّل عناء المجاهدة، وأن يكيِّف نفسه مع ما تتطلّبه طبيعة التكسُّب والعمل من الصعاب والمشاق، ولكن عليه أن يحذر الإسراف في بذل الجهد والإفراط في العمل، فلا يجعل من نفسه عبداً للمال بالطمع والجشع، وأن لا يتكلَّف ما لا يصح من أعمال مؤلمة ومتعبة.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*الحِرْصُ مَطِيَّةُ التَّعَبِ*»[١٦].

وبناءً على ذلك، فإن الأعمال المصحوبة بالتكلّف والعناء والتي ترمي إلى تزكية النفس، وتعديل الغرائز، وأداء الفرائض الدينية، واكتساب العلم، وكسب المعاش، وغير ذلك من الأعمال اللّازمة لإدامة الحياة، ممدوحة عقلًا وشرعاً، بشرط أن لا تتجاوز حدود الاعتدال إلى حيث الإسراف والإفراط.

أما التكلّف المذموم فهي الأعمال التي يتكلّفها الإنسان ويعاني بسببها المشقة والتعب، مدفوعاً بالأهواء النفسية، وحبّ الذّات، أو بالرياء والتظاهر، أو بسبب الجهل. فهذه كلها أعمال مذمومة في الأخلاق الإسلامية. وهذا النوع من التكلّف يسوق الإنسان نحو الانحطاط والضعة، وقد يؤدي به إلى السقوط والهلاك. وقد جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث الإسلامية أن القادة الإلَهيِّين الأطهار المتّقين منزَّهون عن ذلك.

---

(١٥) الكافي، الكليني ٢: ٨٦.

(١٦) فهرست الغرر: ٦٠.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عليْهِ منْ أجْرٍ ومَا أنَا منَ الُمتكَلِّفِينَ﴾[١٧].

وعن النبي (ص)، أنه قال: «نَحنُ مَعاشِرُ الأنبياء والأولياء بَراءٌ من التَّكَلُّف»[١٨]

وعنه (ص)، أيضاً: «أنَا وأتْقِياءُ أُمَّتي بَراءٌ منَ التَّكَلُّف»[١٩].

عن أبي عبدالله الصادق (ع)، أنّه قال: «الُمتَكَلِّفُ ظاهِرُهُ رياءٌ وباطِنُهُ نِفاقٌ، فهمَا جَناحانِ يطيرُ بِهمَا الُمتَكَلِّفُ ولَيْسَ في الُجمْلَةِ منْ أخلاقِ الصَّالحِين ولَا منْ شعارِ الُمتَّقين»[٢٠].

الإنسـان بطبيعتـه وفـطرتـه يميل إلى الدعة والراحة في جسمه وباله، ولا يستطيب تكلّف الأعمال الثقيلة التي تتطلب الجهد والتعب، إلّا إذا دفعه إلى ذلك دافع أقوى مما يميل إليه، أو إلّا إذا استيقظ في باطنه ميل أقوى وأنفد أمراً، يحمله على تقبّل الثقيل المتعب من الأعمال، فتراه غض الطرف عن الراحة ويطرد رغبته في الإخلاد إلى الدعة، ويُقبل على القيام بما يتطلب تحمّل العناء والمشقة والتكلّف. فإذا كان البـاعث على تلك الرغبة القوية هو العقل، ونداء الضمير، والميول الإنسانية الرفيعة، أو الغرائز المعدلة تحت حكم العقل، فإن ما يتكلّفه المرء في هذه الحالة يكون ممدوحاً. أما إذا كان الباعث على تلك الرغبة الشديدة هو الأهواء النفسية، وحبّ الذّات والغرائز المنطلقة المندفعة، فإن ما يتكلّفه المرء من جرّاء ذلك يكون مذموماً ويصيب الإنسان بالخسائر المادية والمعنوية.

في دخيلة الإنسان غرائز متعددة لو أثيرت لحملتالإنسان على القيام بأشقّ الأعمال وأصعبها. إلّا أنّ قدرة هذه الغرائز على تحريك الإنسان ليست متساوية، فمنها ما هي قوية جداً وأقـدر على تحريك الإنسان. يرى بعض العلماء أن غريزة حبّ

---

(١٧) ص: ٨٦.

(١٨) سفينة البحار، القمّي: ٤٩٠.

(١٩) المفردات، الأصفهاني، مادة «كلف».

(٢٠) سفينة البحار، القمّي: ٤٩٠.

التسلّط أقوى من سائر الغرائز، حتى أنهم يعتقدون أن بعض الغرائز الأخرى إنما تنشط بدافع من هذه الغريزة، وما هيجانها المفرط إلّا لإشباع هذه الغريزة.

«يقول (راسل): إن أهمَّ غرائز الإنسان ومطلوباته اللّا متناهية غريزتان: الأولى حبّ التسلط، والثانية الفخر. وهاتان الغريزتان، برغم ترابطهما، ليستا على مستوٍ واحد. وقد يمكن أن يقال ـ من حيث المبدأ ـ إن طريق الفخر هو نيل السلطة، وهـذا يصـدق على وجه الخصوص في الأشخاص النشطين في الميدان الاجتماعي. حبّ التفاخر يدفع الإنسان إلى القيام بأعمال يتطلّبها حبّ التسلط، كما أن هذين الاتجاهين يمكن في كثير من الأحيان أن يبرزا منفصلين بعضاً عن بعض.

إن الاقتصاديين المتعصبين وأتباعهم قد أخطأوا عندما تصوروا أنَّ المحرك الرئيس في المجتمع هو الحالة الاقتصادية. إن حب المال، إذ أُخذ بمعزل عن حبّ السلطة والتفاخر، لا يكون إلّا دافعاً ضعيفاً، ويمكن قمعه بسهولة. إن الرغبات الباهظة عند الإنسان ليست دائمًا هي التي تطلب الرفاه في الحياة، ولـذلك فهي ليست وليدة حبّ المال. فمثلاً، الرغبة في إنشاء متحف فردي خاص لآثار كبار الفنّانين وصرف الأموال الطائلة لاقتنائها، لا دافع لها سوى كسب الشهرة والسلطة والتفاخر، ولا يمكن القول إنّه قد أُقيم للكسب المادي.

عندما يتحقق الرفاه إلى حد معتدل في مجتمع ما، فإن الأفراد، بدلاً من اكتناز الثروة وتكديس الأموال، ينصرفون إلى محاولة بلوغ السلطة بحيث إن الإثراء نفسه يُستخدم لهذا الهدف وقد يتنازل المرء عن حب المال في سبيل الحصـول على السلطة، وفي كل هذه الحـالات نجد أن الاقتصاد ليس هو السبب الرئيسي فيها، بل إن ظواهر نفسية،كحب السلطة، تشكّل الباعث الأساسي عليها.

إن الخطأ الذي ارتكبه الاقتصاديون المتعصّبون، بما فيهم أتباع ماركس، بهذا الخصوص، ليس مجرد خطأ نظري، بل لقد كانت له أضرار عملية كثيرة،

وعلى الأخص في الوقت الحاضر، حيث تسبّب في كثير من سوء الفهم. إننا بإدراك كنه حب السلطة، بصفته العامل الأساسي وراء أهم الفعاليات الاجتماعية، يمكن أن نفسّر التغييرات التي طرأت على تاريخ البشر منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر»[٢١].

إن السلطة التي يطلبها الإنسان ليست معيّنة الشكل والوصف، وطلّاب السلطة يسعون إلى إشباع هذه الغريزة بمختلف الصور، حسبما تتراءى لبُنيتهم الطبيعية، وفي الظروف الزمانية والمكانية. وبتعبير آخر، مثلما أن الطاقة الطبيعية ذات أنواع مختلفة وصور شتّى، ولكنها جميعاً تُوصف بأنها «طاقة»، كذلك هي السلطة الاجتماعية، إذ إن لها أيضاً أشكالاً متنوعة، ولكنها جميعاً شكل من أشكال «السلطة».

فالذين يحبُّون الترأس والرئاسة يدفعهم هذا الحب إلى طلب المقام، ولكي يكونوا مطاعين ومتَّبعين في المجتمع، يتكلّفون أعمالاً مضنية متعبة، ويتوسّلون بكل وسيلة للوصول إلى سُدَّة الحكم، ليشبعوا بذلك غريزة حبّ التسلط والتفوّق. يسعى طالبو الجاه، بدافع من حب السلطة، إلى أن يكونوا محبوبين وذوي نفوذ معنوي في الناس، ولكي يتحكّموا في قلوبهم لا يتورعون عن النفاق والرياء والتلوّن، فيتحمّلون الكثير من العناء والتصنّع والمراءاة لتحقيق رغبتهم في الحصول على السلطة والحكم. أما الذين يحبون المظاهر، أو الثروة، أو البطولات وأشباههم، فإنّهم يطلبون، في الحقيقة، التسلّط والتفاخر، دروا بذلك أم لم يدروا. هؤلاء كذلك يتكلَّفون أعمالاً شاقة وثقيلة بهدف الوصول إلى غاياتهم من إشباع غريزة حبّ السلطة والتفاخر.

لا بدَّ من الإشارة إلى أنّ الذين يحبُّون السلطة بإفراط فئتان: فئة خُلقت وفي طبيعتها الميل إلى القيادة والسلطة، فتجري وراءهما بمعزل عن الأمور الأخرى، وتتوسّل بمختلف الوسائل والحالات لتُمهّد لنفسها، سبيل السلطة والتفوّق، فتصل إلى ما تريد بالسعي الحثيث وتكلّف الصعاب.

---

(٢١) كتاب القدرة: ٢٤.

أما أفراد الفئة الأخرى التي من طبيعتها تلقّي الأوامر وإطاعتها، فينضمّون إلى ذوي النفوذ والسلطة، فيُدخلون السرور على نفوسهم بمساعدتهم على إشباع رغبة التسلّط فيهم، ومن ثمَّ يصلون هم أيضاً إلى بعض السلطة في ظل أُولئك. وهكذا تصل هاتان الفئتان إلى السلطة، بفارق أن فئة سلطتها أصيلة ومستقلة، والسلطة الأخرى فرعية وتابعة، فللأولى دور القائد، وللثانية دور المقود.

«يتكلّم (إدلر)، في كتابه الشهير (معرفة الطبيعة البشرية) عن طبيعة الإنسان، ويضرب مثلين متمايزين، الأول للطبيعة الآمرة، والآخر للطبيعة المأمورة، فيقول: ذو الطبيعة الخادمة هو ذلك الذي يميل دائمًا إلى أن يكون مطيعاً منقاداً (للسيد)، ولذلك فهو في كل الأحوال يبحث عن عمل يتّفق وطبيعته الداخلية. وعلى العكس من ذلك هو ذلك الذي يملك طبيعة (آمرة) ويكون دائمًا في ثورة وحماس لكي تنتصر طبيعته، ويبرز في الظروف التي تساعد على ظهور القادة، ويسعى إلى أن يلعب دور القائد في الثورات والاضطرابات.

ينتقد هذا العالم كلا المثالين بوصفهما من ذوي الطبائع (غير المطلوبة)، ويعتقد بأن طبيعتيّ هذين القطبين المتطرّفين طبيعة شاذة ولها ميول اجتماعية غير متعارف عليها»[٢٢].

ولمعرفة التكلّف المذموم للحصول إلى السلطة المفرطة معرفة أوسع نستطرد في الكلام عليه في هذا الفصل، ذاكرين نتائجه الفردية والاجتماعية الضارَّة، كما سنشير، في الوقت نفسه، إلى بعض الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن.

الرئاسة: لا شكَّ أن الرئاسة والإمساك بزمام الأمور من أجل إدارة الشؤون المادية والمعنوية للبلاد وللأمم، وكذلك القيادة، والإدارة، والتخطيط، وأُسلوب عمل المؤسسات الاجتماعية، أُمور ضرورية وهي ركن أساسي من أركان النجاح، ولا نجاح بدونها. وهذا ما ينقله الفضل بن شاذان عن الإمام علي بن موسى الرضا(ع):

---

(٢٢) كتاب القدرة: ٣٨.

«إنّا لَا نجِدُ فرقَةً مِنَ الفِرَقِ، ولَا مِلَّةً منَ المِلَلِ، بَقُوا وعاشُوا إلّا بِقَيِّمٍ ورئيسٍ لِما لَا بُدَّ لَهم منْهُ في أمْرِ الدِّينِ والدُّنيَا» (٢٣).

إن للرئاسة الصحيحة المفيدة، التي تحيي الأمم، وتُبقي على المجتمعات، وتسيرُ شؤونها على خير وجه، شرطين اثنين:

الأول: هو أن يكون الرئيس الذي بيده زمام الأمور ممن لهم الصلاحية العلمية والمعرفة اللازمة، لكي يستطيع أن يدير شؤون منطقة رئاسته بجدارة، وأن يحقق المسؤولية التي تقبَّلها على عاتقه على خير وجه.

الثاني: أن يكون ذا رشد معنوي وصلاحية أخلاقية لكيلا يُسيء استغلال مركزه، ولا يصرف طاقاته في ما لا ينبغي من الأمور، ولا في ما هو خلاف المصلحة العامة، ولا يكون سبباً في تعاسة نفسه والناس الذين يقعون تحت سلطته.

كثيراً ما يقوم طالبو السلطة المتطرّفون بالتكلّف والتصنّع والتظاهر بأنهم جديرون وقديرون، في سبيل أن يحققوا رغبتهم ويُشبعوا حبّهم للمقام والسلطان، من دون أن تكون لهم بالفعل الصلاحية العلمية لارتقاء كرسي الرئاسة. أمثال هؤلاء الأشخاص، بما يقومون به من أعمال غير مشروعة، إنما هم من جهة يظلمون أنفسهم ومجتمعهم ولا يوجّهون أنفسهم نحو ما يناسبهم من أعمال مثمرة تنفع المجتمع، وهم من جهة أخرى يعتدون على حقوق الذين هم أجدر منهم بتسنم ذلك المقام والمركز، فيضيّعون حقّ الذي يكون تحت سلطتهم ورئاستهم. إن الإسلام، في الوقت الذي يحرِّم الرئاسة المتكلّفة لغير الصالحين وغير اللّائقين من الناس، يتجاوز ذلك إلى منع هؤلاء حتى من التفكير في مثل هذه الرئاسة.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«مَلْعُونٌ منْ تَرَأَّسَ، ملْعُونٌ منْ هَمَّ بها، ملْعُونٌ منْ حدَّثَ نفْسَهُ بها»* (٢٤).

---

(٢٣) بحار الأنوار، المجلسي ٣: ١٠٩.

(٢٤) الكافي، الكليني ٢: ٢٩٨.

الصلاحية الأخلاقية، كالصلاحية العلمية، ركن أساسي من أركان القيادة الصحيحة والإدارة النافعة. فالذين لهم الصلاحية العلمية للرئاسة ولكنهم لا يتمتّعون بسلامة الفكر، ومصابون ببعض الأمراض الأخلاقية، مثل حبّ الذّات، والتكبّر، والحسد، وحبّ الانتقام، وسوء الظنّ، والتلوّن، وخلق الفتنة، والكَذِب، فإن رئاستهم تكون ذات تكلّف ومشقة. فإذا قام هؤلاء على رأس بلد، أو وزارة، أو إدارة، أو مدرسة، أو معمل، أو شركة كبيرة، ونالوا شيئاً من السلطة، فلربما انحرفوا، وأجروا سلطة الرئاسة في مجار غير مشروعة، وأخلّوا بانتظام المجتمع وراحته، وأقلقوا الموظّفين والعاملين، مما يجلب أضراراً مادية ومعنوية مختلفة لا يمكن جبرها.

«أخطر أعضاء المجتمع هم الذين يملكون سلطة كاملة ونفوذاً تامّاً، إلّا أنّهم يحملون أفكار الصبيان وأخلاقهم. فإذا قام هؤلاء، كالصبيان، بهجوم متّسم بالهيجان والعصبية وضعف التدبير، ارتكبوا الجرائم والجنايات الفظيعة.

في الإجابة عن السؤال القائل: لماذا نرى أعمال الإنسان مشتّتة هذا التشتّت المخيف؟ قال أحد العلماء: عندما ندرس تاريخ الإنسان نلاحظ أنّه قلّما كان الشخص الرشيد، الكامل، اللائق والمستقيم هو الذي يتسنّم المركز المهم»[٢٥].

ابن الهيثم، من أشهر علماء القرن الرابع الهجري، أختصَّ بالهندسة والرياضيات، وكان له إلمام بالعلوم العقلية والفلسفية وقد خلّف مؤلفات ورسائل عديدة. كان يعيش في البصرة، ولكن صدى شهرته كان قد عمَّ الأرجاء، وكان حديث المحافل العلمية في كل مكان.

كان حاكم مصر يومئذٍ رجلاً متعلّماً ومحبّاً للعلوم، وكان يودّ لو يجتمع بابن الهيثم عن قرب ليستفيد من علمه. ولكنه لم يوفّق لذلك. سمع يوماً أن ابن الهيثم قال: لو كنت في مصر لبنيت سداً على النيل لمنع إضراره بالناس عند طغيانه ونقصانه. ففرح

---

(٢٥) العقل الكامل: ٤٤.

حاكم مصر بذلك وازداد تلهفاً على رؤية ابن الهيثم، فأرسل له سراً مصاريف سفره ورغب إليه أن يسافر إلى مصر.

رحل ابن الهيثم من البصرة إلى مصر، وعند وصوله استقبله الحاكم من خارج المدينة، وأنزله بكل احترام في الدار التي خصَّصها لسكناه. وبعد بضعة أيام من الاستراحة من وعثاء السفر، جاء الحاكم لزيارته وذكَّره بوعده ببناء سدّ على نهر النيل، فأعرب ابن الهيثم عن استعداده للوفاء بوعده. فتقرَّر يوم معيّن للسفر إلى (أسوان) حيث توجد منطقة شلال مرتفع تصلح لإقامة السد فيها.

وحلّ اليوم الموعود، وتوجّه ابن الهيثم مع الحاكم وعدد من المعمارين والعمّال المهرة، وجعلوا طريقهم على الأهرامات العجيبة والآثار العظيمة التي شيّدها المصريون القدامى وفق حسابات هندسية دقيقة، لكي يشهدها ابن الهيثم، الذي بهت لما رآه من الأعمال المدهشة الرائعة، فاستقلَّ علمه وضعف أمله في استطاعته بناء سد على النيل، إذ لو كان هذا ممكناً عملياً لما توانى عنه العلماء والمهندسون المصريون في قديم الزمان. وعند وصولهم إلى حيث شلال الماء في النيل، راح ابن الهيثم يتفقّد جوانب النيل وسواحله، ثم اعترف بعجزه عن بناء السدّ، واعتذر عن الوعد الذي قطعه، وعاد مع الآخرين إلى القاهرة.

رأى حاكم مصر أن لا يُفلت فرصة وجود هذا العالم الكبير في بلده، فطلب إليه أن يبقى في مصر ليعمل عنده في ديوان المكاتيب. ولكن ابن الهيثم ـ الذي كان قد عرف طراز تفكير حاكم مصر ونفسيته ـ أصابه القلق لهذا الطلب، لأنّه عرف في هذا الحاكم إنساناً حاد الطبع، سيّىء الأخلاق، متلوّناً، فظّاً، يحب إراقة الدماء، يغضب لأدنى حدث، ويُصدر أمره لأتفه سبب بقتل الناس الأبرياء. بديهي أن تكون الحياة مع مثل هذا الشخص محفوفة بالخطر المحتّم، ولكنّه، لخوفه، اضطر إلى إجابة الحاكم إلى ما يريد، فاستوطن مصر، وعمل في ديوان مكاتيب الحاكم.

مضت فترة على هذا المنوال، حيث كان ابن الهيثم يحضر في مقرّ عمله كل يوم، ولكن لم يفارقه القلق والخوف، ولم يغفل عن التفكير في طريقة ينجو بها بنفسه ويتحرَّر

من هذا الهمّ الدائم. وأخيراً واتته الحيلة فتظاهر بالجنون. وإذ وصل خبر جنونه إلى الحاكم أمر بحجره في بيته، ووضع عليه من يُعنى به، وعهد بأمواله وأثاثه، باسمه، إلى من يُوثق بهم. وظلّ ابن الهيثم في التظاهر بالجنون إلى أن مات الحاكم. وبعد أيام من موتـه استعـاد ابن الهيثم عقله وترك داره واختار سكناً بالقرب من الجامع الأزهر، واستعاد أمواله، وانصرف مطمئن البال إلى التأليف والتصنيف. ولما كان ذا خط جميل، فقد انهمك في استنساخ بعض الكتب العلمية يبيعها لإمرار معاشه[٢٦].

حاكم مصر هذا لم يكن إنساناً من عامة الناس جاهلاً، بل كان من أهل العلم والمعرفة مؤهّلاً للرئاسة وإدارة البلاد، ولكنّه كان يفتقر إلى سلامة التفكير وصلاح الأخلاق، وكان يستعمل سلطته في أُمور غير مشروعة، ولهذا عاش الناس تحت حكمه عرضة للخطر والإحساس بفقدان الأمن، بحيث إن عالماً مثل ابن الهيثم اضطر إلى التظاهر بالجنون للمحافظة على حياته والخلاص من شرّه.

وفي عصرنا الحاضر، وبعد تقدّم العلوم الطبيعية وتطور الصناعة الآلية، أصبح خطر أصحاب الأمر المستبدين الذين يحبون السلطة أضعاف ما كان عليه من قبل. فهتلر وموسوليني استطاعا، باستخدام قوة الآلة، أن يُشعلا نار الحرب العالمية الثانية، وأن يُغرقا العالم في حمامات الدم بسبب أفكارهما المريضة الخبيثة، فيدمّرا العالم، وينزلا الموت بملايين البشر في كل أرجاء العالم.

«يقول (راسل): على الرغم من أن صاعقة الآلهة الجدد في الحرب العالمية الأخيرة قد نزلت على روما وبرلين، دون أن يصيب شررها لندن وباريس، ولكن بعد كل تلك الكوارث الفاجعة هل يستطيع الإنسان أن يحيا حياة معتدلة متزنة؟ وهؤلاء الذين كانوا في البداية إنسانيِّين ويحبُّون البشرية، ألا ينقلبون، بسبب الضغوط النفسية، أشدَّ جنوناً من أُولئك الذين كانوا منذ البداية فاقدي الإحسـاس بالمشاعر الإنسانية؟ في العهود القديمة كان الإنسان يبيع نفسه

(٢٦) قاموس اللغة ١: ٣٦٣.

للشيطان لقاء الحصول على سلطة سحرية أما اليوم فإن ذلك السلطان السحري يأتي من سلطان العلم والصناعة، فتكون النتيجة أن يزداد في الإنسان نمو إحساسه بكونه شيطاناً.

لا يمكن، على أيّ حال، الاطمئنان إلى مصير الإنسان، إلّا إذا أمكن حلّ قضية السلطة في عالمنا اليوم، فيتم تعديل القدرات الموجودة، وتتوزع، وتصبح إنسانية، وديعة، معتدلة، ولا تكون في متناول أيدي فئات اجتماعية خاصة ولا في أيدي القادة المستبدين الظالمين المتعصّبين، بل يجب أن تخدم مصلحة أبناء البشرية برمّتهم، دون النظر إلى ألوانهم إن كانت بيضاً أو صفراً أو سوداً ولا أن تكون مقصورة على الفاشيّين أو الشيوعيّين أو الديمقراطيّين، إذ إن تقدّم العلوم والفنون العجيب في العصر الحاضر جعل قضية إما التعايش التامّ، وإما الفناء التامّ، أمراً لا مناص منه»[٢٧].

وعليه، فإنّ دافع حبّ الرئاسة والاستعلاء من جانب أشخاص ليست لديهم الصلاحية العلمية والأخلاقية هو حبّ السلطة المفرط. فلكي يُشبع هؤلاء رغبتهم، ويرووا عطشهم الداخلي بالوصول إلى كرسي الرئاسة، يعمدون إلى التكلّف المذموم، ويتحمّلون المشقة والعناء، وتكون النتيجة أنهم يسبّبون التعاسة والشقاء للناس. هؤلاء يرفضهم الإسلام في الدنيا، وفي الآخرة لا يكون هم نصيب من رحمة الله، ويقول القرآن الكريم فيهم:

﴿تلكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نجْعَلُها للَّذينَ لا يُريدُونَ عُلُوّاً في ٱلأرضِ ولاَ فَساداً وٱلعاقِبَةُ للمُتَّقينَ﴾[٢٨].

القضاء

في البلدان التي يحكم الناس فيها القانون، ويدار المجتمع بموجب الموازين

---

(٢٧) كتاب القدرة: ٧٠.

(٢٨) القصص: ٨٣.

والقرارات الموضوعة، يكون وجود القضاة للفصل في الخصومات وحلّ المنازعات أمراً ضرورياً ولا بدَّ منه. والذين يجلسون على كرسي القضاء كقضاة، ويأخذون على عواتقهم الحكم بين الناس، يكونون في مركز سلطة قاهرة، ويكون حكمهم مطاعاً نافذاً. هؤلاء، مثل سائر الأمراء القادة، يجب أن يكونوا من حيث العلم والأخلاق جديرين بهذا المقام الخطير، إذ إن القاضي إذاكان فاقداً للصلاحية العلمية لا يكون بمقدوره أن يحكم حكم العارف الواعي، ولا أن يُطابق بين الدعاوى والقوانين، ولا أن ينتزع حقوق أصحاب الحقّ من أيدي الذين اعتدوا عليها. وإذا كان فاقداً للصلاحية الأخلاقية، فقد موقفه الموثوق به، إذ قد يقع تحت تأثير الحب أو البغض أو التهديد أو الترغيب، فينحرف عن السبيل القويم، ويهمل تحمّل المسؤولية وطهارة الضمير، ويحكم بغير ما يحكم العدل والقانون.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*القُضَاةُ أربَعَةٌ، ثَلاثَةٌ في النَّارِ وواحِدٌ في الجَنَّةِ، رجُلٌ قَضى بجَوْرٍ وهُوَ يعْلَم، فهُوَ في النَّارِ. ورجُلٌ قَضى بجَوْرٍ وهُوَ لا يَعْلَمُ، فهوَ في النَّارِ. ورجُلٌ قَضى بالحَقِّ وهوَ لا يَعْلَمُ، فهُوَ في النَّارِ. ورجُلٌ قَضى بالحَقِّ وهوَ يعْلَمُ، فهوَ في الجَنَّةِ*»[٢٩].

يتبيّن من هذه الرواية بكل جلاء أن الجدير بالقضاء هو ذلك المتعلّم العالِم الذي يُصدر حكمه عن علم ودراية، وهو في الوقت نفسه يتّصف بالتقوى والعدالة لكيلا يلوّث نفسه بحكم جائر. أما الذين لهم علم من دون تقوى، أو الذين لهم تقوى من دون علم، أو الذين لا تقوى لهم ولا علم، فهم ليسوا جديرين بهذا المقام. فإذا تظاهروا بأنّهم جديرون به، وتكلّفوا ما تكلّفوا في سبيل الوصول إلى كرسي القضاء، فإن أحكامهم ستكون مدعاة للتعاسة، وسيكونون سبباً في شقاء أنفسهم وشقاء المجتمع الذي يقضون فيه.

صار المأمون إلى دمشق سنة ٢١٨...وكان بشر بن الوليد الكندي، قاضي

---

(٢٩) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب القضاء: ٣٩.

المأمون ببغداد، قد ضرب رجلاً قرف بأنّه شتم أبا بكر وعمر [قرفه بكذا: نسبه إليه وعابه به]، وأطافه على جمل. فلما قدم المأمون [من رحلة الشام وسمع بما فعل بشر] أحضر الفقهاء، فقال: إنّي نظرت في قضيتك يا بشر، فوجدتك قد أخطأت بهذا خمس عشرة خطيئة. ثم أقبل على الفقهاء، فقال: أفيكم من وقف على هذا؟ قالوا: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا بشر، بمَ أقمت الحدَّ على هذا الرجل؟

قال: بشتم أبي بكر وعمر. قال: حضرك خصومه؟ قال: لا! قال: فوكّلوك؟ قال: لا! قال: فللحاكم أن يقيم حدّ القرفة بغير حضور خصم؟ قال: لا! قال: وكنت تأمن أن يهبَ بعض القوم حصّته، فيبطل الحدّ؟ قال: لا! قال: فأمهما كافرتان أو مسلمتان؟ قال: بل كافرتان. قال: فيقام في الكافرة حدّ المسلمة؟ قال: لا! قال: فهبك فعلت هذا بما يجب لأبي بكر وعمر من الحقّ، أفيشهد عندك شاهدا عدل؟ قال: قد زُكيَّ أحدهما. قال: فيقام الحدّ بغير شاهدين عدلين؟ قال: لا! قال: ثم أقمت الحدّ رمضان، فالحدود تقام في شهر رمضان؟ قال: لا! قال: ثم جلدته وهو قائم، فالمحدود يقام؟ قال: لا! [قال:] ثم شبحته بين العقابين، فالمحدود يُشبح؟ قال: لا! قال: ثم جلدته عرياناً، فالمحدود يُعرّى؟ قال: لا! قال: ثمَّ حملته على جمل، فأطفته، فالمحدود يُطاف به؟ قال: لا! قال: ثم حبسته بعد أن أقمت عليه الحدّ، فالمحدود يُحبس بعد الحدّ؟ قال: لا! قال: لا يراني الله أبوء بإثمك، وأشاركك في جرمك. خذوا عنه ثيابه، وأحضروا المحدود ليأخذ حقّه منه. فقال له من حضر من الفقهاء: الحمد لله الذي جعلك عاملاً بحقوقه، عارفاً بأحكامه، تقول الحقّ، وتعمل به، وتأمر بالعدل، وتؤدِّب من رغب عنه، إن هذا، يا أمير المؤمنين، حاكم أجدَّ فأخطأ، فلا تفضح به الحكام، وتهتك به القضاء. فأمر به فحبس في داره حتى مات[٣٠].

كان قاضي بغداد منصوباً من جانب حكومة العامة، وكان واجبه أن يحكم استناداً إلى فتاوى علماء أهل السنة والجماعة، وأن يُصدر قراره وفقاً لقراراتها. ولكنه

---

(٣٠) تاريخ اليعقوبي ٣: ١٦٠.

نكص عن ذلك في هذه القضية، فأدان متّهمًا بالجرم من دون أن تثبت عليه التهمة بموجب القانون، وعاقبه. ثم إنّه، فضلاً عن ذلك، لم يلتزم القانون في أسلوب معاقبته، فارتكب بعض المخـالفات، فعدَّد له المأمون أخطاءه أمام الملأ، وأشار إلى مخالفاته للموازين الفقهية واحدة فواحدة، فأيده القاضي وصدّقه.

فهل كانت أخطاء القاضي ناجمة عن فقدانه الصلاحية العلمية وعدم إحاطته بجميع الفتـاوى، أو إن افتقـاره للعـدالة والتقوى وعدم اهتمامه بمبادىء الفضيلة والأخلاقية هو الذي أوجب تلك الأخطاء؟ فأيّاً ما كانت الحالة فإنّه لم يكن جديراً بالاضطلاع بمهمة القضاء، وكان قد تسنّم مقام القضاء دون حقّ، بل كان بالتصنّع والتظاهر قد أظهر نفسه لائقاً بهذا المقام، فسبّب التكلّف للناس والتعاسة للمجتمع، وأورد نفسه أيضاً موارد السقوط والهلاك.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«من أدّعى فيما لا يحلُّ له فتح عليه أبوابُ البَلوى»*[٣١].

اكتناز المال

النشاط الاقتصادي واكتساب المال لضمان معيشة المرء من ضرورات الحياة الشريفة. لقد حثّ أئمة المسلمين في أحاديثهم أصحابهم على السعي والعمل، وأنّهم، عند القدرة، لا يجوز لهم، حتى آخر أيام حياتهم، أن يتقاعسوا عن العمل بحيث يضمنوا رزق يومهم ذاك من هذا وذاك.

عن شهاب بن عبد ربه قال: قال لي أبو عبدالله الصادق(ع): *«إنْ ظَنَنْتَ أو بلغَكَ أنَّ هذَا الأمْرَ كائنٌ في غَدٍ فلَا تدعَنَّ طلبَ الرِّزقِ، وإنِ استطعْتَ أن لَا تكونَ كَلَّا فافْعَلْ»*[٣٢].

---

(٣١) بحار الأنوار، المجلسي ١٦: ١٥٦.

(٣٢) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب التّجارة: ١٠١.

الناس يحبُّون، قليلاً أو كثيراً، جمع المال، لأن الثروة وسيلة لرفاهية الحياة، وهـدوء البـال، وعزَّة النفس، والاستغناء عن الناس. ولكن الجشعين المتطرفين من الناس في اكتناز المال ليس غرضهم من جمع المال الرفاهية والاستغناء عن الناس، بل إنّهم، بوعي منهم أو بدون وعي، يخطون على طريق التفـوّق والاستعلاء، فهم بادخار المال يريدون نيل السلطة والتمتّع بالقوة، ليثبتوا جدارتهم، وليجلبوا، عن هذا الطريق، انتباه الناس إليهم.

«الـرغبـة في جمع الثـروة ليست من أجل الثروة نفسها، بل هي، على الأغلب، للظهور على الآخرين، والحصول على الشهرة والنفوذ، أو بالأحرى بلوغ النجاح في الظروف السائدة. إذا شئنا أن نضع، على ضوء علم الاقتصاد اليوم، خلفية نفسية للغرائز، فبدلاً من أن نستند مقدماً على غريزة حبّ المال، من الخير أن نتحدّث عن غريزة حب السلطة والقوة.

ليس ثمّـة من ينكـر بأن أربـاب الصناعة يبتلعون القسم الأعظم من النشـاط الخلاق في المرحلة الحاضرة. ولكن التصوّر بأنّ دافعهم إلى إظهار النشـاط والفعـالية هو غريزة جمع المـال فحسب تصوّر باطل. إن أساطين الصناعة يضعون خططهم الاقتصادية عادة ضمن اهتمامهم بتحليل الظروف القـائمـة، والسيطرة على العـوامـل الفنية، ودراسة القوى الطبيعية، وحبّ المغامرة، والتحمسّ للتأمر على الآخرين. فإذا قويت هذه العلائق باستعمال أسبـاب الرفاه الكمالية في الحياة الحاضرة، وبازدياد ثناء الطبقات المحرومة وتملّقها فلا مجال للعجب من استخدامهم الطاقات المبدعة الخلّاقة في المجاري المالية والتجارية، ولا من أن تتّخذ المنافسة والمحاكاة للحصول على السلطة والثروة طابع الظلم والإجحاف»[٣٣].

إن الذين يحرصون على جمع المال حرصاً مفرطاً، يفقدون هدوء البال وراحة الفكر، فهم، من جهة، يجعلون أنفسهم عرضة لسوء ظنّ الآخرين بحرصهم على

---

(٣٣) الأخلاق والشخصية: ١٤٠.

المال، فيحسُّون في باطنهم ببغض الناس لهم وسوء ظنِّهم بهم، وهم، من جهة أُخرى، تنتابهم المخاوف المتنوعة، خشية أن تقع حوادث خاصة أو عامة تغيِّر من أحوالهم فيفقدون ما يملكون.

هؤلاء يحيون حياتهم في همٍّ وتعب دائمين، يقضون لياليهم وأيامهم في قلق وخوف، فتتصرّم حياتهم في تكلّف ونصب. وإنّه لمن سوء الحظ أنّ هؤلاء كلّما ازدادوا ثراء ازدادوا جشعاً، وكلّما اتّسعت ممتلكاتهم اتّسع إحساسهم بالحاجة والنقص. إن تعطّش الإنسان للاستزادة لن يرتوي أبداً، ومرضهم هذا لا يشفيه كل مدّخرات العالم.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَنْهُومانِ لَا يَشْبَعانِ: مَنْهُومُ عِلْمٍ، ومَنْهُومُ مالٍ*»[٣٤].

وبناءً على ذلك، إن من يحرص على جمع المال يكون أسير حبّ التفوّق والاستعلاء، فهو لكي يُشبع حبّه المفرط هذا للوصول إلى السلطان، يلجأ إلى جمع المال، ويتحمّل في سبيل ذلك ضروب العذاب والشقاء، أما الإسلام فيعتبر الحرص على جمع المال من السيِّئات الأخلاقية ويرى تحمّل التعب والعذاب في سبيل ذلك من التكاليف المذمومة القبيحة.

العلائق الاجتماعية: أساليب المعاشرة وطرق تعامل الأشخاص بعض مع بعض من الأمور التي يمكن أن تصبح من التكاليف المذمومة، فيظهر فيها التصنّع، وتحمّل الإنسان على تحمّل المشاق غير المقبولة. إن المتعطّشين للتظاهر والبروز، ويحبُّون أن يكونوا ممتازين بين الناس، يتوسّلون، في سبيل إشباع رغبتهم الحارقة هذه، بمختلف الوسائل المتكلّفة، مثل حبّ المظاهر، والنفج، والاختلاف إلى سراة القوم، ومصاحبة الأثرياء، وما إلى ذلك مما يتكلّفونه للتعالي على الناس، بهدف تحقيق رغبتهم الأنانية تلك.

---

(٣٤) سفينة البحار، القمّي: ٢٤٤.

هذا الضرب من التكلّف مذموم أيضاً في الإسلام ومستقبح، وهو ينهى أتباعه عن ذلك، كما أن القرآن الكريم ينزّه عباد الله الصالحين عن ارتكاب أمثال هذه الأعمال:

﴿وعِبادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ علَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[٣٥].

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*هوَ الرَّجُلُ يمْشي بسَجِيَّتِهِ التي جُبِلَ عليْهَا، لَا يَتَكَلَّفُ ولَا يَتَبَخْتَرُ*»[٣٦].

علاقة الصداقة والرُّفقة من العلائق المهمة الرائجة فيما بين مختلف طبقات المجتمع، والناس يحترمونها جميعاً، قليلاً أو كثيراً. إن الإنسان يميل بطبيعته إلى التآلف والتوادد، ويحسُّ بالحاجة إليهما. والصديق الصدوق يمكن أن يرفع هذه الحاجة إلى حدّ كبير، فيزيل عن صديقه عذاب الوحدة والعزلة. الصديق المحب يبعث على هدوء الفكر، وراحة البال، المسرَّة والإنشراح، ويسبغ على الحياة البهجة واللذّة، ولكن بشرط أن تكون الصداقة طاهرة لا تشوبها شائبة من التصنّع والتكلّف، ولا تسبّب المشقة والعناء. وقد وردت في هذا أحاديث كثيرة.

عن الإمام علي(ع)، قال «*شَرُّ الأصدِقاءِ مَنْ تَكَلَّفَ لكَ، ومَنْ أحْوَجَكَ إلى مُداراةٍ، وألجأكَ إلى اعْتِذارٍ*»[٣٧].

وعن جعفر بن محمَّد الصادق(ع)، قال: «*أثقَلُ إخواني علَيَّ مَنْ يَتَكَلَّفُ لي، وأتَحَفَّظُ مِنهُ. وأخَفُّهُمْ عَلى قلْبي مَنْ أكونُ معهُ كَما أكونُ وحْدِي*»[٣٨].

نستنتج من مجموع البحث أن الإنسان بطبيعته وفطرته يميل إلى الراحة والدعة، ويعاف القيام بالأعمال الشاقة الصعبة. ولكنه عندما يقع تحت إلحاح رغبة

---

(٣٥) الفُرْقان: ٦٣.

(٣٦) مجمع البيان ٧: ١٧٩.

(٣٧) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٣: ٣٤٤.

(٣٨) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٣: ٣٤٤.

أقوى أو دافع أشد يستيقظ في داخله، فإنّه لكي يشبع تلك الرغبة، يتنازل عن الراحة ويتقبّل بذل الجهد وتحمّل المشقة، فيتكلّف القيام بالصعب من الأعمال، والشاق من المهام، بينما اللازم أن يكون دافع الإنسان على تحمّل كل ذلك هو التوجّه إلى تزكية النفس، والتغلّب على الهوى، وطلب العلم، ونيل السموّ المعنوي، أو أن ضرورات المعيشة وإدامة الحياة تدفعنا إلى تحمّل المشاق وبذل الجهد. إن الأخلاق الإسلامية ترى هذا الضرب من التكلّف ممدوحاً، فتأمر المسلمين بالسير في هذا الطريق. أما إذا كان دافع الإنسان للتكلّف هو حبّ الجاه، والاستعلاء، والتسلّط، وجمع الثروة، والنفج، أيّ الأهواء النفسية، فذلك التكلّف مذموم نهى عنه أئمة المسلمين وأشاروا إلى أخطاره، وحذّروا أصحابهم منه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*أُلمُتَكَلِّفُ لَا يَسْتَجْلِبُ في عاقِبَةِ أَمْرِهِ إلّا لهوانَ، وفي الوَقْتِ إلّا التَّعَبَ والعَناءِ والشَّقاءَ*»[٣٩].

---

(٣٩) سفينة البحار، القمّي: ٤٩٠.

الفصل السادس عشر

«ثَلاثَةُ أشْياءَ لا يَنْبَغِي للعَاقِلِ أنْ يَنْساهُنَّ على كُلِّ حَالٍ: فَناءُ الدُّنْيا، وتَصَرُّفُ الأحْوالِ، والآفاتُ التي لا أَمَانَ لَها»

الإمام الصادق (ع)

القلق المعقول والموهوم

القلق في حياة الإنسان من البلايا الكبيرة والآفات المضنية المؤلمة. لهذا المرض الخطر عوارض مثيرة للألم، فهو يجلب الكثير من العناء للجسم والنفس، ويشيب الشباب، ويضعف القوي، ويحطم الأعصاب الحديدية، ويذهب بالنوم والراحة، ويقصّر العمر، ويتسبّب في كثير من الخلل والعطب. القلق قادر على أن يصيب الإنسان بالقُلاب، وبضغط الدم، وبقرحة المعدة، وبغيرها من الأمراض، فيجعل الحياة مرّة غير مستساغة. وقد تتسبّب عن القلق الدائم أمراض نفسية ربما أدّت بالإنسان إلى الجنون.

ولقد كان القلق ملازماً للإنسان، قليلاً أو كثيراً، في جميع مراحل تاريخه، ولم ينج الإنسان القديم من كثير من آلامه ومنغّصاته، وقد أهلك من الناس من أهلك. أمّا في هذا العصر الذي كثرت فيه الآمال والتمنّيات، فقد ازدادت كذلك حالات الخيبة

والإحباط، واتّجه الإيمان والأخلاق إلى الضعف والوهن، وشاع التحلّل والعناد، وتفاقم هذا المرض وما يزال، وبذلك ازداد عدد المصابين به، وكثرت أسباب تعاسة الناس وشقائهم.

«هناك الملايين من أبناء البشر واقعون أسرى في براثن العدو، ذلك العدو الذي ضرره يفوق كل ضرر، وتشتد مصيبته فوق كل مصيبة. يعتقد الأطباء أن هذا العدو قادر على الزحف والتقدّم، حتى إنّه يؤدي إلى الأمراض العضوية، ويقضي على قوانا، ويسلب منّا سلامتنا، ويسمّم وجودنا، ويقصّر أعمارنا.

وعلى الرغم من أن هذا المرض قادر على مقاومة أشد العقاقير تأثيراً، فإن المصابين به يستطيعون أن يخلّصوا أنفسهم من بين براثنه تلقائياً، وذلك لأن هذا المرض يسكن الدماغ، وغالباً ما يكون المريض هو خالق تلك الموهومات. فامسكوا بزمام أفكاركم لكي تنجوا من الهمّ والغمّ، واطردوا الحزن عن نفوسكم وعيشوا في حبور»[١].

«العمل لا يميت أحداً، بل الغمّ هو الذي يقضي على الإنسان. العمل جوهر السلامة. من الصعب إلقاء عبء عمل ثقيل على كاهل من لا يُطيقه. ولكن الهمّ والغمّ يخدشان الروح ويبريانه، كالصدأ الذي يُفني المعدن، دون وعي»[٢].

ينشأ القلق عند الناس، على وجه العموم، عن مصدرين اثنين: الأول هو العجز، والثاني هو الجهل. إنّهم عاجزون لأنهم مقيّدون ومقهورون بنظام الخلق، وعاجزون عن تغيير قوانين العالم التكوينية لمصلحتهم، فيصطنعون عالماً حسبما يرغبون، ويقون أنفسهم الآفات ويجنّبونها المنغّصات. أما جهلهم فناجم عن كونهم يواجهون مستقبلاً مجهولاً، لا يعلمون ما سيقع غداً، ولا المنغصات التي ستواجههم،

---

(١) معارف دنيا العلوم: ٤٧.

(٢) معارف دنيا العلوم: ٥٠.

لكي يتهيأوا للتوقي منها ودفع خطرها، أو ليخففوا، في الأقل، من أخطارها ويعدّوا العدة لحماية أنفسهم منها إلى حدّ ما. ولكي يتضح هذا بعض الشيء، فلا بدَّ لنا من الكلام حول هذين الأمرين بإيجاز.

عجز الإنسان

هذا العالم الذي نعيش فيه أُقيم، بقضاء الله تعالى الحكيم، على مجموعة من القوانين المتقنة المقدّرة التي تجري بالجبر. إن الظواهر والحوادث الطبيعية التي تسببها القوانين التكوينية تكون أحياناً نافعة للإنسان وتحقق له ما يتمنّاه، ولكنها في أحيان أُخرى تجلب له الضرر، ولا تنسجم مع رغباته. فقد تمطر السماء ما يكفي ليزدهر الزرع، وتينع الأثمار، وتخضرّ المراتع، ويفرح المزارعون ويتمتعوا بحياة مرفهة. وقد يتجاوز المطر الحدّ المطلوب، فتكون السيول والفيضانات المدمّرة التي تكتسح المزروعات والمراتع، وتقتلع الأشجار، وتبيد الثمار، وتقتل الأنعام، وتنزل الكوارث بالمزارعين، وتهدم معيشتهم.

والإنسان، شاء أم أبى، محكوم بتلك القوانين التي لا مفرَّ له منها، فلا هو قادر على تغيير النظام العام للخلق إلى ما يتّفق ومصلحته، فيبدّل السنن الكونية، ويصوغ العالم بحسب ما يرغب، ولا هو قادر على تحويل مجرى الحوادث الطبيعية بعيداً عن نفسه، ودفع الأحداث الضارَّة، والتحصُّن أمام الكوارث والآفات.

وعلى الرغم من أن العلماء قد استغلوا التضادّ والتباين في الطبيعة لمصلحة الإنسان، واستطاعوا بتقدّم العلم أن يتجنَّبوا الكثير من أخطار الكوارث الطبيعية، وأضرار الأمراض، وأن يوفّروا للإنسان الرَّفاه النسبي في معيشته، إلّا أن هذه الانتصارات العلمية لا تعدُّ شيئاً مذكوراً في قبال مجموع حوادث الخلق، وما يزال الإنسان عرضة لمختلف الحوادث والبلايا الطبيعية، وهو عاجز عن درء أخطارها عنه.

«يقول علماء فرنسا: على الرغم من بلايين الدولارات والروبلات والفرنكات التي تُصرف في سبيل التنبُّوء بالزلازل قبل وقوعها، وعلى الرغم

من الجهود الجبّارة التي يبذلها عشرات الآلاف من المعنيّين للعثور على طريقة للتنبُّوء بالـزلازل، وعـلى الرغم من وجود الأقمار الاصطناعية، والطائرات الخـاصـة، والحـاسبـات الآلية العظيمة، لم يمكن لحدّ الآن التكهّن بوقوع الزلازل، من حيث المكان والزمان، تكهُّناً دقيقاً. فهل يتمكّن الإنسان يوماً من السيطرة على الزلازل والبراكين؟ إن الجواب عن هذا السؤال يكون بالنفي، إذ إن الإنسان لن ينجح في السيطرة على هاتين الظاهرتين الطبيعيتين أبداً. إن الطاقة التي تحرّر على أثر زلزلة أو انفجار بركان من الشدة والقدرة بحيث لا يمكن السيطرة عليها. فالطاقة الحاصلة من زلزال بقوة ٨/٥ درجة تبلغ ما بين (١٠ ـ ١٥) ألف مرة أقوى من الطاقة التي يحرّرها تفجير قنبلة ذرية. وعليه، ينبغي أن لا نعقد الآمال على هذه الأفكار الباطلة»[٣].

إذن، فأول أسباب القلق هو العجز، فالإنسان يجد نفسه محكوماً بقوانين الخلق، ويعلم أنّه عاجز عن الدفاع عن نفسه. فهذا العجز نفسه يبعث في نفسه الخوف والقلق الدائمين من الكوارث والأخطار المجهولة التي يمكن أن تحيق به بصور مختلفة فتحيل عيشه إلى تعاسة وشقاء.

جهل الإنسان

العامل الثاني من عوامل قلق الإنسان هو جهله بما يخبئه له المستقبل. لقد كانت منية الإنسان منذ القديم حتى الآن أن يعرف طريقه إلى مجاهل عالم المستقبل وظلام أحداثه، وغوامض الغد المجهول، لكي يستكثر، من جهة، من الخير، وليخفف، من جهة أُخرى، من آلامه ومصائبه وأخطاره. ولتحقيق هذه الأماني توسّل الإنسان بالسحر والرمل، وقراءة الكف، ورؤية الطالع، وما إلى ذلك من التشبُّثات، فعانى في هذا السبيل الكثير من العناء، وبذل الكثير من ماله، وصرف الكثير من عمره، من

---

(٣) صحيفة اطلاعات، العدد: ١٥٢٧٩.

دون أن يصل إلى النتيجة المطلوبة. هذه التشبثات الخرافية ما زالت سائدة في عصرنا الحاضر، قـلّت أو كثرت، حتى فيما بين الشعوب المتقدّمة، أو بين بعض طبقاتها، مع فارق أن ضرب الرمل قد تبدّل إلى أُسلوب حديث، والتفاؤل بحبات الحمصُّ قد تخلّى عن مركزه لقراءة فنجان القهوة أو ورق اللعب. كما أن قرّاء البخت اليوم لم يعودوا من الجوّالين، كالسابق، بل أصبحت لهم مكاتب يستقبلون فيها المراجعين بعد تحديد المواعيد معهم بالمراسلة أو بالتلفون، ويتقاضون من هؤلاء الجهلة أموالاً طائلة لقاء حمل هؤلاء على الإصغاء إلى أقوال خيالية في عصر الفضاء، بأمل أن يطّلعوا على ما يخبّئه لهم الغد من الخير والشر. إلاّ أنّه أمل لن يتحقق أبداً، سيبقى المستقبل ملفوفاً بأستار المجهول الغامض للإنسان، وذلك لأن حكمة الله تعالى هي التي شاءت أن يبقى الإنسان جاهلاً بمستقبله، فلا يعلم ما يكون في غده، وما ينتظره من أحداث. يقول القرآن الكريم في ذلك:

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ﴾[٤].

إن من صالح الإنسان أن لا يعلم شيئاً عن مستقبله، ويجهل ما يلقاه في غده، لكي يبقى سراج الأمل يشعّ في نفسه، فيحيا بالأمل، ويدير عجلة المجتمع العظيمة بقوة الأمل، ويواصل نشاطه الحياتي الواسع بحيوية وأمل. لو عرف المرء أنّه سيُصاب خلال سنتين بمرض يستحيل التوقي منه ولا يمكن علاجه، وأنّه لا مناص من موته بذاك المرض، لاعتبر نفسه ميتاً منذ يومه، فيستولي عليه الهمّ والغمّ، وتنتابه الكآبة، ويقنط من الحياة. ولكن لو أن هذا الإنسان نفسه جهل ما ينتظره في سنتيه القادمتين، لظل يحيا في ظل الأمـل، فرحاً منشرحاً، ويؤدي واجباته بإخلاص، ويمضي أيامه الباقية في حيوية ونشاط.

---

(٤) لقمان: ٣٤.

الإسلام والسحر

الإسلام قد حكم بعدم شرعية أعمال مثل السحر، واستخبار النُّجوم عن طوالع الناس، وأمثال ذلك من الأعمال. ولكيلا يقع المسلمون في حبائل السَّحَرة وشِراكهم، ولا يستسلموا للجهل والخرافات، فإن أئمة المسلمين لم ينهوا أصحابهم عن ارتكاب أمثال هذه الأعمال الخرافية الضارَّة فحسب، بل أكّدوا أن تصديق أقوال هؤلاء السحرة والمنجّمين والكهنة يُعدُّ ضرباً من المعصية للتعاليم الإلهيّة.

عن الهيثم بن واقد، قال: قلت لأبي عبدالله الصادق(ع): إنَّ عندَنا بالجزيرةِ رجلاً ربَّما أخبرَ منْ يأتيهِ يَسْأَلُهُ عنْ الشيءِ يُسْرَقُ أو شِبْهِ ذلكَ، أفنسألُهُ؟ فقال: «*قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وآلِهِ: مَنْ مَشى إلى سَاحِرٍ أو كَاهِنٍ أو كَذَّابٍ يُصَدِّقُهُ بِما يقولُ فقدْ كَفَرَ بِما أنزَلَ اللهُ منْ كِتابٍ*»[٥].

بناءً على ذلك يكون الإنسان عاجزاً في مواجهة سنن الخلق الجبّارة، والقدرة له على تغيير حال العالم لمصلحته، كما أنّه يجهل كل شيء عن المستقبل، ولا يستطيع أن يتجنَّب ما يأتيه به الغد من شر، فقلق الإنسان وخوفه من مختلف شؤون الحياة ناجمان عن هاتين الحالتين النفسيتين، أعني: العجز والجهل.

ولا بدَّ من المبادرة إلى القول بأن القلق المشروع والحكيم يختلف عن القلق والخوف الموهومين وغير المشروعين. فالقلق العقلائي أمر طبيعي في حياة الإنسان، ولا يمكن تجنُّبه. وسببه الإحساس بخطر حقيقي. فالعاقل لا يمكنه، في الحوادث السيِّئة والأخطار، أن يبقى لا أُباليّاً ولا ينتابه القلق. ولكن القلق الموهوم إنّما هو من صنع خيال الإنسان، وسببه تخيّل وجود أخطار خيالية وغير واقعية. وإنّه لمن سوء الحظ أن يكون القلق الموهوم أوسع انتشاراً بين الناس من القلق المعقول إلى حد كبير، وهناك الكثير من الناس يعيشون في العذاب والشقاء بسبب ذلك.

«إذا ما سجَّلنا أسباب القلق على الورق لرأينا أن معظمها يندرج تحت

---

(٥) سفينة البحار، القمّي ٢: ٥٠٠.

القلق الموهوم الغامض الذي لا أهمية له. إن الخط البياني لمخاوفنا وقلقنا يصوّر لنا أن ٤٠٪ من الكوارث لن يقع مطلقاً، و ٣٠٪ يخص الهموم والغموم السابقة واللاحقة التي لا ينفع في تغييرها كل تعازي البشر وتسلياتهم، و ٢١٪ يشمل الخوف من فقدان الصحة من دون ايّ أساس أو دليل، و١٠٪ يتعلق بأمور ثانوية لا أهمية لها، و٨٪ قد يكون مما يصح أن يثير القلق فعلاً»[٦].

إن الذين يقعون في أسر التوهّم والتخيّل يكونون مضطربيّ القلب ويعيشون في قلق دائم من أمور موهومة لا أساس لها. هؤلاء يجسّدون لكل جانب من جوانب الحياة منظراً مخيفاً في مخيلتهم، ويزيدون بتصوراتهم نيران القلق والخوف في قلوبهم، ويستسلمون للهيبها المحرق، ويحرمون أنفسهم من الهدوء وراحة البال.

القلق المعقول

أما الذين يتّسمون بالتعقّل في تفكيرهم، فلا تستهويهم التخيّلات والأوهام، ولا يقلقون إلّا عندما تواجههم حادثة منغّصة ويصادفهم خطر حقيقي. وبديهي أن يكون هذا القلق، الذي يحمل الإنسان على البحث عن طريق للخلاص ولحلّ المشكلة، دليل على سلامة في التفكير واتزان في الموقف.

«إن الناس غالباً ما يتهرّبون من مواجهة المشكلات، غير أن كل امرىء لا بدَّ أن يواجه في الحياة المشكلات، كثيرة كانت أم قليلة. ولولا أن للقلق والاضطراب قوة فعّالة لما أمكن النجاة من أسر الصعاب والمشكلات. كما أن الصراع، من الناحية الأخلاقية، يخلق نفساً واسعة صقيلة، بمثلما أن الخوف يخلق فيه الحماس والشجاعة يلخص أحد الحكماء ذلك بقوله: لكي يصبح الإنسان إنساناً لا بدَّ له من أن يجتاز اختبارات الخوف والغمّ والهمّ. إن القلق واضطراب الخاطر ضروريان لتقدّم الإنسان على مدارج الكمال. ولكن مع كون القلق مفيداً وذا آثار نافعة، فإنّه قد ينقلب إلى فخ في طريقنا، إلّا أن

---

(٦) معارف دنيا العلوم: ٤٨.

العاقل لا يفوته إدراك ذلك. كثيراً ما يستولي القلق والهم على الخاطر بحيث تتعرّض حياة المرء للخطر، وقد يصل الحال بالقلق إلى حد يحملنا على الهروب من مواجهة الواقع»[٧].

إن القلق المعقـول من مصائب الدهر يعد بمثابة الألم الذي نحسّ به عند المرض. إن الإحساس بالألم عند المرض دليل على سلامة الشبكة العصبية في الجسم، والإحسـاس بالقلق عنـد توقّـع حوادث خطيرة دليل أيضـاً على سلامة التفكير. الإحساس بالألم يُنذر المريض بالخطر، ويُعلمه بوجود المرض، ويحمله على المبادرة إلى مراجعة الطبيب والمستشفى لينال العلاج. والإحساس بالقلق أيضاً يحمل الإنسان الذي يواجه مخاطر حقيقية على السعي وبذل الجهد والفكر لإيجاد الحلّ ولإعداد العُدَّة لمواجهة الخطر.

أما القلق البعيد عن التعقّل وعن الواقع فدليل على فكر غير سليم، ونفس غير متّـزنة، ولا يُنتج غير العذاب والألم. وإنه لمن سوء الحظ أن نجد في المجتمع الإنساني أُناساً لهم مثل هذا الفكر غير السليم والنفس غير المتزنة، يكبِّلون أنفسهم بقيود التخيُّلات والأوهـام، ويغلب على فكرهم توقع الخطر، ويحسُّون بأنّهم عرضة للتعـاسـة والشقاء، ولهذا السبب يشعرون بالإحباط في الحياة والخمول في العمل، وبإيحاءاتهم المستمرة هذه يستبدلون طبيعتهم السليمة بأخرى عليلة وكئيبة.

يختلف القلق الموهوم عن المعقول في وجوه كثيرة. فالقلق الموهوم يمنع المرء من التفكّر والتعقّل، ويغرقه في ا لتخيُّلات والأوهام. أما القلق المعقول فيستخدم طاقته لحمـل الإنسـان على تقصّي طريق العلاج. القلق الموهوم يزيد من أخطار الحياة، والقلق المعقول يقلِّل منها. القلق الموهوم يخلق الاختلالات الجسمية والنفسية، والقلق المعقول يمنع هذه الاختلالات إلى الحدّ الممكن. القلق الموهوم يحجب عن المرء إدراك حقائق الحياة، والقلق المعقول يلفت نظر المرء إلى تلك الحقائق. يقول بعض علماء

---

(٧) معارف دنيا العلوم: ١٩

النفس أن القلق الموهوم هو الاضطراب، والقلق المعقول هو الخوف.

«يقول (كارن هورناي): الخوف هو ردُّ الفعل المتناسب مع الخطر الذي نواجهه، الخطر الحقيقي. أما الاضطراب فهو ردُّ فعل غير متناسب أبداً مع الخطر، الخطر الموهوم الناجم عن التوهّم. فمثلاً الأم التي يستولي عليها القلق لرؤية طفح صغير على وجه طفلها، أو لإصابته ببرد خفيف، فتظنّ أن طفلها سيموت، تكون مصابة بالاضطراب، أما إذا قلقت لشدة مرض ابنها، فردُّ فعلها هنا هو الخوف»[٨].

عندما يجد العاقل نفسه إزاء حادثة مؤلمة ويرى نفسه عرضة لخطر حقيقي، ينتابه القلق والخوف، وينبري للدفاع، ويبذل كل جهده ليتفادى الخطر، ويحمي نفسه من الخطر والضرر. فإذا نجحت جهوده ومساعيه وارتفع عنه الخطر، عاوده هدوء الخاطر، وفارقه القلق والخوف، وأبدى الفرح والابتهاج كردّ فعل لانتصاره ونجاحه، كما يفعل غيره في أمثال هذه الحالات. أما إذا لم تنجح مساعيه وخابت جهوده في الدفاع، ونزلت به النازلة التي كان يخشاها، فإن ردّ فعله قد يختلف عن ردّ فعل غيره في أمثال تلك الحالات، بما يتناسب ونفسيته وطريقة تفكيره، وفي هذه الحالات تتّضح نفسية كل امرىء وتتبين قيمه الأخلاقية .

عن الإمام علي(ع)، قال: «*في تَصارِيفِ الأَحْوالِ تُعْرَفُ جَواهِرُ الرِّجالِ*»[٩].

«قال أحد الحكماء: إن الأحوال الاستثنائية لا تخلق الشجاع أو الجبان، بل تُظهرهما. فكما أننا يغشانا النعاس فننتقل من فعالية الحياة إلى خمود النوم دون أن نعي ذلك، أو نعود إلى الحياة من حالة النوم، كذلك أيضاً نصبح كائناً قوياً أو ضعيفاً. إنما نحن في الأزمات فقط ندرك التحوّل والانقلاب في أحوالنا»[١٠].

---

(٨) مرض الأعصاب في عصرنا الحاضر: ٤٨.

(٩) فهرست الغرر: ٥٠.

(١٠) معارف دنيا العلوم: ٣٢١.

مثال: مخزن كبير يخزنون فيه البضائع تشتعل فيه النار، وتتعرّض الملايين من أموال التّجار لخطر الحريق، ويصل الخبر إلى أصحاب تلك الأموال، فيستولي القلق على الجميع، ويهرعون إلى مكان الحادث ليروا أن النّار قد التهمت جانباً من المخزن، وهي تتقدّم نحو الجوانب الأخرى. ويصل رجال الإطفاء ويبادرون إلى محاولة إطفاء الحريق، وبعد ساعات من المكافحة المضنية يُطفئون النار. ويتضرّر من هذه الحادثة عدد من التّجار أضراراً مختلفة، ولكن أضرار ثلاثة منهم تكون كبيرة وقاسية، إذ تلتهم النار معظم رأسمالهم وتحيله إلى رماد.

في بادىء الأمر يسمع هؤلاء الثلاثة بخبر الحريق كما يسمع به التّجار الآخرون، ويستولي عليهم القلق ويحسُّون بخطر حقيقي. فلو كان الضرر قد دُرىء عن أموالهم ولم تلتهم النار أموالهم، لزال عنهم القلق والاضطراب، ولرجع ثلاثتهم فرحين مسرورين. ولكنهم وقد واجهوا تلك الخسائر الكبيرة، وفقدوا القسم الأعظم من رأسمالهم الذي كان حصيلة عمر من التعب والكد، لن يزايلهم القلق والاضطراب. وإذا كانوا مختلفين من حيث قوة معنوياتهم وضعفها، فإن ردود أفعالهم تكون مختلفة أيضاً.

فالذي وهب قوة في الإرادة وصلابة في العزم، فإنّه، على رغم تألّمه من الخسارة التي ألمّت به، يحافظ على معنويته ولا ينهار تحت وطأة الضربة، بل يتحمّل قسوتها بكل قوة وصلابة، ويتغلّب عليها تدريجياً بعزمه وإرادته، ويتّجه في تفكيره بتعقّل لتكييف نفسه مع هذا الظرف الجديد، وليستأنف حياته العادية، فيسائل نفسه عمّا يجب عليه عمله. وبعد التمعّن في الأمر يتّضح له أن التحسّر والاضطراب لا فائدة منهما، بل لعلّ فيهما الضرر واحتمال مضاعفتها الخسائر. ويستنتج من كل ذلك أن عليه أن يتغاضى عن هذا الماضي الأليم، وأن يتناساه، وأن يوجّه كل اهتمامه نحو المستقبل. فيعقد العزم على هذا، ويترك ذكر الحادثة وما حصل فيها، ولا يُظهر الأسف والحسرة، ويحاول طرد ذكراها من وعيه. ويعود إلى عقله يستنير به لوضع برنامج للمستقبل، فيقوّم الظروف السائدة، ويدرس الوضع الحاضر دراسة دقيقة، وبنظرة واقعية يخطّط طريق مسيرته

القـادمـة، يحدوه الأمل بأنّه سوف يستطيع بذلك أن يجبر من جهة خسارته بعض الشيء، وأن يوفّر لنفسه دواعي السعادة في مستقبله، من جهة أُخرى.

أما الذي قواه المعنوية والنفسية متوسطة تكون طاقته على الصبر والاحتمال متـوسطة أيضاً، فلا هو شديد الجزع ولا هو مرتاح البال، كما يكون قليل الـصبّر والتحمّل، فصبره مختلط بقلقه واضطرابه، وحياته متّسمة بالقلق، يبدو في الظاهر هادئاً، ولكنه في الباطن مضطرب مشوش الفكر. يجالس الناس ويحضر محافلهم، ولكنه بقلبه في مكان آخر. لا ينسى حادث الحريق، ولا ينسى خسارته المالية، ولا يستطيع أن يتحرَّر من قلقه الباطني وعذابه النفسي.

أما ذو المعنوية الضعيفة، والصبر القليل، والإرادة المتخاذلة، فيفقد نفسه في حادثة الحريق هذه، وتنهار شخصيته، وتزايله القدرة على التعقّل واتّخاذ القرار، وينسى حقـائق الحياة وواقعهـا، ويلجأ إلى دنيا التخيُّلات والأوهام، ويظلّ يتذكّر الماضي وخسرانه رأس ماله في الحريق، ويغرق في الغمّ والحزن. وقد يفكّر في المستقبل، ويجسِّد في ذهنه مستقبله المظلم، فيستولي عليه الرعب والهلع، ويرى أن الحادث قد قضى عليه قضاءً مبرماً، وأن التّجار والمصارف لن يعودوا يثقون به، فتقف معاملاته في السوق، وهكذا يستغرق الأسف على ما مضى، والخوف مما يأتي، كل وجوده، وتشتعل في داخله جهنم مستعرة، فتطرد عن عينيه النوم والراحة، وتسلب منه الهدوء والاستقرار، وتتصرّم أيامه ولياليه في قلق واضطراب البال. وعلى أثر هذه الحال المزرية التي لا تُطاق، تتّجه صحته إلى السقم، وسلامته إلى المرض، فتضاف مصيبة اعتلال الصحة إلى مصائبه الأخرى.

«يجب اعتبار تشوش الخاطر دليلاً على نشاط فكري شديد ينطوي على طاقة خفية. فإذا انشغلت هذه الطاقة بحلّ مشكلات غير حقيقية، وأتعبت نفسها عبثاً، أُصيب صاحبها بضرر بليغ وخسائر فادحة»[١١].

---

(١١) معارف دنيا العلوم: ٤٨.

بديهي أن النـاس لا يركضـون طوعـاً نحـو القلق واضطراب الخاطر، ولا يستسلمون للأوهام والتخيُّلات بمحض اختيارهم وإرادتهم، بل إن القلق والاضطراب هما اللّذان يتوجّهان نحو الناس، فيستحوذان بسحرهما على قلوبهم، ويسرقان منهم هدوء الفكر واطمئنان الخاطر، ويدفعان بهم إلى وادي الرعب والقلق، ويُحيلان حياتهم إلى تعاسة وشقاء.

التغلب على القلق

ترى هل يستـطيع الإنسـان أن ينتصـر على قلقـه المـوهوم، ويكبح جماح التخيُّلات العنيدة، وينقذ نفسه من هذا العدو الداخلي؟ جواب هذا السؤال بالإيجاب إجمالاً. فالذين يستطيعون أن ينفذوا أيّ مقدار من برامج مكافحة القلق، ويصوغوا نفسياتهم بشكـل لائق، ويقـوُّوا من إرادتهم، يغلبون الوهم والخيال بالمقدار نفسه، ويحرِّرون أنفسهم من القلق الموهوم.

وضع علماء النفس والمحلّلون النفسيُّون القلق على مائدة البحث منذ زمن بعيد، وذكروه في كتبهم، وحلّلوه من الناحية النفسية، وبيّنوا طرق مكافحته. إن اتّباع تلك الطرق في بعض الحالات يؤدي إلى نتائج مفيدة ويزيل القلق، أو يقلّل من شدّته، في الأقل. ولكن في الحالات الحادة من القلق ليس لتلك المعالجات النفسية فائدة تُذكر، إذ إنّها ليست قادرة على إطفاء الغليان الداخلي في من استسلم للقلق صاغراً، فتمنحه هدوء البال والخاطر.

الإسلام والقلق

لقد بيّن أئمة المسلمين المحترمون منذ قرون، في تعاليمهم، الوصايا الخاصة بمكافحة القلق، مستفيدين من قوة الإيمان ومن التعاليم الروحية على خير وجهه، وبذلك حفظوا أتباعهم من الانهيار والسقوط في أحرج الظروف وأصعب الحالات. كثيرون اليوم أولئك الذين يتمتّعون، في ظل الإيمان بالله واتّباع تعاليم الإسلام، بقلب

مطمئن وضمير هادئ، فلا يصابون بالخوف والهلع عند وقوع الحوادث الجسام، ولا تستولي عليهم الأوهام والتخيّلات في مواجهة المنغّصات.

يستنبط من الأحاديث الواردة بهذا الشأن أن برنامج الإسلام لمكافحة القلق يمر بمرحلتين:

في المرحلة الأولى: يطلب من المسلمين أن يعرفوا عالم الطبيعة كما هو، وأن ينظروا إلى أحواله نظرة واقعية، ولا ينسوا تحوّلاته الطبيعية والتصادفية المتقلّبة دائمًا وأبداً. هذه النظرة الواقعية تهيِّىء عقول الناس لتقبُّل تغيُّرات عالم الطبيعية، وتمنحهم القوة على المقاومة، وتعينهم على إعداد أنفسهم لمواجهة المصائب والحوادث الأليمة، قبل وقوعها.

وفي المرحلة الثانية: بعد وقوع الحوادث، يُستعان بقوة الإيمان وبالتحليلات النفسية لتقوية إرادة الناس وإيجاد القدرة على حسن التحمّل وضبط النفس، وبذلك تتمّ حماية الناس من القلق الموهوم وتشوّش الخاطر.

لبيان الأسلوب الـذي يتّبعه الإسلام في مكافحة القلق، ولكي يتمكّن من يعنيهم الأمـر من تطبيقه عملياً ليعيشوا بهدوء بال واطمئنان خاطر، نتكلم في هذا الفصل عن المرحلة الأولى التي تمثّل في الواقع مرحلة الوقاية. أما المرحلة الثانية التي تتناول طرق العلاج فسوف نتطرّق إليها في الفصل التالي. ولكي يتّضح الموضوع نضرب لذلك مثلاً في بداية الأمر.

لنفرض أنَّ شاباً هو وحيد أهله ويتمتّع بحب جميع أفراد العائلة له. يودّع هذا الشاب أُمّه يوماً ويخرج من البيت. وعندما يحاول عبور الشارع تدعسه سيارة فيقع على الأرض أمام البيت. يصل الخبر إلى الأم، فتهرع مضطربة إلى الشارع لتجد وحيدها غارقاً في دمه. وعلى أثر مشاهدة ولدها في هذا المشهد الذي يطغى على قلبها، تصرخ صرخة وتقع على الأرض مغشيّاً عليها إلى جانب جسد ابنها.

فلو كان هذا الشاب قد أُصيب قبل أشهر بمرض السرطان، ومات في ذلك اليوم بسبب مرضه، فهل كان تأثير موته في الأم بسبب المرض مثل تأثيره فيها عندما

دعسته السيارة وطرحته أرضاً؟ هل كانت الصدمة عندئذٍ بالدرجه نفسها من العنف بحيث إنّها كانت أيضاً تصرخ وتقع مغشيّاً عليها لأن المرض أخذ منها وحيدها؟ لا شكّ أن الجواب يكون بالنفي عن هذا السؤال، إذ إن ردّ فعل الأم إزاء هاتين الحالتين لا يكون متشابهاً، فالدعس حدث مفاجيء يواجه الأم من دون أن تكون قد تهيّأت له من قبل، بل تجد نفسها على حين غرّة مع الحدث الفاجع. بديهي أن تكون الضربة من هذه الصدمة شديدة لا تُطاق. ولكن الموت الناجم عن مرض السرطان يقع مع التوقّع والتهيؤ، بحيث إن طول مدة المرض، واليأس من العلاج، يحملانها على أن تغسل يدها من وحيدها، فتتهيأ لتقبّل خبر موته في كل لحظة. إن موته على هذه الصورة، فضلاً عن كونه لا يؤدي بها إلى فقدان السيطرة على نفسها وفقدانها وعيها، فإنّه لا يثير فيها القلق وتشوش الخاطر كذلك.

على وجه العموم، إذا وقع الحدث فجأة وعلى حين غرّة من دون أن يكون المرء مستعداً لمواجهته، يكون تأثيره في النفس شديداً ومثيراً لأشد الألم. ولكن الحالة لا تكون كذلك إذا كان الحدث متوقعاً، فيواجهه المرء وهو على استعداد له، ويكون تأثيره المؤلم في النفس أخفّ، وتأثّره به أقل نسبياً.

العالم الذي نعيش فيه

إننا نعلم جميعاً أنّ عالم الطبيعة الذي نعيش فيه عالم متغيّر ومتحوّل، وأن أيّاً من أُموره لا يدوم على حال ثابتة. لذلك فإن الناس، على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم، محكومون بقوانينه وسننه، وإن عليهم أن يواجهوا حوادثه ومنغّصاته، ويذوقوا مرارته وابتلاءاته، شاؤوا أم أبوا.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*لَا يَأْمَنُ أَحَدٌ مِنْ صُرُوفِ الزَّمانِ وَلَا يَسْلَمُ مِنْ نَوائِبِ الأَيّامِ*»[١٢].

---

(١٢) فهرست الغرر: ١٤٨.

إذا نحن عرفنا الدنيا كما هي، ولم ننس أن ليس فيها شيء ثابت دائم، نكون دائمًا مستعدين لتقبّل صروف الزمان، وهذا الاستعداد هو الذي منحنا القوة ويعطينا القدرة على المقاومة، بحيث إنّنا لا نفقد زمام أنفسنا عند مواجهة حوادث الحياة المؤلمة، ولا ننهار أو نستسلم، ولا يستولي علينا الجزع، ولا نفقد شخصيتنا. وهذا هو أول عامل من عوامل مكافحة القلق وبلبلة الخاطر، كما إنّه كان موضع عناية أئمة المسلمين ونصحوا به أتباعهم.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*ثَلاثَةُ أَشْياءَ لَا يَنْبَغي للعاقِلُ أَنْ يَنساهُنَّ على كلِّ حالٍ: فناءُ الدُّنيا، وتصرُّفُ الأَحْوالِ، والآفاتُ الَّتي لَا أَمانَ لَها*»[١٣].

يقسّم هذا الحديث جميع التحوّلات الطبيعية والحوادث التصادفية التي ينجم عنها الكثير من آلام الحياة ومصائبها، والتي تثير القلق في الناس وتبلبل خواطرهم، إلى ثلاثة أقسام. ولكي يتّضح معنى الحديث والقصد الذي قصده الإمام،يمكن بيان هذه الأقسام الثلاثة في المثال التالي:

لنتصور أن المصابيح التي تشتعل بالنفط تصنع لتسع كميات مختلفة من الوقود، فكل منها يشتعل وينير على قدر ما فيه من وقود. فقد يستمر أحد ها مشتعلاً مدة يومين، والآخر ليوم واحد، وغيرهما لبضع ساعات. وعلى ذلك يمكن تصوّر كيفية انطفاء هذه المصابيح على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: هو نفاذ الوقود وانطفاء المصباح انطفاء طبيعياً. بالنظر إلى أن كميات الوقود في المصابيح محدودة، فإن أعمار اشتعالها محدودة أيضاً. فهي تُشعل في وقت معين، وعندما ينفذ وقودها تموت موتاً طبيعياً. إن انطفاء المصباح بسبب نفاذ وقوده يعتبر بمثابة فناء نوره وموت المصباح موتاً طبيعياً.

الوجه الثاني: هو حدوث مانع أو تغيّر يحول دون اشتعال المصباح. ففي هذه الحالة لا يكون انطفاء المصباح وفناء نوره ناجماً عن نفاد مادة الاشتعال وانتهاء عمره

---

(١٣) بحار الأنوار، المجلسي: ١٧: ١٨٣.

الطبيعي، بل يرجع إلى انتفاء الظروف المناسبة لاشتعاله فينطفئ. فإذا نقلنا المصباح من فضاء مفتوح إلى آخر مغلق بحيث لا يصله القدر اللازم لاشتعاله من الأوكسجين، تأخذ شعلته بالتضاؤل تدريجياً، ويخفت نوره شيئاً فشيئاً، وبعد فترة من المقاومة ينطفئ، ويموت قبل أن يصل إلى موعد موته الطبيعي، لوجود الوقود فيه بما يكفي اشتعاله ليوم آخر.

الوجه الثالث: هو حدوث حادث فجائي دون إنذار سابق. فقد يكون المصباح في ظروفمناسبة للاشتعال، وفيه من الوقود ما يكفي لبعض الوقت، وهو موضوع في فضاء مفتوح، يشتعل ويشعّ بضوئه الساطع على ما حوله، ولكن تهب فجأة ريح قوية، وفي لحظة واحدة تنطفىء شعلة المصباح على حين غرّه، ويتلاشى نوره.

كل كائنات العالم، من جمادات وأحياء أشبه بمصابيح خلقها الله القدير بمشيئته، وهي تتمتّع بإشعاع الوجود. إلّا أن قابليتها على البقاء في الحياة مختلفة. فبعضها يعمّر طويلاً، وبعضها قصير العمر، ولكنها جميعاً لها أعمار محدودة ومؤقتة، وهي في النهاية إمّا أن تموت موتاً طبيعياً، وإمّا أن تموت بسبب تحوّلات تدريجية، وإمّا بحوادث تصادفية فجائية.

الإمام علي(ع) يشير في بعض خطبه إلى هذه الوجوه الثلاثة قائلاً: إن الدنيا التي نعيش فيها لا هي أزلية ولا هي أبدية، فقد كان لها بداية، وستكون لها نهاية، وهذه الشمس الساطعة، والقمر المنير، والكرة الأرضية وغيرها من أجرام المنظومة الشمسية، بملايين السنين من عمرها، ظروف وجودها وشرائط بقائها محدودة. لقد ظهرت في زمان، وستفنى في زمان. والإنسان وهو من كائنات هذا العالم، حاله حال سائر الكائنات، وقتي وفان، وهو إذا لم يصادف في سير حياته واقعة مهلكة فسوف يموت في النهاية حتف أنفه عند نفاد قواه الحياتية.

من الجدير بالذكر أن نلاحظ أن في الإنسان صفات ومزايا مخلوقة ذات أعمار أقصر من عمر الإنسان الطبيعي، فتفنى قبل فناء الإنسان. فالشباب يزول مخلّياً مكانه للكهولة، وللشيخوخة، وتنتهي فترة القوة وصلابة الأعصاب، وتبدأ فترة الضعف

والإرتعـاش، وينحو توقّد الذكاء والحافظة نحو الخمود والبلاهة والنسيان، وتتحوّل الطراوة إلى الذبول، والجمال إلى القبح، والحيوية إلى الكآبة، والحركة إلى السكون. وهكذا نجد أنّه مع حلول الموت الطبيعي وفناء المرء، يتلاشى بعض ماله من رأسمال في الحياة، ليخلفه القلق والتأثر.

الأمر الأول الذي يجب على الإنسان العاقل أن لا ينساه مما جاء في مقال الإمام(ع) هو فناء الدنيا. ففي هذه الدنيا الزائلة، وجود كل شيء وكل إنسان محدود ومؤقت، ولحياته الطبيعية نهاية، وكالمصباح الذي ينفد وقوده، يعتوره الفناء والزوال. إن الإنسان وكل شؤونه الحياتية جزء من كائنات هذا العالم المحكوم بقانون الفناء، فلا هو دائم باقٍ، ولا مقوماته الحياتية كذلك.

الأمر الثاني الذي ورد في مقال الإمام(ع) والجدير بأن لا ينساه الإنسان أبداً هو تغير الأحوال في هذا العالم، فجميع الكائنات في حالة تغيّر وتبدّل دائمين، وتزول ظروف بقـائهـا في الوجود، كالمصباح الذي يُشعل في فضاء مغلق، إذ هي تضعف تدريجياً، وأخيراً، وقبل موعد الأجل التكويني، تفنى وتزول.

والإنسان، ظاهرة العالم الممتازة، يبقى، مثل سائر ظواهر العالم، عرضة لخطر التغيّر والتبدّل، وهو أكثر تعرّضاً من الكائنات الأخرى لخطر الفناء قبل موعده. واليوم قلّما نجد في شعوب الدول المتمدّنة من الناس من يحيا حياة طبيعية وتنتهي حياته بموت طبيعي. إنّ الغالبية العُظمى يموتون بسبب أمراض مختلفة، أو حوادث متنوّعة، وهم في أواسط أعمارهم، بعد أن يُصيب الخلل توازنهم، ويفقدون زمام شروط البقاء أحياءً، فينتهون نهاية غير طبيعية.

حياة الإنسـان لا تتعـرّض للخطر بسبب تعرّضها للحوادث الفاجعة التي تطفىء سراج حياته قبل أجله التكويني فحسب، بل قد تصاب أعضاء الجسم ـ التي خلقت لتدوم طول حياة الإنسان الطبيعية ـ بحدث أو مرض أو علل أُخرى، فتتلف، وعندئذٍ تستحيل حياة الإنسان الذي يفقد عضواً من أعضائه إلى حياة مرَّة تعيسة.

«يقـول (ويل ديورانت): بيتهـوفن، الذي كان أحوج الناس إلى حاسة

السمع، قد أُصيب بالصمم. ونيتشه، الذي كان أحوج ما يكون إلى البصر، أُصيب بالعمى، والدكتور جونسن، الذي تجمّعت كل عظَمته في خطبه، فقد القدرة على النطق. وأُصيبت يد الرسام رينولد بالشلل. كانت شيلي قبل عشرين سنة شابة وجميلة، نزلت يوماً إلى حوض السباحة بعد لعبة تنس، فأُصيبت بالشلل. أخرجوها من الماء وكل مفاصلها متسمّمة، وقد تورّم وجهها، وهي تحسُّ بكل جسمها محطَّمًا تالفاً، ما خلا ذكاءَها وعقلها الَّذي ما يزال حاداً وسليمًا، لكي تزداد عذاباً»[١٤].

حكايات من التاريخ

الجاه والمحبوبية، والمقام والسلطة، والمال والثروة، وكل ما يعوّل عليه الإنسان في مختلف شؤون الحياة، لا يختلف عن حياته الطبيعية أو عن حياة أعضاء جسمه، فهي أيضاً عرضة للتغيُّر والتبدُّل ولخطر الفناء والزوال، إذ قد تقع أحداث وتطوّرات تغيّر حال المرء تغييراً كلياً، فيفقد كل ماله من مقام واعتبار ومال، وينقلب تعساً منهاراً، يقضي ما بقي من أيامه في ذلة وشقاء.

لقد وصل البرامكة على عهد (هارون الرشيد) إلى أوج العظمة والسلطة. كان (جعفر البرمكي) رئيس الحكومة، وللبرامكه الآخرين مقامات عالية فيها، وظلُّوا يحكمون البلاد الإسلامية الواسعة سنين طوالاً، كان خلالها جميع أفراد هذه العائلة، من الرجال والنساء، والشباب والشيوخ، والكبار والصغار، متنعّمين بكل النعم ووسائل الراحة والسلطة. ولكنّهم في النهاية واجهوا تغيراً عجيباً، فقُتل فريق منهم، وفقد الذين بقوا أحياءً كل شيء ودالت دولتهم.

يقول محمَّد بن عبدالرحمن الهاشمي: زرت أُمِّي في عيد الأضحى، فرأيت امرأة رثَّة الثياب تجلس إليها تحادثها. فسألتني أُمي: أتعرف هذه المرأة؟ فقلت: لا. قالت: هذه

---

(١٤) مباهج الفلسفة: ٤٦٩.

عبادة، أم جعفر البرمكي. فاقتربت منها وحادثتها وأنا في عجب من أمرها. سألتها عمَّا مرَّ بها من عجائب حوادث الزمان، فقالت: يا ولدي، مرَّ عليَّ عيد مثل هذا وأربع جوار يخدمنني، وكنت أقول إن ولدي جعفراً لم يؤدِ حقّي في عدد الجواري اللواتي أوقفهنّ على خدمتي. واليوم أيضاً يوم عيد يمرُّ عليَّ وأنا أتمنّى جِلْدَيْ شاةٍ افترش واحداً واتغطّى بآخر. يقول محمَّد الهاشمي: فدفعتُ لها خمسمئة درهم، ففرحت فرحاً شديداً كاد أن يُهلكها[١٥].

أرسل معاوية عبدالرحمن بن زياد عاملاً له على خراسان، حيث جمع خلال حكمه أموالاً طائلة. قال يوماً لكاتبه: ويلك، لست أدري كيف يغشاني النوم وعندي كل هذه الأموال؟ فسأله الكاتب: كم هي؟ فقال: عددت ما عندي فعلمت أني إذا صرفت كل يوم ألف درهم كفاني مئة سنة. فقال الكاتب: أيها الأمير، أنام الله عينيك. لا تعجب من أنك تنام ولك هذه الأموال، بل أعجب إذا غمضت عيناك بعد أن تذهب منك.

ثم لم يلبث طويلاً حتى ذهب كل ذلك المال، فقد استدان بعضهم بعضه ولم يعيدوه، وانكر بعض آخر أنّه استأمنهم على بعضه الآخر، وسرق خدمه وحشمه ما لم يسرقه الآخرون، حتى بلغ به الأمر إلى أنّه باع ما عنده من أدوات فضية، وكان يركب حماراً صغيراً فتخط رجلاه الأرض، رآه يوماً مالك بن دينار وسأله: أين الأموال التي كنت تذكرها كثيراً؟ فأجابه: يا أبا يحيى، كل شيء، سوى ذات الله تعالى، إلى فناء[١٦].

أمثال هذه القضايا كثيرة في تاريخ البشر، وكلّها تؤكد أن أحوال الإنسان وظروفه لا تدم على وتيرة واحدة، وأن جميع شؤونه دائمة التغير والتبدل.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*كيفَ تَبْقى عَلى حالَتِكَ والدَّهْرُ في إحالَتِكَ؟*»[١٧].

---

(١٥) تتمّة المنتهى ٢: ٢٦٤.

(١٦) كتاب الوزراء والكتّاب: ٥٧.

(١٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٥٥٤.

الحوادث المفاجئة: الكوارث والآفات التي تصيب كائنات هَذا العالم وتؤدي إلى فنائها قبل آجالها التكوينية تُقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هي الكوارث والآفات التي يكون تأثيرها تدريجياً، مثل الأمراض التي تصيب الإنسان والحيوانات والآفات التي تصيب النباتات، والتي تتفاقم عادة بمضي الوقت، فتوجد التغيرات شيئاً فشيئاً إلى أن تنفث كل تأثيراتها وتنهي حياة الكائن الحيّ الذي أصابته. وهذه تدخل ضمن الجزء الثاني من كلام الإمام علي(ع) الخاص بالتحوّل والتغيّر.

القسم الثاني: هي الكوارث والآفات التي تأتي على حين غرَّة ولا تمهل، بحيث إنّها تؤثر خلال بضع دقائق، أو حتى خلال بضع ثوان، فتؤدي إلى هلاك النفوس وفناء الأموال، مثل الزلازل، والانهيارات، وحوادث الاصطدام، والصواعق، وأمثالها. وهذا هو الجزء الثالث الذي ورد في الحديث، والذي لا يصح للعاقل أن ينساه، كما يقول الإمام(ع).

الكوارث والآفات المفاجئة لا يمكن التنبؤ بها ولا الوقاية منها، وجميع الناس من جميع الطبقات والمراكز معرّضون لأخطارها. فكما أن هبوب الريح تطفىء المصباح المنير دون إمهال وفي لحظة واحدة، كذلك تفعل الكوارث المفاجئة فتطفىء سراج حياة الإنسان، وتضع نهاية لحياته في أقل زمن.

كان ليعقوب بن داود، وزير المهدي العباسي، أخ اسمه عمر بن داود. خرج هذا يوماً للنزهة مع رفاق له ومعهم طعام وفاكهة. وعندما قدَّموا له طبقاً فيه شيء من العنب، أخذ منه حبّتين وألقاهما في فمه، فوقفتا في حلقه دون أن يستطيع ابتلاعهما، ولا إخراجهما من فمه، حتى مات[١٨].

إن الالتفات إلى النقاط الثلاث التي وردت في حديث الإمام الصادق(ع) هو الطريق الأول إلى مكافحة القلق وتشوّش الخاطر. إن العاقل الذي لا ينسى، في جميع

---

(١٨) كتاب الوزراء والكتّاب: ٢٠٢.

الأحوال، أن الدنيا فانية، وأن الحالات متغيّرة لا ثبات لها، وأن هناك كوارث تأتي على حين غرّة، يكون متهيئاً دائمًا لمواجهة كل حالة. إنّه عارف بأن التغيّر والتبدّل من طبيعة شؤون العالم، وبأنّه لا شيء في العالم باقٍ على حاله لا يتبدّل، لذلك فهو عندما يكون سليمًا لا ينسى المرض، وفي بحبوحة فتوّته يتذكّر عجزه، وفي أوج قوته يفكّر في ضعفه، وفي حال غناه لا يغفل عن تذكر الفقر.

هذا الإنسان الواقعي النظرة الذي عرف الدنيا الزائلة على حقيقتها، وعلم ما تتّصف به حالها من التقلّب وعدم الاستقرار، لا يقع في أسرها، ولا تقيّده أحابيلها، ولا يسمح لحبها أن يتغلغل في أعماقه، ولا يتعلّق قلبه بأيّ شأن من شؤونها المادية. إنّه، بالطبع، يحب الأشياء والأشخاص، ولكنه في حبّه ذاك ليس من المفرطين ولا الانفعاليّين، فهو يحب الزوج والولد، والأقرباء والأصدقاء، المُلك والمال، المقام والجاه، العمل والتكسُّب، وغير ذلك من أُمور دنياه، ولكنه لا يكون عبداً لها واقعاً في أسرها. فإذا فقد قريباً من أقربائه، أو نزلت نازلة بشأن من شؤونه، لم يضيع نفسه، ولا ينسى عقله ومنطقه.

وعليه فإنّ أمثال هذا الإنسان العاقل ممن يفكّرون في عواقب الأمور ولا ينسون صروف الدهر، لا يفقدون توازنهم النفسي وتعادلهم الروحي، ولا ينسون الحقّ والفضيلة في حالتي السّراء والضّراء على السواء. عندما تُقبل عليهم الدنيا، وتدور عجلتها على وفق مصالحهم، لا يركبهم العُجب والغرور، ولا ينظرون إلى الناس بعين التحقير والازدراء، وإذا ما أدبرت عنهم الدنيا لا يشعرون بالضعة والخور، ولا تتحطّم شخصياتهم تحت ضغط القلق والاضطراب. وهذا هدف من أهداف التربية الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم:

﴿لِكَيْلا تَأْسَوا عَلى مَا فَاتَكُم ولاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُم﴾[١٩].

إن الذين ينحون في تفكيرهم هذا المنحى لا يجدون نوائب الزمان أُموراً غير

---

(١٩) الحديد: ٢٣.

منتظرة، ويكونون مستعدين لمواجهة الحوادث المرَّة. إن لهم معنوية عالية، وإرادة قوية، ومقاومة شديدة في قبال الأحداث، ويتحمّلون ضغط المصائب والآلام، ويتغلّبون على المشكلات بالصبر والجلد.

وعلى العكس من هؤلاء هم أُولئك الذين لا يفكّرون في نوائب الدهر، ولا تخطر لهم ببال منغّصات الحياة، بل ينظرون إلى حوادثها بمنظار ما يشتهون، لذلك تكون نفسيات هؤلاء سريعة العطب، ويكونون ضعفاء الإرادة، تحطّمهم المصائب الجسام، ينتابهم العجز والانهيار أمام النكبات، يستولي عليهم القلق والهم من مواجهة البلايا والآفات، ذلك لأنّهم لم يتسلّحوا بسلاح الصبر، فلا يطيقون تحمّل صروف الزمان.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ أَحَبَّ البَقاءَ فَلْيُعِدَّ للمَصائِبِ قَلْباً صَبُوراً*»[٢٠].

وعن أبي جعفرالباقر(ع)، قال: «*مَنْ لَا يُعِدُّ الصَّبْرَ لِنَوائِبِ الدَّهْرِ يَعْجَزْ*»[٢١].

طلب الرزق

ولكيلا يعمد ذوو الأفكار السيّئة إلى إساءة استعمال حديث الإمام الصادق(ع)، ويتخذوا من فناء الدنيا وتغير الحالات ذريعة للكسل والتراخي في العمل والسعي، ينبغي أن نشير إلى أن الإسلام قائم على أساس القيام بأداء الواجب وتنفيذ المسؤولية، لذلك لا يحقّ لمن يدينون بالإسلام أن يتذرَّعوا بعدم ثبات الدنيا وزوالها للتخلّي عن السعي والعمل، ليُصبحوا أعضاء مشلولة في المجتمع، ويضعوا، مثل المرتاضين والرهبان، ثقل حياتهم على عواتق الآخرين، إذ إن أئمة الإسلام أكّدوا أن التكسّب المشروع للمعيشة وللحصول على الرزق من الفرائض، وحثّوا المسلمين على السعي للكسب الحلال، وحذّروهم من التكاسل والتماهل في ذلك، ولكنّهم في الوقت نفسه أمروهم بألّا يتجاوزوا حدود الحقّ والمصلحة باسم السعي من أجل

---

(٢٠) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٣٧.

(٢١) الكافي، الكليني ٢: ٩٣.

العيش، فلا يميلوا إلى الاتّصاف بالطمع والجشع، ولا يكونوا عبيداً للمال والجاه، كالذين يعبدون الدنيا، وألّا يضحّوا بسموّهم المعنوي وكمالهم الإنساني في سبيل الشهوات والمكاسب المادية.

عن رسول الله(ص)، أنّه قال: «*طَلَبُ الحَلالِ فَريضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ*»[٢٢].

وعن المعلّى بن خنيْسٍ، قالَ: رَآني أبُو عبْدِاللهِ الصّادق(ع) وقدْ تَأَخَّرْتُ عنِ السُّوقِ، فقال: «*أُغدُ إلى عِزّكَ*»[٢٣].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*لِيَكُن طَلَبُكَ المَعيشَةَ فوقَ كَسْبِ المُضَيِّعِ وَدُونَ طَلَبِ الحَريصِ الرّاضِي بِدُنْياه المُطْمَئِنِّ إلَيْها*»[٢٤].

خلاصة البحث

وبناءً على ما مرَّ نستنتج أن الدنيا مبنية على التغيّر والتبدّل، وأن حياة الإنسان عرضة دائمًا لتهديد مختلف الحوادث والنكبات، وأن الكوارث الطبيعية أو الوقائع المفاجئة التصادفية يمكن أن تُنزِلَ بالإنسان مصائب ثقيلة، وتسبّب له خسائر كبيرة لا تعوّض. فلو عرف الإنسان عالم الطبيعية على حقيقته وكما هو، ولا ينسى ما فيه من تغيُّر وتحوُّل، ولا يحسب نفسه بعيداً عن صروف الزمان، بل يكون على استعداد دائم لمواجهة نكبات الدهر، فإنّ الشدائد والصعاب في الحياة تكون أخفّ وقعاً عليه، ويكون أصبر على مواجهتها، ولا يفلت زمام الأمور من يده في الضرّاء، ولا تقع شخصيّته ضحية القلق والاضطراب.

لا بدَّ من القول بأنّ المصائب والكوارث التي تُصيب أبناء البشر وتثير فيهم

---

(٢٢) بحار الأنوار، المجلسي ٢٣: ٦.

(٢٣) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب التّجارة.

(٢٤) وسائل الشّيعة، العاملي، باب الاقتصاد فى الطلب: ١٠٣.

القلق وتشوّش الخاطر ليست مقصورة على الحوادث الطبيعية والوقائع غير الإرادية، بل إن جانباً من تلك المصائب التي تُصيب الناس ناجم عن سوء الأخلاق وفساد الأعمال التي يرتكبها الناس أنفسهم بسوء اختيارهم وإرادتهم، فيتسبَّبون في خلق العذاب والألم لأنفسهم. إن ذكر التغيّرات والتحوّلات التي تقع في العالم، والتي ورد ذكرها في حديث الإمام الصادق(ع)، إنّما هي للتقليل من قلق الإنسان من الحوادث الطبيعية والأحداث غير الإرادية. أما القلق الناجم عن أعمال الإنسان نفسه فطريق علاجه هو تزكية الأخلاق والأعمال، إذ إنّ على كل امرئٍ أن يقوم بإصلاح نفسه، وأن يتجنَّب سوء الطبع وسوء السلوك، فذلك هو ما سوف يجلب له راحة البال وهدوء الفكر.

وبتعبير أوضح: إن الآلام والمصائب المختلفة التي تُصيب الإنسان وتسبّب له القلق وتشوّش الخاطر، تنقسم، من حيث جذورها، إلى قسمين اثنين:

القسم الأول: هو المصائب التي تنجم عن أعمال الإنسان المذمومة، كارتكابه الجرائم التي تستوجب عقوبته، أو يظلم ويستكبر فينبذه المجتمع ويطرده من بين صفوفه، أو ينغمس في الفساد فيفقد كرامته واحترام الناس له، أو يقوم بما يقوم به الجهلاء فيسبّب الكثير من الأضرار والخسائر ويوقع نفسه في العذاب والألم والضعة والذلة. إن أمثال هذه النكبات الناشئة عن الإثم وارتكاب الأعمال القبيحة، أو عن الجهل، إنّما تُصيب المذنبين والذين لا يتحمّلون مسؤولية ما، وقد قال القرآن الكريم في ذلك.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٢٥].

فإذا عزم هؤلاء على إصلاح أنفسهم، وتجنّبوا الأخلاق السيِّئة والأعمال القبيحة، زالت مصائبهم، ونجوا من القلق وتبلبل الخاطر. وعلى العكس من ذلك إذا هم استمروا على الإثم وسوء الخلق، فإن تلك المصائب تستمر أيضاً وتكون من دواعي

---

(٢٥) الشّورى: ٣٠.

عذاب صاحبها وشقائه.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«إيّاكَ أنْ تَسْتَهْلَ رُكُوبَ المعاصِي، فإنّها تَكْسُوكَ في الدُّنيَا ذِلَّةً، وَتُكْسِبُكَ في الآخِرَةِ سَخطَ اللهِ»*(٢٦).

والقسم الثاني: هو المصائب التي لا دخل في وقوعها لإرادة المصاب بها ولا لاختياره، بل يقع بعضها نتيجة للتغيّرات الطبيعية في نظام الخلق، كحصول القحط نتيجة للجفاف، أو كموت الأبناء بسبب المرض. وقد تكون هذه المصائب نتيجة للمحيط الفاسد والمجتمع الذي تسوده الأعمال القبيحة، كأن يقوم أشخاص لا إيمان لهم ويفتقرون إلى التربية السليمة، بإساءة استعمال حرية الإرادة التي وهبها الله تعالى لهم، فيسبّبون العذاب والشقاء للأبرياء بما يرتكبونه من ظلم وإجحاف.

هذه المصائب تستقي من التغيّرات الطبيعية أو الحوادث الاجتماعية، وهي لا تُصيب فئة بعينها، بل جميع الناس، طاهرهم وفاسدهم، معرَّضون لها، فيصابون بمختلف البلايا والآلام. يقول القرآن الكريم في ذلك:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفسِكُم إلاّ في كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُم وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾(٢٧).

عندما أُحضِرَ الإمام زين العابدين مع سبايا أهل البيت(ع) إلى مجلس يزيد، تبودل بعض الكلام بينه وبين يزيد، كان منه أن يزيد قال:

يَا علّي بن الحسين، **«ما أصابكُم مِنْ مصيبةٍ فبِمَا كَسبَتْ أيْدِيكُم»**فقالَ عليُّ بنُ الحُسين(ع):

*«كَلّا مَا هَذهِ فينا نَزَلَتْ، إنّما نَزَلَت فِينا: **«مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُم...»**الآية. فَنَحْنُ الّذينَ لا نَأْسى عَلى مَا فَاتَنا مِنَ الدُّنْيَا ولا نَفْرَحُ بِمَا*

(٢٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الأمدي: ١٥٦

(٢٧) الحديد: ٢٢ و ٢٣.

أتانا منها»[٢٨].

كان يزيد يريد أن يعزو حادثة كربلاء الدموية وما أصاب أهل البيت فيها إلى أعمالهم، وأنّه بريء من دمهم، بحسب مفهوم الآية التي قرأها، وكأنّه يريد أن يقول: إن ما أصابكم من قتل وسبي إنّما هو من مردودات أعمالكم. ولكن الإمام السجّاد(ع) ردَّ فريته ودحضها.

إن لفت النظر إلى فناء الدنيا وتغيّر أحوالها، وإلى كوارثها المفاجئة، مما ورد في حديث الإمام الصادق(ع)، إنما هو إشارة إلى أمثال هذه المصائب. إن من خبر الدنيا وفهم ما في طبيعتها من تغيّر وتقلّب، وأراد أن يتحلّى بالصبر وضبط النفس في قبال مصائبها، فلا يستولي عليه القلق والاضطراب، عليه أن يتصوّر نفسه أنّه عرضة دائماً لصروف الزمان وتقلّباته، وأن لا ينسى أبداً تغيّر أحوال الدنيا، وأنّه ليس مأموناً من أن يصل إليه شيء من بلاياها.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ الزَّمَانَ أَنْ لَا يَأْمَنَ الصُّرُوفَ والغِيَرَ*»[٢٩].

---

(٢٨) تفسير البرهان، «الحديد»: ١٠٩١.

(٢٩) فهرست الغرر: ١٤٨.

الفصل السابع عشر

«إِذَا نَزَلَ بِكَ مَكْرُوهٌ فَانْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَكَ حِيلَةٌ فَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ حِيلَةٌ فَلَا تَجْزَعْ»

الإمام علي(ع)

علاج القلق

بقضاء من الله الحكيم أُقيم عالم الطبيعة على الحركة، وطبيعته قد جُبلت على التغيُّر والتحوُّل، بحيث إن جميع كائنات هذا العالم في تغيُّر وتبدُّل دائمين.

إن الإنسان، بدافع من حبِّه لذاته وميوله الغريزية، يتمنَّى أن تتحرك جميع ظواهر العالم وحوادثه بما يعود عليه بالمنفعة والفائدة، وأن يتحقّق جميع ما يتمنّاه، وأن لا يواجه في حياته خيبة أمل أو إخفاقاً، وأن لا يُصيبه ما يبعث على الألم والعذاب. غير أن هذه أُمنيات مستحيلة، لأن الخالق الحكيم قد أقام العالم على مجموعة من القوانين والسنن بحيث إن كل قانون منها يهتدي بهداية الله في مسيرته التكوينية مجبراً غير مخيّر. إن رغبة الإنسان أو عدم رغبته لا تأثير لهما في قوانين الخلق، وإن تلك القوانين الثابتة لا تتغير بحسب رغبة الإنسان، وإن هذا النظام الجبّار الذي ينظم العالم لا يحيد عن طريقه الطبيعي المرسوم بما يُعجب هذا وذاك من أبناء البشر.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: *«إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يُجْرِي الأُمُورَ عَلى مَا يَقْتَضيهِ، لَا عَلى مَا تَرْتَضيهِ»*[1].

العقل والمنطق يوجبان على المرء أن يخضع لقوانين الخلق، ويكيِّف نفسه لتقبُّل نظام الكون، وأن لا يُنمِّي في رأسه الأمنيات المستحيلة، وأن لا يتوقع من الدنيا أن تسير على وفق هوا ، وتُحقق جميع رغباته، بل عليه أن ينسجم مع القوانين الكونية، ويوائم رغباته مع السنن التكوينية، لكي يُتاح له أن ينعم بنعم الدنيا على قدر الإمكان، وأن يتجنّب أضرارها على قدر الإمكان.

على الإنسان أن يعترف بأن أحداً لا يمكن أن يمنع وقوع أحداث العالم الضارَّة، وأن عليه، لذلك أن يكيِّف نفسه بحيث يكون قادراً على مواجهتها بمعنوية وإرادة قويتين، فيربِّي في نفسه القدرة على الصبر والجلد، لكيلا يصبح في قبال النوائب ضعيفاً وذليلاً، ولا يقع ضحية للقلق والاضطراب، بل يقف بقوة وصلابة في وجه المصائب والآلام. إن الوصول إلى هذا الكمال المعنوي لا يكون إلّا بكبح جماح الغرائز والأهواء النفسية، بقهر قوة التوهّم والتخيّل، وهو عمل ليس باليسير تحقيقه، بل يتطلّب المجاهدة الدائمة، والسعي الحثيث، وتنفيذ البرامج النفسية والعملية الشاملة.

القلق أو الكارثة الكبرى

لقد بحث الفلاسفة وعلماء النفس والأخلاق، خلال قرون طويلة موضوع القلق، قليلًا أو كثيراً، وعرضوا طرقاً لمكافحة تشوّش الخاطر، ولكن هذه المشكلة الكبيرة بقيت حتى الآن دون الحلّ المقتضي.

العالِم الغربي المعروف والمتخصص في علم النفس العملي والأخلاق الحياتية (ديل كارنيجي)، ألّف كتاباً بعنوان «قانون الحياة» تطرّق فيه إلى هذا الموضوع. يقول في مقدّمة هذا الكتاب:

---

(١) فهرست الغرر: ١٣٧.

«أدركت بمرور السنين أن من المشكلات المهمّة في حياة الإنسان البالغ هي القلق وتشوّش الخاطر. كان معظم طلابي من الحرفيِّين، والموظفين، والبائعين، والمهندسين، والمحاسبين، وكانت لكل منهم مشكلاته. حتى الموظّفات وربّات البيوت اللواتي كنَّ يحضرن الدرس، كنَّ يشتكين من مشكلاتهنَّ. لذلك كانت الحاجة إلى هذا الكتاب ورسالته في القضاء على القلق شديدة.

لهذا اتّجهتُ إلى المكتبة العامة في مدينة نيويورك، ولكني دُهشت إذ لم أجد في تلك المكتبة العظمى سوى اثنين وعشرين كتاباً أُدرجت تحت عنوان «القلق»، مع أنّي وجدت تحت عنوان «كيزم» مئة وتسعة وثمانين كتاباً، أيّ نحو تسعة أضعاف ما كُتب حول «القلق». أليس هذا ما يُثير الدهشة والعجب؟ مع أنّ القلق من أهم مشكلات البشر.

ليس عجباً إذن أن يقول (ديفيد سيبوري) في كتابه: إنّنا نصل إلى سن الرشد والكمال من دون أن نكون قد تهيَّأنا أدنى تهيؤ لتحمّل الضغط والبلاء. والنتيجة هي أن يحتل المرضى بالأمراض العصبية والنفسية أكثر من نصف أسِرَّة المستشفيات.

لقد قرأت تلك الكتب الأثنين والعشرين في مكتبة نيويورك قراءة دقيقة، ثم رحت أشتري كل كتاب عن هذا الموضوع وصلت إليه يدي، ولكني لم أجد بينها كتاباً جديراً بالتدريس لطلابي ونافعاً لهم. لذلك عزمت على أن أكتب الكتاب المطلوب بنفسي.

منذ سبع سنوات وأنا أعدُّ نفسي لكتابة الكتاب. قرأت ما كتبه الفلاسفة في مختلف العُصُر عن القلق، ودرست سير حياة مئات الأشخاص من عظماء العالم، من «كنفوشيوس» حتى «تشرشل»، وأجريت المقابلات مع عدد من الشخصيات البارزة والممتازة. كانت هذه مجرد مقدّمات لعملي. ثم لكي أصل إلى النتيجة المطلوبة بقيت مدة خمس سنوات في مختبر خاص، أقصد صف الدرس الليلي، أُجري فيه التجارب من أجل الانتصار على القلق. وفضلاً عن ذلك درست نصوص محاضرات أُلقيت في مئة وسبعين مدرسة ليلية في مختلف

مدن أمريكا وكندا، كانت قد حصلت على جوائز في هذا الموضوع، وكذلك مئات الرسائل التي كانت تصلني بالبريد. فهذا الكتاب حصيلة كل ذلك»[٢].

بحسب قول السيد (ديل كارنيجي) كتاب «قانون الحياة» الذي كُتب في هذا القرن هو خلاصة أفكار فلاسفة الأمس وعلماء اليوم حول القلق. كما أنّه يضمّ تفاصيل ودقائق وردت في الرسائل التي كان بعض ذوي الإدراك من الناس يكتبونها في رسائلهم أو يلقونها في محاضراتهم، أو أنها كانت حصيلة تجاربهم وخبراتهم.

إن أئمة المسلمين، قبل أربعة عشر قرناً، واعتماداً على قوة الإيمان، والاستناد إلى التعاليم النفسية وتحليل الحالات الروحية، علّموا الناس كيفية مكافحة القلق. ولكي يتربّى أتباعهم أقوياء وذوي إرادة، يستطيعون بها مواجهة المشكلات ومجالدة الصعاب، فلا يستسلمون للقلق واضطراب البال، علّموهم القيام ببعض الأعمال وعيّنوا لهم منهاج عملهم. ونحن في هذا الفصل سندرس بإيجاز بعضاً من تلك التعاليم. ولكي يزداد القرّاء المحترمون قرباً من الوقوف على شمولية الإسلام وقيمة التعاليم الإسلامية، نشير في كل مناسبة إلى بعض المقولات الحساسة في كتاب «قانون الحياة» بصفته خلاصة البحث والتحقيق في عالمنا المعاصر حول هذا الموضوع.

الإسلام ومكافحة القلق

إن الأسف على ما مضى والخوف من المستقبل، من جملة عوامل القلق والاضطراب. فإذا استسلم المرء لهذين العاملين الضارَّين، وسمح لصفحة فكره أن تكون ميداناً تجول وتصول فيه التخيّلات عن الأمس وعن الغد، فإنّه لن يقدر على فهم حقائق الحياة ذلك الفهم المطلوب، وينكص عن القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه في حاضره، فيقضي سنوات عمره الثمينة بالأفكار الفارغة والأوهام الأليمة، فتنصرم أيام حياته في قلق ومرارة. إنّه لكي ينجو من هذه التعاسة والشقاء لا بدَّ له

---

(٢) سير الحياة: ٣.

من أن يعزم عزماً أكيداً على أن يطرد من فكره كل تفكير عن الماضي والمستقبل، وأنْ يلتفت إلى الحاضر الموجود، وأن يستثمر الفرصة المتاحة له على خير وجه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: *«الأيّامُ ثلاثةٌ، فيومٌ مَضى لا يُدرَك، ويومٌ النَّاسُ فيه فينبَغي أنْ يغتَنِموهُ، وغداً إنَّما في أيديهِمْ أملُهُ»* [٣].

«من المحزن أن نعترف بأنّ من نتائج حياتنا المؤسفة اليوم هو أن نجد أكثر من نصف الأسرَّة في المستشفيات يحتلُّها المصابون بالأمراض العصبية والنفسية. أيّ أولئك الذين أحنت أظهرهم أثقال الهموم والغموم. مع ذلك فإنّ أكثر هؤلاء يمكن شفاؤهم بسرعة وترك المستشفى ليمشوا في الشوارع بروح مرحة وأسارير ضاحكة، بشرط أن يحتفظوا بحساب كل يوم معزولاً ومنفصلاً، فلا يخلطوا الأمس باليوم، ولا اليوم بالغد.

إنّنا نقف الآن عند نقطة تلاقي الماضي والمستقبل المعدومين. فمن المستحيل علينا أن نعيش، حتى للحظة واحدة، في أحد هذين الزمانين غير الموجودين. فكلّما أجهدنا أنفسنا وأتعبناها فلن تكون النتيجة سوى تحطيم أفكارنا وإجهاد أجسامنا. فلماذا، إذن، لا نرضى عن الزمن الوحيد الذي نعيش فيه فعلاً؟»[٤].

إن العمر الثمين الباعث على سعادة الإنسان ونجاحه ينقضي مكرهاً. فإذا حسبنا عمر الإنسان بعدد الأنفاس، فذلك يعني أن تردد كل نفس ينقص وحدة نقدية واحدة من رصيده، ويقرّ به بمقدار نفس واحد من نهاية الحياة. فما من أحد غيرنا قادر على استثمار وحدات العمر هذه في الأعمال المفيدة المثمرة لمصلحتنا، أو على صرفها فيما لا فائدة فيه، أو حتى فيما فيه الضرر لنا.

إن من يصرف كل يوم بضع ساعات، أو حتى بضع دقائق، من وقته للتأسّف على الماضي، إنّما يمزج يومه بالغصّة والمرارة، بل إنّه بعمله هذا يضيع جانباً من رصيد

---

(٣) تحف العقول، الحراني: ٣٢٤.

(٤) سر الحياة: ١٢.

عمره، ويتسبّب في خلق القلق والتعاسة لنفسه في غده.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*الإشْتِغالُ بِالفائِتِ يُضيِّعُ الوَقْتَ*»[٥].

الخـوف من المستقبل، مثل الأسف على الماضي، يبعث على القلق، ويضيِّع الوقت، ويحول دون القيام بنشاط نافع ومثمر. إن مستقبل كل امرىءٍ منوط بحاله الحاضرة، فمن يستثمر الفرصة المتاحة له استثماراً سليمًا، وينفّذ واجبات يومه على خير وجه، يتوقع غداً حسناً مشرقاً، حسب القاعدة، ولكن الذي يُؤسف له أن الخوف من المستقبل يسبب الإخلال بهذه الحالة، فيمنع الإنسان من القيام بالعمل الصحيح، ويولّد له القلق والعذاب في حاضره، والتعاسة والشقاء في غده.

«المستقبل هو هذا اليوم، والغد لا وجود له، وما يوم الخلاص والنّجاة إلّا هذا اليوم. إن الـذين يقلقـون على مستقبلهم يضيِّعـون طاقاتهم، ويخلقون لأنفسهم المشكلات والإبتلاءات الفكرية والنفسية»[٦].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*حَلاَوَةُ الأمْنِ يُنَكِّدُهَا مُرُّ الخَوْفِ والحَذَرِ*»[٧].

«يقول أحد الحكماء: لا أقلق على المستقبل أبداً، لأنّي أعلم أن أحداً من بني البشر لا يستطيع أن يجسِّد في ذهنه ما سوف يقع في المستقبل، إذ إن هناك عوامل لا تُحصى تؤثّر في المستقبل ولا يمكن التكهُّن بها ومعرفة آثارها، فلماذا، إذن، أقلق عبثاً»[٨].

«ويقول حكيم آخر أيضاً: إننا نتحمّل ما يكفي من القلق والتوجّس في كل يوم، من دون أن تكون هناك حاجة ما إلى أن نزيد ذلك بالهمّ والغمّ على الماضي أو الخوف من المستقبل، وما أكثر الليالي التي يجفونا فيها النوم، وتعذّبنا الهموم، لتفكيرنا فيما كان علينا أن نفعل فلم نفعل، أو ماذا يجب أن نفعل. إذا وقع

---

(٥) فهرست الغرر: ٣١٦.

(٦) سير الحياة: ٨.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٣٨١.

(٨) سير الحياة: ٧٧.

الحادث الفلاني فإنا نروح نتصوّر أنواع الوقائع والأحداث المخيفة، ونسائل أنفسنا: ماذا نفعل إذا وقع كذا؟...ولكن ينبغي أن لا ننسى أنّ ما يشغل بالنا اليوم بهذه الحرارة والشدة سوف نراه غداً بعين أُخرى، وحتى أن ضياء النهار لم يمح أفكار الليل، فإنّها سوف تبدو لنا بشكل مختلف. إن من أبسط الطرق لتوضيح المسألة هو أن نسأل أنفسنا: هل ستبقى أهمية هذه المشكلة في السنة القادمة، أو حتى في الإسبوع القادم، على أهميتها التي هي عليه الآن في نظرنا؟»[٩].

لقهر القلق والاضطراب، علينا أن نُغلق أبواب الأمس والغد أمامنا، فلا نثقل حِمل يومنا الذي نحن فيه، بل نفكّر كل يوم في ذلك اليوم نفسه، وأن ننفّذ بكل دقّة وصدق المسؤوليات الملقاة على عواتقنا في الحاضر. وبهذا وحده نستطيع أن ننجو من التأسف على الماضي، والتخوُّف من المستقبل، فنستثمر رأسمال العمر وسنوات الحياة بالطريقة الصحيحة المثمرة، موفّرين لأنفسنا دواعي سعادتنا وراحة بالنا.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*إِعْمَلْ لِكُلِّ يَوْمٍ بِمَا فيهِ تَرْشُدُ*»[١٠].

لا بدَّ من القول بأنّ العاقل لا يأسى على ما فاته، وإنّما هو يعتبر به، ويجعل من تجربة الأمس نبراساً يهتدي به. كما أنّه لا ينتابه بشأن المستقبل خوف موهوم، ولكنّه لا ينسى العلاقة التي تربط اليوم بالغد، فلكيلا يشقى في الغد، يراقب اليوم أعماله ويتجنَّب السيِّئات، ويؤدِّي التكاليف الملقاة على عاتقه. وعليه، فإنّ الأسف على الماضي مذموم، ولكن التعلّم من تجارب الماضي ممدوح. كذلك الخوف الموهوم من المستقبل والذي لا أساس له من الصحّة، ضارّ، أمّا الخوف العقلائي الذي يصون الإنسان من الكوارث والأخطار، فإنّه مفيد ونافع.

«فكّروا في غدكم كيفما تشاؤون. فكّروا فيه بتمعّن، وخطّطوا له، وتهيأوا له، ولكن حذار أن يتطرّق إليكم القلق والاضطراب. كان قائد القوات البحرية

---

(٩) معارف دنيا العلوم: ٣٢٠.

(١٠) جعفريات: ٢٣٣.

الأمريكية يقول: لقد كنت أُجهّز خير جنودي بأفضل الأسلحة وأُرسلهم إلى أعقد المهمّات. هذا كل ما في الأمر. فإذا غرقت سفينة، ما كنت قادراً على استخراجها من الأعماق، وإذا كانت في حالة الغرق كذلك ما كنت قادراً على منعها من الغرق. بل كنت أرى أن خيراً من ذلك هو أن أصرف وقتي للتفكير في الغد لئلا يستولي عليَّ الهمّ بشأن الأمس»[١١].

إنّ الذين يتّصفون بقصر النظر وضعف التمييز، عندما يرتكبون خطأً وينالهم منه الضرر، يبدون وكأنهم قد نسوا ما ارتكبوا من خطأ، ويركّزون كل همّهم في التحسّر على ما فقدوه فيتأسفون عليه. أما المتّصفون بالتعقُّل فإنّهم في أمثال هذه الحالات يطردون التفكير في الخسائر من أذهانهم، ولا يأسفون عليها، ولا يصرفون أعمارهم الثمينة عبثاً، ولكنهم لا ينسون الخطأ الذي ارتكبوه لكيلا يكرروا ارتكابه ثانية.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*لَا يُلْسَعُ العاقِلُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ*»[١٢].

والجهلاء ينتابهم الخوف من المستقبل، ويصنعون لأنفسهم في عالم الخيال غداً مظلماً، ويتصوّرونوقوع كوارث محتملة فيستولي عليهم القلق والاضطراب، ويقضُّ مضاجعهم التوجُّس وتوقّع الشّر، مما يمنعهم من القيام بأعمالهم على الوجه الصحيح. فتكون النتيجة أنّهم يقضون يومهم الحاضر في قلق واضطراب، ولن يكون غدهم خيراً من يومهم مرارة وعذاباً.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*الخائِفُ لَا عَيْشَ لَهُ*»[١٣].

العاقل لا يخاف المستقبل دون سبب، ولكنّه يخشى الكوارث الحقيقية الناجمة عن المعاصي وعدم أداء الواجبات، فهو لذلك لا يترك الحذر فيما يقول وما يفعل، ويتجنّب القيام بالأعمال القبيحة الفاسدة، ولا ينكص عن القيام بما عُهد إليه، ولا يتهاون في أداء الفرائض، ولا يُقدم بإرادته واختياره على ارتكاب ما يسبّب تعاسته

---

(١١) سير الحياة: ١٠.

(١٢) بحار الأنوار، المجلسي ١: ٤٣.

(١٣) فهرست الغرر: ٩٧.

وعذابه. هذا الخوف النافع المفيد، الذي يضمن تنفيذ التعاليم وإيجاد السعادة المادية والمعنوية، ممدوح عند العقلاء وهو من لوازم العيش العقلائي، كما أن القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تُوصي به وتؤكده.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٤].

«إن للخوف المعقول أثراً مفيداً، لأنّه ينبّهنا إلى وجود الأخطار الحقيقية. هذا النوع من الخوف هو الذي حمل الإنسان على بناء الخطوط الدفاعية لصدّ الأخطار، وعلى تجهيز نفسه بما يدفع عنه الجوع والمرض والأخطار من الخارج. أما الخوف غير المعقول، فعلى العكس من ذلك، يُضعف من قوانا ويشلّ نشاطنا»[١٥].

بناءً على ذلك، فالأسف على الماضي، والخوف من المستقبل، من العوامل التي تسبّب القلق، فمن يريد التحرّر من القلق عليه أن يطرح جانباً التفكير في الأمس وفي الغد، ويتخلّى عن الأوهام الخاصة بالماضي والمستقبل، وأن لا يُثقل حمله الحاضر، بل يوجّه كل اهتمامه نحو أداء واجباته، ونحو تنفيذ ما أُوكل إلى مسؤوليته من الشؤون بكل صدق ودقة.

من الطرق الأخرى لمكافحة القلق هو تحليل الباعث عليه وعلى إيجاد الاضطراب والتوجّس. كثيراً ما يؤدي وقوع حادث ما إلى إثارة القلق والاضطراب في نفوسنا، فيستولي علينا الرعب، ويزايل النوم أعيننا، ويفارق الهدوء قلوبنا، إلّاأن قلقنا ذاك يكون غامضاً ومظلماً، ولا نعرف ما الذي يثيره فينا، وممَّ نخاف، وما هي العوامل التي تثير فينا الاضطراب والتوتر إلى هذا الحدّ. من سوء الحظ أن تنشط قوة المخيلة في أمثال هذه الحالات وتزيد في الطين بلّة بما تصوّره من الصور الموهومة

---

(١٤) النور: ٦٣.

(١٥) اعجاز التحليل النفسي: ١٠.

الخيالية، وتضخّمه من الأخطار المجهولة. وإذا استمرت هذه الحالة المأساوية التي لا تُطاق، وطال أمد القلق في قلوبنا، فلا يمضي وقت طويل حتى تنحرف صحتنا عن طريق السلامة، ومن ثم لا يُستبعد أن نُصاب بأمراض يصعب علاجها.

«لا تُزيدوا آلامكم الحقيقية بالتصوّر والتخيّل. إنّنا جميعاً قد مرَّ بنا كيف يمكن لحادث صغير وبسيط أن يبدو في أعيننا مهمًا وكبيراً بحيث إنّه يحملنا على أن نخطىء في تقديره. وغالباً نلاحظ أن المشكلة الرئيسة أو الموضوع الأساس ليس هو الذي يثير قلقنا واضطرابنا، بل الذي فعل ذلك هو المخاوف الصغيرة التي لا أهمية لها والتي نضيفها على تلك المشكلة بأنفسنا، وهذا أشبه بالأصداف التي تلتصق بجدر السفينة المحمّلة أصلًا بأحمالها، فتزيد من ثقلها»[١٦].

إذا استطعنا في أمثال هذه الحالات أن نتوسّل بالحكمة فنفكر تفكيراً سليمًا، ونحلّل الباعث على إيجاد القلق من منظور واقعي، وندرس جوانبه المختلفة بكل دقة، ونتّخذ قرارنا الحكيم بخوض كل جزء من أجزائه، فإنّ كابوس الرعب يتحطّم تحطيمًا، ويتلاشى القلق الموهوم من الخطر الحقيقي، ويخفّ ضغط اضطراب البال إلى حدٍ كبير.

وبتعبير آخر، قد يبدو حدث ذهني أو خارجي بكلّيته أمراً كبيراً ومهمًّاً بحيث يقلقنا أشد القلق، ولكننا إذا قمنا بتحليل ذلك الحدث بتفاصيله، وجزّأناه إلى أجزائه المختلفة، أمكن التخفيف كثيراً من ثقله وجعله صغيراً يمكن تحمُّله.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*تَأْتِينا أَشْياءُ نَسْتَكْثِرُهَا إِذَا جَمَعْناها، ونَسْتَقِلُّهَا إِذَا قَسَمْنَاهَا*»[١٧].

على ضوء التحليل والتقويم العقليَّين يزول ذلك القسم التخيُّلي وغير الواقعي من القلق. أما ذلك القسم الواقعي من القلق والذي يمكن تجنُّبه، فإنّ العقل يقدّم

---

(١٦) معارف دنيا العلوم: ٣٢٠.

(١٧) فهرست الغرر: ٣٤٢.

طريقة إزالته. وهناك القسم الواقعي من القلق الذي لا يستطيع الشخص القلق، للحالة التي هو فيها، إزالته، فيوصيه العقل بالخضوع له، ولكي يتخلّص من الخوف واضطراب الفكر، عليه أن يستعدَّ لقبول ما يخشاه ويخافه، لأنّ الخوف من وقوع الحدث أشد على المرء من مواجهة الحدث نفسه.

«يقول أحد العلماء: إذا كان توقّع نيل اللذّة ألذّ من اللذّة نفسها في الغالب، فلا تنسوا أن المحنة كتلك أيضاً. أيّ إنّ الخوف من توقّع المصيبة أفظع في الغالب من وقوع المصيبة نفسها»[١٨].

«يعترف أحد خطباء القرن التاسع عشر الإنكليز المشهورين أنّه قبل أسابيع من موعد إلقاء أول خطبة له كان يشعر بأشد القلق بحيث إنّه كان يتمنّى أن يقع وتُكسر رجله أثناء ذهابه لإلقاء الخطبة حتى يُعفى من إلقائها. وفي اللحظات التي كان يتقدّم فيها نحو منصة الخطابة كان على درجة من الارتباك والاضطراب بحيث إن مظهره كان يُرثى له. وفي يوم من الأيام قرّر أن يدرس حالته دراسة دقيقة، فسأل نفسه: ترى ما الخطر الذي يمكن أن يُصيبه وهو واقف يخطب؟ لا شكّ أنّه لن يحدث له شيء مهم، ولن تنطبق السماء على الأرض. كان الاضطراب الشديد قد قلب هذه المسألة الخاصة إلى كابوس مخيف. وفجأة تضاءل هذا القلق الشديد حتى بلغ حجمه الطبيعي، وتخلّص تفكيره من الاضطراب الموهوم، ولاحظ أنّه يتحدّث بطلاقة ويسر، حتى أنّه أصبح أخيراً أحد مشاهير خطباء زمانه»[١٩].

عن الإمام علي(ع)، قال: *«إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فيهِ فإِنّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمّا تَخافُ مِنْهُ»*[٢٠].

«يقول ا لمهندس (كارير): في شبابي أرسلتني الشركة التي كنت أعمل فيها لنصب جهاز لتصفية الغاز في مصنع للزجاج في (بطرس بروغ) وكانت طريقة

---

(١٨) معارف دنيا العلوم: ٢٦.

(١٩) معارف دنيا العلوم: ٤٧.

(٢٠) نهج البلاغة، الحكمة: ١٦٦.

التصفية جديدة.وعند تشغيل الجهاز بعد نصبه لم تحصل النتيجة المطلوبة التي تعهَّدنا بها. فأدار رأسي هذا الإخفاق وشعرت كأن ضربة شديدة قد نزلت على رأسي بحيث لم أعُد أستطيع تركيز أفكاري، وتلبَّكت معدتي وأمعائي بشكل عجيب بسبب القلق والارتباك الشديدين اللَّذين كنت أُحسُّ بهما مما طرد النوم عن أجفاني. ولكن عقلي أهاب بي أن لا فائدة من الاضطراب وتشوّش الفكر. فوضعت خطة خاصة لمكافحة القلق، ثم عدت إلى العمل حتى استطعت أن أحصل على النتيجة المطلوبة على أحسن وجه. كانت تلك الخطة تتألف من ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: بدأت بتحليل نجاحي تحليلاً محايداً ومن دون خوف لمعرفة أسوأ الاحتمالات عند الإخفاق وعواقبه. لا شكَّ أنَّ أحداً ما كان ليلقيني في السجن أو يُرسلني للإعدام، بسبب ذلك. ولكن كان هناك احتمال طردي من عملي.

الخطوة الثانية: بعد أن وضعت نصب عيني أسوأ العواقب التي يمكن أن تحيق بي، أعـددت نفسي لتقبّلها إذا وقع المحذور، وقلت في نفسي: إن هذا الإخفاق سوف يسيء إلى سمعتي، وقد يُفقدني عملي، ولكن إذا ما حصل هذا فإنّي قادر على الحصول على عمل آخر. وهكذا بعد تقويمي للعواقب المحتملة وإعدادي نفسي لتحمّلها، انتابتني في الحال حالة عجيبة من الهدوء والراحة ممّا لم أعهدها من قبل.

الخـطوة الثالثة: على آثر ذلك سعيت بكل هدوء وبرود إلى العثور على طريق لعـلاج الإخفاق. وبعد إجراء بضع تجارب، أدركت أنّنا بصرف نحو خمسة آلاف دولار أُخرى لابتياع بعض الأدوات الإضافية، نتمكّن من التغلّب على المشكلة، وهـذا ما فعلته، وتحقّق ما كنت أريد. ولكن لو إنني كنت قد واصلت الإستسلام للقلق والاضطراب، لما أمكنني أن أنجح في عملي، إذ مع وجود القلق يُصاب التفكير بالارتباك، ويفقد المرء القدرة على اتّخاذ القرار

الصائب. ولكننا إذا هيّأنا أنفسنا لتقبُّل أسوأ العواقب، فإنّنا نستطيع طرد التصوّرات الغامضة من أفكارنا، وتركيز اهتمامنا على إيجاد حلٍّ لمشكلتنا»[٢١].

يستفاد من ذلك أنّه في حالة القلق علينا أن نتوسّل بالعقل، وأن نحلل حالتنا النفسية تحليلاً دقيقاً، وأن نتفحّص المشكلة الكبرى التي أدّت إلى اضطراب خواطرنا، ثم نقرر بعزم على مقاومة المشكلة، وأن نعايش صعوباتها ومنغّصاتها، عندئذٍ ستصغر المشكلة الكبرى ويزايلنا الخوف والقلق، وتتلاشى الضغوط النفسية تلقائياً. قال الإمام علي(ع) في هذا:

«إِذَا خِفْتَ صُعُوبَةَ أَمْرٍ فَاصْعُبْ لَهُ يَذِلُّ لَكَ»[٢٢].

من بين العوامل المؤثّرة في تخفيف قلق القلقين وتسكين خواطرهم هو ملاحظة أحوال أُولئك المصابين بآلام أشدّ وبابتلاءات أكبر. فضحية القلق بسبب الفقر، أو المرض، والمشكلات العائلية، وغير ذلك من معضلات الحياة، إذا ما قارن حاله بأحوال من هو أشدُّ منه قلقاً وأقسى ألماً، فإنّ قلقه سيخفّ، والضغط النفسي الواقع عليه سيضعف، فيرتاح بعض الشيء، ويحسُّ بنوع من الرضى بما هو فيه بالنسبة لما فيه الشخص الآخر، ويشكر الله على ذلك. وهذا ما أشار إليه أئمة المسلمين في كثير من أحاديثهم وأوصوا به أتباعهم.

عن النبيّ(ص)، أنّه قال: *«مَنْ نَظَرَ في دِينِهِ إلى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدى بِهِ، ونظَرَ في دُنْياهُ إلى مَنْ هوَ دُونَهُ فحمِدَ اللهَ على مَا فضَّلَهُ بِهِ، كتبهُ اللهُ شاكِراً وصَابِراً»*[٢٣].

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«أُنْظُرْ إلى مَنْ هوَ دُونَكَ فتكُونَ لأنْعُمِ اللهِ شاكِراً ولِمَزيدِهِ مُسْتَوْجِباً ولِجُودِهِ ساكِناً»*[٢٤].

يحكي (ديل كارنيجي) في كتابه، عن لسان رجل في ضيق من أمره بسبب دين

---

(٢١) سير الحياة: ١٧.

(٢٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٣١٩.

(٢٣) تاريخ اليعقوبي: ٥٩.

(٢٤) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٦٤.

في ذمّته لا يقدر على سداده، وبسبب اضطراره إلى إغلاق متجره على أثر مشكلات الحياة، فيقول:

«كنت أمشي في الشارع كالمهزوم، وقد فقدت القدرة على الكفاح لافتقاري إلى قوة الإيمان والأمل. وفجأة لفت نظري رجل قد فقد رجليه، أُجْلِسَ على مقعد خشبي صغير ذي أربع عجلات، ويستخدم قطعتي خشب لدفع عجلته إلى الأمام. واجهته وجهاً لوجه عندما عبر الشارع إلى الرصيف الآخر من الشارع، وكان يحاول رفع نفسه قليلاً للإنتقال من عرض الشارع إلى الرصيف. في هذه اللحظة ألتقت أعيننا، فحيَّاني بابتسامة حارَّة، وأبدى أعجابه بلطف الجو، وقال ألا تراه كذلك؟ كنت خلال مراقبتي له قد أدركت مدى غناي والنعمة التي أنا فيها. لقد كنت صاحب قدمين أستطيع أن أمشي بهما، فخجلت من نفسي لكل ذلك الهمّ والغمّ اللّذين كنت أُعاني منهما، وقلت في نفسي: إذا كان هذا الرجل المقطوع الرجلين يستطيع أن يكون فرحاً مستبشراً، فعلّي أنا القوي وأملك رجلين سليمتين أن أكون أشدَّ منه فرحاً واستبشاراً. وشعرت بقوة جديدة تدبُّ في كياني. كنت قد عزمت على أن استقرض مئة دولار من المصرف لتمشية أُموري، أما الآن فقد واتتني الجرأة على استقراض مئتي دولار. وفعلاً نجحت في الاقتراض، وفي العثور على عمل. واليوم تطالعني العبارة التالية التي كتبتها على مرآة الحمام لأقرأها كل يوم:

كنت مهموماً لأنّي لم أكن أملك حذاء، حتى رأيت رجلاً لا يملك رجلين ليحتذي»[٢٥].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*أكثِرِ النَّظَرَ إلى منْ فُضِّلْتَ عليْهِ، فإنَّ ذلِكَ منْ أبْوابِ الشُّكْرِ*»[٢٦].

«يقول (جون بالمر) من أهالي نيوجرسي: بعد إنهائي الخدمة العسكرية

---

(٢٥) سير الحياة: ١١٨.

(٢٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ١١٧.

اخترت عملاً حرّاً ثابرت عليه بجد. في البداية كانت الأمور تجري على ما أُحب، ولكن بعد فترة من الزمن بدأت المشكلات بالظهور، وعلى أثر شعوري بالقلق والتوجّس أخذت أخلاقي تسوء، وأسأت الأدب في تعاملي مع الناس، كنت دائم الشكـوى والتذمّر. وفي أحد الأيام قال لي شاب كان قد أمضى خدمته العسكرية في جبهة الحرب وأُصيب بعاهة:

أتظن أنّك أنت الوحيد الذي يواجه المشكلات في هذه الدنيا؟ ماذا في أن تُغلق متجرك بضعة أيام؟ إنّك تملك أشياء كثيرة تُوجب عليك الشكر، ولكنك دائم التذمّر والشكوى. لكم وددت أن أكون في مكانك! انظر إليَّ، إنّني لا أملك سوى يد واحدة، ونصف وجهي قد أخذته قنبلة، ومع ذلك لا أشكو ولا أتذمّر. فإذا لم تغيّر سلوكك هذا فإنّك لا تضيّع عملك وحده، بل ستضيّع معه صحتك، وكذلك أسرتك وأصدقاءك.

هذه الكلمات أوقفتني في منتصف الطريق الذي كنت أسير فيه، وجعلتني ألتفت إلى المزايا التي أملكها ممّا لم أكن ألتفت إليها من قبل. فقرّرت منذ تلك اللحظة أن أغيّر نفسي، وهكذا كان»[٢٧].

«يقول (شوبنهاور): يندر أن نرضى عمَّا في أيدينا ونفرح به، ولكنّنا دائمًا نحمل همّ ما ليس في أيدينا»[٢٨].

كثـير من النـاس، على الرغم مما يتمتّعون به من النعم المتنوعة يتذمّرون ويتشكون، غافلين عن رؤية تلك النعم. إنّهم دائمو الالتفات إلى الآخرين، الآخرين الذين يملكون من المال والثروة أكثر مما يملكون، فيستولي عليهم الغمّ والهمّ لكونهم لا يملكـون قدر ما يملك أُولئك، وليسوا في رفاه مثل رفاههم. هؤلاء إذا لم يغيّروا أُسلوب تفكيرهم، ولم يشكروا النعم التي ينعمون بها، فإنّهم سوف يقضون أعمارهم في

---

(٢٧) سير الحياة: ١٢٠.

(٢٨) سير الحياة: ١٢٠. (ن.م).

تجرُّع الغصص في قلق متزايد.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*إيّاكُم أنْ تَمُدُّوا أطْرافَكُم إلى مَا في أيْدي أبْناءِ الدُّنْيَا، فَمَنْ مدَّ طرْفَهُ إلى ذلِكَ طالَ حُزْنُهُ، ولَم يَشْفِ غَيْظُهُ، واسْتَصْغَرَ نِعْمَةَ اللهِ عندَهُ فَيَقِلُّ شُكْرُهُ للهِ*»[٢٩].

البشاشة علاج القلق

وطريق آخر لقهر القلق هو استغلال العلاقة الطبيعية بين الجسم والروح، وذلك بطرد القلق الباطني بالسرور الظاهري، وبالقيام بأعمال جسمية مفرحة نتغافل بها عن الهمّ والغمّ في أنفسنا حتى ننساه شيئاً فشيئاً. وبعبارةٍ أخرى. إنَّ الجسم والروح متّحدان، وعمل كل منهما يؤثّر في الآخر، بفارق أن عمل الجسم يقع تحت اختيارنا وإرادتنا، أما مشاعرنا، وهي من الأمور النفسية، فإنّها لا تخضع لإرادتنا. فمثلاً، التدرّب على الرسم عمل جسمي نقوم به بإرادتنا واختيارنا، وبذلك نزرع في نفوسنا ملكة الرسم. ولكن الإحساس بالغضب إنفعال نفسي، يثور دون تدخّل من إرادتنا واختيارنا، ويؤثّر في أجسامنا من دون أن تكون لنا رغبة في ذلك، فيحتقن الوجه وتُسرع الدورة الدموية وتزداد ضربات القلب.

القلق واضطراب البال من الحالات النفسية غير المنصاعة للإرادة والاختيار. هذا الإحساس الموجع الأليم يؤثّر في الجسم تأثيرات تتناسب شدةً وضعفاً مع شدّة القلق وضعفه، فتتقطب ملامح الوجه ويعلوها العبوس، وتزول البسمة عن الشفاه، والكلام عن اللسان، وتتضاءل الرغبة في معاشرة الناس ولقياهم.

لا يمكن منع الإحساس بالقلق بإرادتنا واختيارنا ولا أن نصوغ حالاتنا النفسية حسبما يعجبنا. ولكننا نستطيع ببعض الأعمال المفرحة المسرّة ـ كحسن المعاشرة، وإظهار العلاقة الحميمة، وتفتّح الأسارير، والأحاديث المسرّة، والابتسامات

---

(٢٩) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٦٤.

الجـذّابـة ـ أن نُفـرّغ أذهاننا من القلق، وأن نطرد الأفكار المشوّشة من رؤوسنا، ونستبدلها بالهدوء والطمأنينة.

«يقول (وليام جيمز) أبو علم النفس العملي: على الرغم من أن العمل تابع للمشاعر في الظاهر، فإنّها متلازمان. إننا بتنظيم العمل وتعديله ـ وهو تحت سيطرة إرادتنا المباشرة ـ نستطيع أن ننظّم المشاعر ـ التي ليست تحت سلطة إرادتنا ـ ونعدّلها. وعليه، إذا لوت السعادة عنك جيدها، فإنّ الطريق الذي يوصلك إلى الابتهاج والسرور هو أن تجلس إلى صحبك، بأسارير ضاحكة، وبروح فرحة طروب، فتجاذبهم أطراف الحديث، وكأنّك لا يشغلك عنهم غم ولا همّ. فأنت عندما تُبدي من نفسك الانبساط والانشراح والنشاط، فلا يمكن بعد ذلك أن تبقى على كآبتك وخمولك»[٣٠].

إنّ البشاشة وتفتُّح الأسارير ـ وهما من دواعي المحبوبية الاجتماعية ومن عوامل مكافحة القلق ـ قد أوصت بهما التعاليم الأخلاقية الإسلامية، وأشار إليهما أئمة المسلمين في أحاديثهم، قائلين إنّ الوجه البشوش محبوب عند الله، وإن على المؤمنين أن يتّسموا بأسارير متفتّحة كواجب أخلاقي.

عن النبيِّ(ص): *«كُنْ بَشّاشاً فإنَّ الله يُحِبُّ البَشّاشِين ويُبْغِضُ العَبُوسَ»*[٣١].

وعن الإمام علي(ع)، قال: *«بِشْرُ المُؤمِنِ في وَجْهِهِ وحُزْنُهُ في قَلْبِهِ»*[٣٢].

روي أنّ يحيى بن زكريا(ع) لقي عيسى ابن مريم، فتبسّم عيسى في وجهه. فقال يحيى: ما لي أراك لاهياً كأنّك آمن؟ فقال عيسى: ما لي أراك عابساً كأنّك آيس. فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا وحي. فأوحى الله تعالى إليهما: *«أحبُّكُما إليَّ أحسَنُكُما خُلقاً»*[٣٣].

---

(٣٠) سير الحياة: ١٠٠.

(٣١) كتاب الشهاب: ٣٨.

(٣٢) فهرست الغرر: ٣٤.

(٣٣) حياة الحيوان، الدميري ٢: ١٦٥.

طريقة أُخرى

من طرق التغلّب الأخرى على القلق هو أن يتحمّل كل امرئٍ المصائب التي لا مناص منها والمشكلات التي ليس لها حلٌّ، طوال حياته، بهدوء واستكانة، وأن يكيِّف نفسه معها، ولا يزيد من قلقه بالجزع وعدم الصبر

أيّ إنّ من أُبتلي بمصيبة، أو واجه مشكلة، عليه، للتخلّص من القلق، أن يسعى لدراسة الحدث الفاجع الذي أصابه، فإن كان مما يمكن حلّه ورفعه، فيبحث عن الوسيلة لذلك، ولا يتوانى في سبيل ذلك عن استخدام كل وسيلة متاحة ومعقولة، ليوفّر لنفسه الاطمئنان وراحة البال.أما إذا كانت المصيبة حتميةولا حلٌّ لها، فعليه أن يستسلم للقضاء دون نقاش، ويتحمّل عناءه وألمه، ولا يكون السبب في انهيار معنويته وضعف جسمه بالحنق وعدم الاصطبار.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*إِذَا نَزَلَ بِكَ مَكْرُوهٌ فَانْظُرْ، فإِنْ كانَ لَكَ حيلَةٌ فَلا تَعْجَزْ، وإِنْ لَم يَكُنْ فيهِ حيلَةٌ فَلا تَجْزَعْ*»[٣٤].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*إِيّاكَ والجَزَعَ، فإِنَّهُ يَقْطَعُ الأَمَلَ، ويُضْعِفُ العَمَلَ، ويُورِثُ الهَمَّ. واعْلَمْ أَنَّ المَخْرَجَ فِي أَمْرَينِ، فَما كانَتْ لَهُ حيلَةٌ فالاحْتِيالُ، وما لَم يَكُنْ لَهُ حيلَةٌ فالاصْطِبارُ*»[٣٥].

«يقول (ديل كارنيجي): ما دامت هناك فرصة لدفع الشر فلا بدَّ من الكفاح. أمّا عندما يحكم العقل السليم بأنّنا نواجه حادثة هذه هي طبيعتها ولا يمكن أن تكون غير ذلك، فإنّنا، للمحافظة على سلامتنا، يجب علينا أن لا نتلفّت يميناً ولا يساراً، ولا أن نتمنّى ما لا يكون.

كان (هاكز) عميد جامعة كولومبيا يقرأ لي هذا الشعر دائمًا، ويعمل به:

---

(٣٤) نهج البلاغة. ابن أبي الحديد ١٠: ٣١٠.

(٣٥) جعفريات: ٢٣٤.

لكل أدواء العالم وآلامها
يوجد دواء أو لا يوجد
فإذا كان، ففتّش عنه بحياتك
وإذا لم يكن، فلا تدع القلق يتطرّق إليك»[٣٦].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*إذَا كانَ القَدَرُ لَا يُرَدُّ فالاحْتِراسُ باطِلٌ*»[٣٧].

«نواجه خلال مراحل حياتنا حوادث ووقائع تاريخية لا يمكن إلّاأن تكون كما هي. في هذه الحالات يكون على إرادتنا أن تقرّر إنّ كانت هذه الحوادث مما لا يمكن علاجها، فنتكيّف لها وننسجم معها، أو أن نثور عليها ونقف في وجهها، فنحيل طعم الحياة إلى العلقم، ونصاب، في النهاية، بالعصاب.

يقول (ويليام جيمز): تقبّلوا الحوادث كما هي، وأعدّوا أنفسكم لتقبّلها كما هي، لأن القبول بالحدث هو الخطوة الأولى نحو التغلّب على عواقب المصائب والمكاره»[٣٨].

الاستسلام للمقدر المحتوم، والقبول بالقضاء الذي لا مردَّ له، من عوامل الانتصار على القلق وإزالة الاضطراب، لأن هذه الحالة تسبغ على الإنسان نوعاً من السكون والهدوء، وتجعل الحياة مقبولة. يقول الإمام علي(ع) في هذا:

«*إنَّكُمْ إنْ رَضيتُمْ بالقَضاءِ طابَ عَيْشُكُم وفُزْتُم بالغَناءِ*»[٣٩].

«عندما نقلع عن مكافحة الحوادث التي لا علاج لها ونتوقف عن محاربتها، تتحرّر القوى التي يمكنها أن تُسبغ السعادة على حياتنا، إذ ما من أحد في هذه الدنيا يملك من القدرة والطاقة ما يمكّنه من مصارعة الحوادث العصية على الحلّ، ويعيش في الوقت نفسه عيشة رضية متجدّدة إنّ على المرء أن يختار أحد الحالين، فإمّا أن ينحني في وجه عواصف الحوادث العصية، وإمّا أن يقاوم حتى

---

(٣٦) سير الحياة: ٧٦.

(٣٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٣١٥.

(٣٨) سير الحياة: ٧٢.

(٣٩) فهرست الغرر: ١٣٨.

يسقط»[٤٠].

هل تكفي وصايا علماء النفس؟

هكذا نجد أن أهم الطرق التي يقترحها العلم اليوم لمكافحة القلق والاضطراب، نفسياً، قد وردت من قبل في التعاليم الإسلامية، وأن أئمة المسلمين قد بيَّنوها منذ قرون عديدة لأصحابهم، مع فارق أن أقوال العلماء ليست سوى وصايا وإرشادات علمية قائمة على قواعد علم النفس العملي. أما التعاليم الدينية، ففضلاً عمّا فيها من جوانب علمية ونفسية، فإنّ لها سنداً من المعنوية والإيمان.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «*الرِّضَى بِمَكْرُوهِ القَضاءِ أرْفَعُ درجَاتِ اليَقينِ*»[٤١].

هنا قد يُطرح هذا السؤال: هل تستطيع البرامج العلمية ووصايا علم النفس وحدها أن تعالج القلق، وتساعد الإنسان على الانتصار على الاضطراب، وتضع حداً لتشويش الخاطر؟

في الإجابة عن هذا السؤال يقول (آرديس ويتمان) ما يلي:

«تقول مؤسسة غالوب للاستفتاءات إنَّ تسعة أشخاص من كل عشرة لهم مشكلات يبحثون عن حلٍّ لها عبثاً. يدل هذا الإحصاء على أنَّ الإنسان مبتلى عموماً بالقلق والاضطراب والهم والغم، ولا يزايله الشعور بالتوجّس والخوف، كمن ارتكب جريمة.

وهناك من ينصحك قائلًا: كفى تعذيباً لنفسك، كنْ لا أُبالِيّاً، وانسَ الهمّ والغم. ولكنك إذا رأيت مركزك معرّضاً للخطر، أو أنّك مصاب بمرض شديد لا علاج له أقعدك عن العمل، أو أن ظهرك قد انحنى تحت ثقل الديون التي تعجز عن تسديدها، أو أن المشهد القبيح للشيخوخة والكبر يتراءى لك مع

---

(٤٠) سير الحياة: ٧٧.

(٤١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٥٣.

ضيق ذات اليد والمسكنة، فكيف يمكنك أن لا تكون مهموماً ولا تحسّ بالقلق؟»[٤٢].

الواقع أن الإرشادات النفسانية، وإن تكن من دون سند إيماني ومعنوي، لها أحياناً تأثيرات إيجابية، قلّت أو كثرت، في تخفيف التشويش والاضطراب، وإيجاد بعض الهدوء والسكينة، مع الأخذ بنظر الاعتبار اختلافات الناس النفسية. ولكن في الحوادث الثقيلة الفاجعة لا تكفي تلك الإرشادات النفسانية لإزالة الجزع والخوف، لإعادة الهدوء والاطمئنان إلى النفوس القلقة، ذلك لأن معظم الناس يفقدون، في الحالات الشديدة، القدرة على تركيز الفكر، ولا يستطيعون تحليل حالتهم النفسية تحليلاً سليمًا، بل حتى لو استطاعوا لما وصلوا إلى النتيجة المطلوبة، ولا يهدأ اضطراب قلوبهم.

أما التعاليم الإسلامية النفسية، القائمة على الإيمان بيوم الجزاء، فإنّها مفيدة في جميع الحالات، وتنقذ المؤمنين الصادقين من القلق والتشوّش في أشد الحالات، وتمنحهم السكينة والطمأنينة.

إن من كان في معظم سنوات عمره متمتّعاً بنعمة البصر، ثم أصابه ما ذهب ببصره، ولم ينفع فيه علاج، يستولي عليه القلق الشديد، ويقضي أيامه ولياليه في عذاب مبرح وغم طاغ، يتألم لما أصابه من البلاء وسوء الطالع، فلا يقرُّ له قرار، ولا يذوق طعاماً، ولا يقربه النوم، ويقنط من حياته، ويرجّح الموت على تلك الحياة المرَّة التعسة. فهل تستطيع إرشادات علماء النفس والتحليلات النفسية أن تخرج مثل هذا الإنسان من حالته النفسية هذه؟ هل يمكن اقناع الرجل بتحمُّل عماه بحجّة أنّه لا علاج له؟ بديهي أن يكون الجواب بالنفي عند معظم الناس، برغم أننا قد نعثر على قلة من الناس يتحمَّلون كارثة العمى المطبق بهدوء وتصبُّر، يقضون على قلقهم واضطرابهم

---

(٤٢) دنيا العلوم: ٣١٨.

بالعزم وقوة الإرادة.

«يشير (ديل كارنيجي) في كتابه إلى رجل كان يقول: إنّني أستطيع أن أتحمّل كل مصيبة في الحياة، إلّا مصيبة العمى التي لا أراني أُطيقها. هذا الشخص الذي كان يخاف العمى إلى هذا الحد، فطن، وهو في السّتين، إلى أن عينيه قد أظلمتا ولم يعد يستطيع تمييز نقوش السّجادة على أرض الغرفة فهرع إلى طبيب العيون، وهناك تكشفت له الحقيقة المرّة، وهي أنّه قد عمي وفقد القدرة على الإبصار بإحدى عينيه، وأن الثانية سرعان ما ستلحق بالأولى. لقد وقع فيما كان يهابه تماماً. فماذا كان في تصوّركم، ردّ فعله أزاء هذه الكارثة القاسية؟ هل اعتبر ذلك اليوم آخر أيام حياته؟ لا. عندما حُرم البصر نهائياً، كان يقول: أدركت إنني أستطيع أن أتحمّل العمى مثلما يتحمّل سائر الناس مصائبهم الصغيرة.

لقد أسلم عينيه إلى مبضع الجرّاح اثنتي عشرة مرة في غضون سنة واحدة، وتحمّل آلاماً شديدة في سبيل ذلك، لأنّه كان يعلم أنّه لا مناص له من ذلك. إن الشخص العادي إذا خضع اثنتي عشرة مرة للعمليات الجراحية، ثم لم يحصل على نتيجة ما، وبقي أعمى، ينهار من شدة الهم والغم. ولكن هذا الرجل كان يقول: لقد علّمتني هذه التجربة أن أُطأطىء الرأس تسليمًا للمصائب التي لا علاج لها، وكان يترنّم دائمًا بمقولة (ملتن) الذي كان يقول: ليست التعاسة والمسكنة في أن يكون المرء أعمى، بل في أنْ لا يكون قادراً على تحمّل العمى»[٤٣].

في الوقت الذي يتحدّث فيه (ديل كارنيجي) عن عمى ذلك الشخص ويثني على قوة تحمّله لمصيبته التي لا علاج لها، يشير أيضاً إلى أن الإنسان العادي إذا أُجريت له اثنتا عشرة عملية جراحية دون أن تُعيد إليه بصره، فإنّه يسقط تحت ضغوط الهم والغم. وهذا يعني أن المصائب الكبيرة القاسية لا تنفع في تحمّلها

---

(٤٣) سير الحياة: ٧٤ .

الإرشادات النفسانية، وأن إدراك عدم وجود علاج لها لا يوجد في الناس حالة الهدوء والسكينة المطلوبة بإزالة القلق من خواطرهم، وحملهم على الرضى والتسليم.

أما التعاليم الإسلامية، فإنّ المناهج النفسية والإيمانية متمازجة فيها، وإن أئمة المسلمين يوجّهون خطابهم إلى المسلمين الذين يؤمنون حقاً بالمعاد والذين تصيبهم المصائب التي لا علاج لها، فيلفتون أنظارهم إلى قضاء الله المحتوم والأقدار التي لا تتبدّل. ولكنهم يتناولون هذا من وجهتين ومنطقين.

فمن حيث وجهة النظر النفسية والدنيوية، فهم يقولون إن الصبر على المكاره التي لا علاج لها يخففّ من شدّة وقعها ويقلّل من مكابدة آلامها، أما الجزع منها فلا يخففّ من شدّة وقعها وآلامها، بل يزيد من تلك الالام وشدتها.

عن الإمام علي(ع)، أنه قال: «*عليْكَ بِالصَّبْرِ والاحْتِمالِ فمنْ لزِمَهُما هانَتْ عليْهِ المِحَنُ*»[٤٤].

وعنه(ع)، أنّه قال: «*المُصيبَةُ واحِدَةٌ، وإنْ جَزِعْتَ صارَتِ اثْنَتَيْنِ*»[٤٥].

ومن حيث وجهة النظر الأخروية أيضاً، فهم يبيّنون للمسلمين أن الاستسلام للقضاء الإلهيّ المحتوم، والصبر على المصائب التي لا علاج لها، جزاؤه يوم القيامة الثواب العظيم، والجزع جزاؤه الحساب والعقاب من الله.

عن صفوان الجمّال، قال: كنّا عند أبي عبدالله الصادق(ع)، فجاءه رجل فشكا إليه مصيبة أصيب بها. فقال له: «*أمَا إنَّكَ إنْ تَصْبِرْ تُؤْجَرْ، وإنْ لَم تَصْبِرْ يَمْضي عليْكَ قَدَرُ اللهِ الذي قُدِّرَ عليْكَ وأنتَ مأْزُورٌ*»[٤٦].

فالتعاليم الإسلامية تقول إن المسلم المؤمن بالله وبيوم الجزاء، المعتقد بأقوال أئمة المسلمين، إذا أصيب بعمى لا علاج له، يكون قادراً على قهر قلقه، وتحمّل مصيبة

---

(٤٤) فهرست الغرر: ١٩٣.

(٤٥) فهرست الغرر: ٤٣.

(٤٦) مشكاة الأنوار: ٢٧٩.

عماه، وقضاء باقي أيامه مطمئن البال هادئاً، لأنّه يعلم أن الجزع فضلاً عن كونه لا يغيّر القدر المحتوم، ولا يعيد البصر إلى العين العمياء، فإنّه يُزيد من القلق واللهفة على الدنيا، ويوجب عذاب الله في الآخرة. ولكنه إن تحمّل العمى بالصبر الجميل، واستسلم لقضاء الله، خفّ عنه قلقه الدنيوي، ونال في الآخرة الثواب، حسبما ورد في أحاديث أئمة المسلمين، وكان مقرّباً عند الله.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: *«قالَ الله عزَّوجلّ: لَا أَنْزِعُ كَرِيمَتَيْ عَبْدٍ فَيَصْبِرَ لِحُكْمي وَيُسْلِمَ بَقضائي فأَرْضى لَهُ ثواباً دونَ الجَنَّةِ»*[٤٧].

جاءَ أَعْمى إلى رسولِ اللهِ(ص) فقالَ: يا رسُولَ اللهِ أُدعُ اللهَ أنْ يكشِفَ بصَري.

قال: *«إنْ أَحْبَبْتَ أنْ أَدْعُو فَعَسى أنْ يَكْشِفَ بصرَكَ، وإنْ شئتَ تَلْقاهُ ولَا حِسابَ علَيْكَ.*

فقال: ألقاهُ ولَا حِسابَ عليَّ.

فقالَ رسولُ اللهِ(ص): *اللهُ أَكْرَمُ منْ أنْ يَسْلُبَ امْرأً كريمَتَيْهِ ثُمَّ يُعَذِّبَهُ»*[٤٨].

إن المسلمين الصادقين في اتّباع الإسلام تكون لهم، في ظل الإيمان بالمبدأ والمعاد، روح قوية وإرادة من حديد، ويمسكون بزمام أنفسهم في مواجهة أصعب النوائب التي لا علاج لها، فيقاومون الجزع. حبّ الله في نظرهم أحبُّ إليهم من كل شيء، ورضاه أهم عندهم من كل رضى. إنهم يرضون برضى الله، ويتقبّلون ما قُدِّر عليهم باطمئنان بال وسكينة خاطر، ويتحمّلون الصعاب الثقال والنوائب المرة ابتغاء مرضاة الله.

كانت أم سليم من المؤمنات على عهد رسول الله(ص)، وكذلك كان زوجها، أبو طلحة، من المسلمين الصادقين ومن أصحاب رسول الله(ص)، شارك في غزوات

---

(٤٧) مشكاة الأنوار: ٢٧٧.

(٤٨) مشكاة الأنوار: ٢٧٧.

بدر وأحد والخندق وغيرها. وكان يسكن المدينة أيام السلم، يقضي جانباً من وقته في العبادة وفي تعلُّم المعارف الإسلامية، ويقضي الجانب الآخر لكسب المعاش على قطعة أرض صغيرة.

أنجب هذان الزوجان ولد، ولكنّه أُصيب وهو صبي بمرض ألزمه الفراش، وانهمكت الأم في العنـاية به وتمريضه. وكان الأب عند عودته من العمل يعود ابنه المريض، ثم ينصرف إلى حجرته لتناول طعامه وللإخلاد إلى الراحة. وفي عصر يوم من الأيام توفي الفتى أثناء غياب الأب. فغطّت الأم المؤمنة جسد ابنها دون أن تُظهر الجزع عليه. ولكيلا تزعج زوجها عند رجوعه ليلاً، قرّرت أن تُخفي عنه خبر موته في تلك الليلة. لذلك فإنّه عندما دخل الدار وأراد عيادة ابنه حسب مألوفه، منعته أم سليم من ذلك. قائلة: اتركه نائمًا براحة وسكون. وكان في لهجتها ما يشعر بأن المرض قد خفَّ عنه، فاطمئن قلبه بعض الشيء، خاصة وإنّها هي أيضاً كانت هادئة مطمئنة بحيث أنّه واقعها في تلك الليلة.

وعند الصباح، خاطبت أبا طلحة قائلة: إذا أعار أحدهم شيئاً لجاره فاستعمله هذا بعض الوقت، فـماذا عساك تقول إذا جاء صاحب الشيء يطلب حاجته، فيأخذ المستعير بالبكاء والعويل بسبب ذهاب ذلك الشيء من يديه؟ فقال أبو طلحة: هذا إنسان به جِنَّة. فقالت أُم سليم: إذن علينا أن لا نكون ممن بهم جِنّة، فقد أخذ الله أمانته وتوفى ابننا، فاصبر على المصيبة وأسلم لقضاء الله، وهيِّىء الجنازة للدفن.

فأتى أبو طلحة النبي(ص) فأخبره الخبر. فتعجّب النبي(ص) من أمرها ودعا لها، وقال: اللّهم بارك لهما في ليلتهما.

وحملت أُم سليم من ليلتهـا وولـد لها ولد اسمته عبدالله وربياه تربية دينية سليمة، فعاش طاهراً ومات طاهراً. وكان عبدالله بن أبي طلحة من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب(ع)[٤٩].

---

(٤٩) بتلخيص عن الكنى والألقاب : ١٠٨.

كان أبو طلحة وأم سليم، مثل سائر الآباء والأمهات، يحبّان ولدهما حبّاً شديداً، وكان المنتظر أن يشتد جزعهما في الأيام الأولى من موته، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد تحمّلاً مصيبة موته بقوة وجلد، وأبديا في هذه النكبة التي لا علاج لها الحد الأعلى من التجمّل بالصبر، لأنهما كانا مؤمنين صادقين بالله، ويعتقدان أن الأبناء من الله، وموتهم بأمره، فاستسلما لقضاء الله ورضيا برضاه لكي ينعما برحمة الله الواسعة، فيشملهما بعنايته ولطفه.

إن تطبيق البرامج النفسانية والسير وفق الحسابات العقلية لا يمكن أن يربّي رجالاً ونساءً مثل أبي طلحة وأم سليم، فتجعلهم على هذا القدر من الصبر والتحمّل. إن الرجال والنساء الذين لا يؤمنون بالله ولا بيوم الجزاء، أو أنّهم يؤمنون ولكن إيمانهم ضعيف، إذا ما فقدوا شباباً من أبنائهم، أو نزلت بهم مصيبة لا علاج لها، ظَلُّوا زمناً طويلاً في جزع ولا يقرّ لهم قرار. وعلى الرغم من أنهم يعرفون أن الجزع والقلق يزيدان من عذابهم، ويضاعفان من وقع المصيبة، ويضران بصحتهم، فإنّ هذه المعرفة لا تزيل من خواطرهم القلق والتشوّش، ولا تمنحهم الهدوء والسكينة. أما المؤمنون الصادقون فإنّ نور الإيمان يُطَمْئِنُ قلوبهم، وفي وجه النكبات الأليمة، أو فقد أبنائهم الأعزاء، يتحكّمون في أنفسهم ويقاومون الجزع والقلق، لأنهم درسوا في مدرسة الإسلام أن الرضى بقضاء الله الذي لا مردّ له، والاستسلام لإرادة الله، من علائم الإيمان ومجلبة لمرضاة الله، فينال الإنسان في الآخرة ثواب صبره. والجزع، على العكس من ذلك، يزيد من العذاب النفسي، ويؤدّي إلى الاختلالات الجسمية، وهو، فوق ذلك دليل على عصيان أوامر الله،ويوجب لحرمان من ثواب الله تعالى.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ جَزِعَ فَنَفْسَهُ عَذَّبَ، وأمرَ اللهِ سُبْحانَهُ أضاعَ، وثَوابَهُ باعَ*»[٥٠].

نخلص من كل ذلك إلى أنّه في الأحداث الصعبة والوقائع المضنية حيث يقف

---

(٥٠) فهرست الغرر: ٤٣.

العقـل والمنطق عاجزين، وتفقد كل البرامج النفسية تأثيرها، وتخفق جميع القوى المـادية، تبقى قوة الإيمان وحـدهـا ثابتـة مكينـة، فتحلُّ المشكلات، وتزيل القلق والاضطراب، وتمنح الإنسان الهدوء والسكون. إن التوكّل على الله من أعلى المراتب رفعة، وأكثر القلاع اطمئناناً، وأحكم القواعد بنياناً. وقد جاء هذا بأوجز القول في كلمة لجواد الأئمة(ع).

عن محمَّد بن علي الجواد(ع)، أنّه قال: «*الثِّقَةُ باللهِ تَعالى ثَمَنٌ لِكُلِّ غَالٍ وَسُلَّمٌ إلى كُلِّ عالٍ*»[٥١].

---

(٥١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢١٤.

الفصل الثامن عشر

«إذَا أنْتَ هَمَمْتَ بأَمْرٍ فَتَدبَّرْ عاقِبَتَـهُ، فَإنْ يَكُ رُشْـداً فَأمْضِه، وإنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ»

النبي الأكرم(ص)

تدبر المستقبل

إن الأفعال الطبيعية التي تستهدف جلب اللذّة أو دفع الألم تكون مشتركة بين الحيوان والإنسـان، ولكن الأفعال التي ترمي إلى التدبّر في المستقبل، والناجمة عن التعقل والتفكّر، والمبنية على الدراسة وتدبير المصالح، فهي من خصائص الإنسان وحـده، والحيوان محروم منهـا. أما بعض أعمال الحيوان، كبناء الأعشاش وتهيئتها، والهجرات الموسمية التي تحدث لأهداف بعيدة المدى، فإنّها ليست من أعمال التدبر والتدبير، ولا هي ناجمة عن التفكير والتنظيم، بل هي أفعال فطرية ملهمة، والغريزة هي التي تدفع الحيوان إليها.

إن دوافع الإنسان في نشاطه الغريزي والرغبات النفسية هدفها الطبيعي هو الوصول إلى المطلوب وتجنّب غير المطلوب. أما الأفعال التي فيها تدبير وتدبّر، فإن ما يُحرك الإنسان إليها هو التفكير في المصلحة والنظر إلى العواقب، وبموجب حسابات ومحاكمات عقلية يقوم الإنسان بأعمال تكون مجلبة للخير، أو يتجنّب القيام بأعمال

تكون مجلبة للشر. وإذا علمنا أن الناس مختلفون من حيث سموّهم الروحي، وتربيتهم الإنسانية، ورشدهم المعنوي، فإنّهم كذلك مختلفون من حيث اهتمامهم بالعواقب، وطلب الخير، ورعاية المصالح. فكلما كان الإنسان أكثر اهتماماً بالغرائز الحيوانية، كان بحثه عن اللذّة لاشباع أهوائه أشدّ. وكلما كان أكمل عقلاً وأرشد فكراً، كانت آماله وتدبيراته المستقبلية أوسع. وقد تجد الإنسان المتربّي مطيعاً لعقله وواضحاً في بصيرته بحيث إنّه يدفع عن نفسه إلحاح الغرائز، ويغضي عن اللذّة والنجاح في سبيل بلوغ كماله المعنوي ونيل السموّ الإنساني.

اللذّة تدركها الطبيعة، والمصلحة يدركها العقل. طلب اللذّة يحرك الرغبة، وطلب المصلحة يحرّك الإرادة. إشباع الغرائز والأهواء النفسية يمنح الإنسان اللذّة، أما إطاعة العقل ورعاية التدبير والمصلحة فلا تمنح الإنسان اللذّة بل إنّها احياناً تسبب الألم والمشقة، ولكنها تمنح القلب المسرّة والرضى.

تدبر العواقب والتفكير فيها عند القيام بأيّ نشاط حيوي من ضرورات الحياة العاقلة السليمة لكل إنسان. ولهذا فقد عُني به الإسلام عناية كبيرة، وأشار إليه أئمة المسلمين قائلين أن في تدبر العواقب والتفكير فيها تتم أرقى العمليات العقلية.

عن أبي جعفر الباقر(ع) أنّه قال: «*لَا عَقْلَ كَالتَّدْبُرِ وَلَا عِبادَةَ كَالتَّفَكُّرِ*»[1].

هناك الكثير من المنغّصات والانحرافات التي تُصيب الإنسان طوال حياته، فتسبّب له الإخفاق وخيبة الأمل، وقد تجرّه إلى ارتكاب المعاصي والأعمال غير الإنسانية. وهذه ناجمة عن اتّباع أهواء النفس والميول الغريزية، وعصيان أوامر العقل ونداءات الضمير الأخلاقي، فلا يفكّر في عواقب أعماله، صلاحها وفسادها، فيجعل نفسه دائمًا عرضة للإصابة بأنواع المصائب والآلام.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال لولده الحسن (ع): «*مَنْ تَوَرَّطَ فِي الْأُمُورِ بِغَيْرِ*

---

(١) روضة الكافي، الكليني: ٢٠.

نَظَرٍ فِي العَواقِبِ فَقَدْ تَعَرَّضَ للنَّوائِبِ»[٢].

إنّ الغرائز والأهواء النفسية تحكم الإنسان والحيوان بكل قوة واقتدار، ولا تفتأ تدفع بهما في الطريق الذي تريده، وتحرّكهما نحو تحقيق طلباتها ورغباتها. الغرائز عمي ومن دون تعقّل، لا تعرف الحسن من السيِّئ، ولا تميز الخير من الشر ولا تفهم ما ينبغي وما لا ينبغي. كل ما يهمها هو تحقيق رغباتها وإرواء عطشها الطبيعي.

التفكّر سمة الإنسان

«العين عطشى للنور، والأذن عطشى للصوت، واليد عطشى للَّمس، والذراع تبحث عمَّا يمكن أن تناله أو تطرحه، والرِجل تطوي المسافات، والغضب يبحث عن العدو للقضاء عليه، والفضول يريد الاكتشاف، والحب يبحث عن حبيب. وهكذا كل غريزة تبحث عن موضوع تُعِدُّه للإبراز»[٣].

والحيوانات، لا هي قادرة على التفكير في مستقبلها، ولا هي بحاجة إلى تدبر العواقب، وطلب المصلحة، لأنّها ليست حرَّة فيما تعمل، فقد حصرتهاحكمة الله تعالى في إطار غرائزها، واجباتها قد جُبلت في طينتها، والطريق الذي تسير فيه طبيعياً تطويه بهداية تكوينية من الله تعالى وبحسب صلاحها الفردي والنوعي. يُميز الحيوان بفطرته وبغرائزه الباطنية ما ينبغي له وما لا ينبغي، ويعرف ما ينفعه وما يضرّه من دون حاجة إلى التفكير والتعقّل، ويسير في طريق تكامله من غير أن يكون له مربٍّ أو معلم.

«ليس الحيوان قادراً على التفكير لصغر دماغه، ولا هو بحاجة للتفكير، لأن حياة الحيوان تديرها الغرائز اللّا واعية، وعاداته المكتسبة، أو علاقاته الجنسية والاجتماعية. ويمكن القول بأن الغريزة أشبه بذكاء ثانوي يستطيع الحيوان بها أن يزن في لحظة خاطفة الظروف الزمانية والمكانية التي تُحيط به، وهذه

---

(٢) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٨٠.

(٣) الأخلاق والشخصية: ١٣٦.

الموازنات الغريزية على درجة من الدقة والتقدير بحيث إن العقل الإنساني لا يبلغ شأوها»[٤].

خلق الإنسان يختلف عن خلق الحيوان اختلافات رئيسة وبنيوية من جهات متعددة، أهمها وجود العقل والحرية في الإنسان. لقد أوجد الخالق القدير هاتين الهبتين الثمينتين في بنية الإنسان، وحرم الحيوانات من هاتين الخصلتين العظيمتين.

«إنّنا نفكّر، ونتكلم، ونميّز بين الخير والشر، ونبتدع بفكرنا أشياء جديدة. أما دماغ القرد فلا يتمتّع بهذه المميزات، وليست له مثل ما عندنا من القدرة على القيام بأعمالنا بأسلوب منطقي ومعقول.

إنّنا ما زلنا لا نعرف كل شيء عن اختلاف بنية أدمغتنا عن أدمغة القرود، ولا نعلم أن أربعة مليارات من الخلايا العصبية في دماغ القرد لا تستطيع أن تقوم بما يقوم به أربعة عشر مليارد من الخلايا العصبية في دماغ الإنسان»[٥].

شاءت إرادة الله الحكيم أن يكون الإنسان حرّ الإرادة، فيختار بنفسه بين الحسن والسيِّئ، والهداية والضلالة، والفضيلة والرذيلة. فلكيلا تكون هذه الحرية سبباً لتعاسته وشقائه، ولا ينجرف نحو الضلال، ولا يُحرم من السعادة والكمال الذي يليق به، وهبه العقل والذكاء ليتدبَّر شؤون معتقداته وأعماله، فيهتدي بهدى العقل للتمييز بين طريقي الهدى والضلال، والصلاح والفساد، فيختار بإرادته الحرَّة طريق الحقّ أو الباطل. وقد ورد هذا في كلمات قليلة في القرآن الكريم:

﴿إنَّا خلَقْنَا الإنسانَ منْ نُطْفةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجعلَناهُ سَميعاً بَصيراً * إنَّا هدَيناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمَّا كَفُوراً﴾[٦].

الإنسان، مثل الحيوان، قد خلق من نطفة أمشاج، ولكنّه يختلف عن الحيوان

---

(٤) مبادىء وأصول علم النفس: ١٢٩.

(٥) مبادىء وأصول علم النفس: ٧٧.

(٦) الإنسان: ٢ و ٣.

بكونه هو وحده الجدير بالامتحان والاختبار، لأنّه هو وحده الذي يملك حقّ الإرادة واختبار العمل من جهة، ويملك العقل والبصيرة من جهة أُخرى. ونحن نعلم أن التكاليف والإمتحانات الإلّهيّة مشروطة بوجود العقل والحرية، وأن الحيوان الذي يفتقر إلى هاتين النعمتين لا يكون مكلّفاً بتكاليف شرعية، ولا يخضع لأيٍّ امتحان أو اختبار.

في حديث طويل عن الإمام الحسن العسكري(ع) عن حال آدم وحوّاء في الجنة، يشير إلى مبدأ حياة الإنسان العاقل والحرّ، ثم يتناول اختلاف الإنسان عن الحيوان من خلال بيان كيفية وسوسة الشيطان، فيقول:...قالَ يَا حواءُ أرأيتِ هذهِ الشَّجرةَ التي كانَ اللهُ عزَّوجلّ حرَّمَها علَيْكُما قدْ أحلَّهَا لكُما بعدَ تحريمِها لِما عرَفَ منْ حسنِ طاعَتِكُما وتوقيركُما إيّاهُ، وذلِكَ أنَّ الملائكَةَ الُموكَّلينَ بالشَّجرَةِ التي معها الِحرابُ يدفَعُونَ عنْها سائرَ حيوانِ الجنَّةِ لا يدفَعُكِ عنْها إن رُمْتِها، فاعْلَمي ذلِكَ أنَّهُ قدْ أحَلَّ لكِ وأبْشِري بأنَّكِ إنْ تناولْتِها قبلَ آدمَ كنتِ أنتِ الُمسلَّطَةُ عليهِ، الآمِرَةُ النّاهِيَةُ فوْقَهُ. فقالتْ حواء: سوفَ أُجَرِّبُ هذا. فرامَتِ الشَّجرَةِ.

فأرادتِ الملائكَةُ أنْ تدفَعَها عنْها بحِرابِها، فأوْحَى اللهُ تعالى إليْها إنَّما تَدفعُونَ بحِرابِكُم منْ لا عقْلَ لهُ يزجُرُهُ. فأمّا منْ جعلْتُهُ متَمَكِّناً مُخْتاراً فكِلُوهُ إلى عقْلِهِ الذي جعلتُهُ حجّةً عليْهِ. فإن أطاعَ استحقَّ ثوابي، وإنْ عصى وخالفَ أمْري استحَقَ عِقابي وجَزائي. فتَركُوها ولْم يتَعرَّضُوا لَها(٧).

على الرغم من أن للإنسان، مثل الحيوان، غرائز وميولاً طبيعية، وبعض أعماله تجري بدوافع من تلك الغرائز والميول، فإنَّ بعضاً آخر من أعماله يجري بأمر من عقله ضمن تقديرات وحسابات عقلانية ومعرفة الصالح وغير الصالح. وقد يقع الإنسان أحياناً تحت تأثير العقل إلى درجة أنّه يطرد من ذهنه كل الرغبات الغريزية والأهواء النفسية، مفضلاً المصلحة على اللذّة، ومن دون اهتمام كبير بتدبُّر العواقب والنتائج.

---

(٧) تفسير البرهان ١: ٥١.

«تتباين أعمال الغريزة في الإنسان عن الأعمال التي تصدر عن العقل والذكاء تبايناً كبيراً، وذلك لأن هذين يميزان بين الحسن والقبيح، أما الغريزة فهي ذاتية العمل. الذكاء ظاهرة انفعالية أو هي موهبة تقود الإنسان في حياته. يرى العلماء أن الذكاء أشبه بالقائد القدير الذي يدير حالات الإنسان الانفعالية والنفسية والإرادية.

أي إن الإنسان من حيث الحيوانية الكليّة ليس كائناً غريزياً، لأنّه يستطيع بالتفكير السليم والتعقُّل الكامل أن يقوِّم الغرائز الطبيعية مهما تكن عنيفة، وأن يستخدمها فيما تقتضيه المصلحة. ولقد صدق الذي قال: الحيوان بالغريزة يعيش، والإنسان بالتخيُّل والعقل»[٨].

إن من يريد أن يهتدي في أقواله وأفعاله بهدى العقل والذكاء، وأن يتعرَّف على الحسن والقبيح، وأن يخطو خطوات مدروسة العواقب، عليه أن يتجنَّب الاستعجال، ولا يتّخذ قراره فوراً، إذ إن الإنسان العجول لا يمنح نفسه فرصة للتفكير وإنعام النظر ، فيتقدّم على عمل قبل تقديره، فلا يلبث أن يندم إن عاجلاً أو آجلاً.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*مَع التَّثَبُّتِ تكونُ السَّلامَةُ، ومَع العجلَةِ تكونُ النَّدامَةُ*»[٩].

وعن النبيِّ(ص)، أنّه قال: «*الأَناةُ منَ اللهِ، والعَجَلَةُ منَ الشَّيْطانِ*»[١٠].

كثيراً ما يحدث أن يعتبر المرء العمل السيِّيء حسناً، أو الحسن سيئاً، بسبب عدم دراسته كما ينبغي، فيقدم عليه بتسرُّع انسياقاً مع حسبانه الباطل، لكنّه وفي أثناء إنجازه أو بعد إنجازه يدرك خطأه، فيندم على ما فعل أشدَّ الندم، حين لم يعد ينفع الندم. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿وَيَدْعُ ٱلإِنْسانُ بِٱلشَّرِّ دُعاءهُ بِالخَيْرِ، وكانَ الإنسانُ عَجُولاً﴾[١١].

---

(٨) مبادىء وأصول علم النفس: ١٣٢.

(٩) سفينة النجاة ١: ١٢٩.

(١٠) تحف العقول، الحراني: ٤٣.

(١١) الإسْرَاء: ١١.

كان (الحارث بن كلده) من مشاهير الأطباء في القرن الأول الهجري، وكانت له زوجة تُدعى (فارعة). دخل فجر أحد الأيام عليها غرفتها فوجدها تسوك أسنانها. فاشمأزت منها نفسه. فطلّقها، هادماً بذلك حياته العائلية الحميمة. وعندما سألته فارعة عن السبب الذي دعاه لتطليقها، قال لها: دخلتُ عليك فجراً فوجدتك تستاكين، وكان هذا يعني أنّك إمّا أن تكوني قد أكلتِ شيئاً لتوك، وامرأة بهذا النهم لا تليق بي، وإما أنّك بعد تناول طعامك في الليلة السابقة لم تستاكي فبقيت ذرات الطعام بين أسنانك، فأردت تنظيفها حينذاك، وامرأة على هذا القدر من الإهمال للأمور الصحيّة لا تليق بي أيضاً كزوجة. فردت عليه فارعة بهدوء وبرود، قائلة: إن سواكي أسناني فجر ذلك اليوم لم يكن لأيٍّ من السببين اللّذين ذكرتهما، بل كنت استخرج من بين أسناني ذرة من خيط السواك أحسست بها حينذاك[١٢].

لا شكَّ في أنَّ مقالة فارعة قد اخجلت زوجها أشد الخجل، بعد أن أدرك الخطأ الذي ارتكبه، فطلّقها، قبل أن يتثبّت من حقيقة الأمر، بتسرُّع وعجلة، حارماً نفسه من دفء الحياة العائلية. ولقد ندم على ما فعل، ولكن القضاء كان قد حلَّ. أما فارعة فقد تركت زوجها العجول القصير النظر دون أن تأسف له، وتزوّجت غيره. فوقع الطبيب المثقف تحت ضغط شعوره بالندم، بسبب عدم تدبّره وتسرّعه، وأصاب سمعته بضرر بليغ، وحُقِّر في نظر رفاعة والآخرين الذين عرفوا سبب طلاقه زوجه.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*التَّدْبيرُ قَبْلَ العَمَلِ ، يُؤْمِنُكَ مِنَ النَّدَمِ*»[١٣].

انتصر (معن بن زائدة) في الحرب الضروس التي وقعت على حدود مدينة كابل، فغنم الكثير، وأسر العديد. وعسكر في (رخّج) على مشارف كابل، حيث أنزل الجنود الأحمال وأراحوا الجياد من سروجها. وفجأة شاهدوا غباراً كثيفاً يرتفع إلى أعنان السماء، فظنّ معن أن جيشاً من الأعداء يتقدّم، فأمر بقتل جميع الأسرى، فقتل بهذا الأمر نحو أربعة آلاف أسير.

---

(١٢) تتمة المنتهى: ٩٨.

(١٣) مستدرك الوسائل، النورى ٢: ٣٠٨.

يقول فرج بن زياد إنني وأبي كنّا من بين الأسرى، فأخفاني أبي تحت بعض أحداج الإبل، وقف أمامي، قائلاً إنّه إذا قُتل فقد أنجو أنا. ثم لم يمض وقت طويل حتى تبيّن أن الغبار كان بسبب قطيع كبير من الحمر الوحشية. وهكذا قتل آلاف من الناس بسبب قرار متسرّع غير مدروس، فذهب هؤلاء ضحايا العجلة الخرقاء[١٤].

قد تؤدي العجلة أحياناً إلى إحاطة العقل بظلام كثيف وتحويل الإنسان إلى كائن أعمى وأصم بحيث لا يعود يميّز ما هو خير له مما هو شرّ له.

كان (عبدالله الأفطس)، من أحفاد الإمام السجّاد(ع)، رجلاً مؤمناً، مجاهداً ثورياً، بذل جهوداً عظيمة لإنقاذ المجتمع الإسلامي من نير حكم طغاة بني العباس، فأمر هارون الرشيد بالقبض عليه وإرساله مخفوراً إلى بغداد حيث ألقاه في السجن وإذ طال أمد سجنه أخذ يزداد سخطاً وغضباً لما لحقه من الظلم والجَور. فكتب رسالة حادة إلى هارون الرشيد، أسمعه فيها صرخات تظلّمه في ألفاظ من الشتيمة والسباب. فقرأ هارون الرسالة وقال: عبدالله الأفطس قد ضاق ذرعاً بالسجن وبما يعاني منه فيه من عذاب وألم، فكتب إليَّ هذه الرسالة ليثير غضبي فآمر بقتله وأريحه من عذاب السجن، ولكني لن أفعل ذلك أبداً. ثم أحضر وزيره جعفراً البرمكي وأمره أن يقوم بنفسه بمراقبة عبدالله، وينقله إلى سجن آخر أوسع وأفضل.

صادف اليوم التالي عيد النوروز. وعندما جيء بعبدالله امام جعفر البرمكي، أخذ يكرّر ما كان قد كتبه في رسالته من السباب والشتائم لهارون الرشيد ولحكمه وحكومته الجبّارة. فغضب جعفر عند سماع تلك الشتائم، فأمر فوراً بضرب عنقه، فأحتز رأسه وغسله ووضعه في طبق وأرسله إلى قصر الخليفة هارون الرشيد مع سائر الهدايا التي كان قد أعدَّها لتقديمها إليه بمناسبة عيد النوروز. وإذ رفع هارون الرشيد الغطاء عن الطبق أثناء استعراضه الهدايا، رأى رأس عبدالله الأفطس، فصرخ طالباً

---

(١٤) كتاب الوزراء والكتّاب: ٣٤٥.

جعفراً البرمكي. وعند حضوره صاح في وجهه غاضباً: ويلك، لماذا قتلت عبدالله؟ كيف ترتكب هذا الخطأ الكبير؟ فأجابه لأنّه شتم أمير المؤمنين. فقال هارون: إن قَتل عبدالله من دون إذني أقبح بكثير من شتائم عبدالله. ثم أمر بتغسيل جثة عبدالله وتكفينه ودفنه. وظلّت هذه الحادثة تراود خاطر هارون طول حياته.

ولم يمض وقت طويل حتى أخذ الشكّ يراود الخليفة نحو جعفر البرمكي وقرّر أن يأمر جلاده مسرور السياف بقتله. وفي الليلة التي قرّر أن يقتله فيها استدعى مسروراً وأمره أن ينطلق فيقتل جعفراً البرمكي بعد أن يخبره بأنّه يقتله بسبب قتله عبدالله الأفطس، ابن عمّ الخليفة، من دون إذنه[١٥].

عن موسى بن جعفر(ع) أنّه قال: «*العَجَلَةُ هِيَ الخُرْقُ*»[١٦].

يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الاستعجال والتسرّع مذمومان في التعاليم الأخلاقية الإسلامية فيما إذا كانت عواقب العمل مجهولة عندنا، إن كانت خيراً أو شراً. ولكن عندما تكون نتائج ما نريد أن نقوم به من عمل معروفة لدى العقل والشرع، ولا حاجة للمتمعّن فيه، فإنّ الإسراع فيه لا يكون مذموماً، بل هو ممدوح ومستحسن، إذ قد يتّفق في بعض الحالات أن يكون التأني والتباطؤ في عمل من أعمال الخير سبباً في زوال ظروفه الملائمة، فيندم المرء على أنه قد فقد الفرصة للقيام بعمل مفيد. لذلك جاء في القرآن الكريم وفي وصايا أئمة المسلمين الحثّ على الإسراع في القيام بأعمال الخير قدر الإمكان.

﴿...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[١٧].

عن أبي جعفر الباقر(ع)، أنّه قال: «*قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وآلِهِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الخَيْرِ مَا يُعَجَّلُ*»[١٨].

---

(١٥) تتمة المنتهى ٢: ٢٥٥.

(١٦) تحف العقول. الحراني: ٤٠٣.

(١٧) البقرة: ١٤٨.

(١٨) الكافي. الكليني ٢: ١٤٢.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*كانَ أبي يَقولُ: إذا هَمَمْتَ بِخَيْرٍ فَبادِرْ فإنَّكَ لَا تَدْري مَا يَحْدُثُ*»[١٩].

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*لا تُؤَجِّل إنالَةَ المُحتاجِ إلى غَدٍ، فَإنَّكَ لَا تَدْري مَا يَعْرِضُ لَكَ ولَهُ في غَدٍ*»[٢٠].

عن أبي عبدالله الصادق(ع) أيضاً، أنّه قال: «*إنّي لأسارِعُ إلى حاجَةِ عَدُوّي خَوْفاً أنْ أرَدَّهُ فَيَسْتَغْنيَ عَنّي*»[٢١].

لقد خلق الله تعالى بقضائه الحكيم ميولاً متضادّة في نفوس الخلق. فإذا كان الناس يميّزون المناسبة والمصلحة، فسيكون في مقدورهم أن يستفيدوا من التضادّ على أحسن وجه، بأن يقدّروا كل ميل من الميول تقديراً صحيحاً، وأن يستعملوه في مكانه المناسب، وبهذا يكونون قد مهّدوا لرشدهم الأخلاقي، ولتحسين ظروفهم الحياتية، ولرقيهم المادي والمعنوي.

فهناك، مثلاً، الرغبة في التقليد، والرغبة في عدم التقليد، كرغبتين متضادّتين قد جُبلتا في طبيعة الإنسان، تتجاذبانه باتجاهين متباينين. والإنسان العاقل في كل زمان ومكان قد استعمل رغبته في التقليد في اتّباع أساليب العلماء الماضين وتطبيق تجاربهم، فيؤسسون حياتهم على حضارات الأجيال السابقة، فينعمون بما أوجده أولئك من وسائل الراحة والرفاه، وهم، في الوقت نفسه، يستعملون الرغبة في عدم التقليد في مجالات الإبداع والابتكار، فيحرّرون أنفسهم من قيود تقليد الماضين، ويخلقون أسساً جديدة لحياة أفضل لأنفسهم ولغيرهم، وبهذا الابتداع والاختراع يفتحون أبواباً جديدة للمجتمع.

«كان (أنباذ قلس) يقول: كل موجب في الإنسان يقابل سالباً، فنحن،

---

(١٩) الكافي، الكليني ٢: ١٤٢.

(٢٠) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٨١٨.

(٢١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٧٤.

مثلاً، مجهّزون بالرغبة في طلب الطعام، وبالرغبة في تجنب أضراره، بالحرب وبالفرار منه، بالانتصار وبالاستسلام، بالتقدم لإشباع الفضول وبالنكوص بسبب التردّد، بالحركة وبالسكون، بالحبِّ وبالتمنُّع، بالشهوة وبالحياء، بالقيادة وبالإنقياد، بالاختراع وبالتقليد، بالمعاشرة وبالانطواء. إنَّنا بطبيعتنا الفطرية قادرون على الاقتراب من شيء، أو شكل، أو موقف، أو حالة، كما إننا قادرون على الابتعاد عنها. هذه الازدواجية هي التي تبيّن مبادىء التباين بين مختلف طبائع الإنسان»[٢٢].

إن الميل نحو العجلة والتأني، مثل باقي الميول المتضادّة، له جذوره الفطرية في طبيعة الإنسان، فلا بدَّ من الرجوع إلى قيادة العقل والتقدير وتدبر المصلحة في إعمال طرفَي هذا الميل المتضادّين. إنَّ الأخلاق الإسلامية تستحسن العجلة في الأعمال الممدوحة فقط، وهي الأعمال التي لا يجهل الإنسان حسنها العقلي والشرعي. أما الأعمال المجهول حسنها أو قبحها، وخيرها أو شرها، فيجب التأنِّي في القيام بها، ودراسة زينها وشينها ومبادئها وخواتيمها، حتى يمكن معالجتها بالتدبّر ومعرفة عواقبها لكيلا يندم الإنسان على القيام بها.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنَّه قال: «*قِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فيهِ فَتَنْدَمَ*»[٢٣].

التفكير في المستقبل وتدبُّر العواقب من ضرورات الحياة الإنسانية، إذ إن الإنسان كائن ذو بعدين، فنصفه يخضع للغرائز والميول الحيوانية، ونصفه الآخر يجري مع العقل، والذكاء، والضمير الأخلاقي، والرغبات الإنسانية الرفيعة. هذا النصف العقلائي هو ميزان الإنسانية. إن نشاطات الإنسان الإرادية والاختيارية يجب أن تكون بهداية العقل ذي البصيرة. إن هذا النصف العقلائي هو الذي يميِّز الصلاح

---

(٢٢) مباهج الفلسفة: ٢١٤.

(٢٣) تحف العقول، الحراني: ٣٠٤.

من الفساد، ويقدِّر الأعمال الخيِّرة والشريرة، ويقيم مناهج الأعمال على أساس من التدبير والتدبُّر

إن النقطة المهمة الجديرة بالملاحظة هي أن أئمة المسلمين يقسِّمون الأعمال المدبَّرة إلى قسمين اثنين: الأعمال العقلائية والأعمال الشّيطانية. فإذا كان الهدف الأصلي مشروعاً، والخطّة الموضوعة لتحقيقه عقلانية ومتّفقة مع نداء الضمير بصفته إلهاماً إلهياً، فإنّ ذلك العمل عقلاني وإنساني. أمّا إذا كان الهدف غير مشروع ويستدعي أن يُسيء الإنسان استعمال ذكائه وفطنته، فيضع الخطط الدنيئة ويتوسّل بطرق غير إنسانية لتحقيقه، فإن نجاحه في ذلك في الواقع هزيمة للإنسانية، وإن ذلك التدبّر والتدبير ليس سوى أفكار شيطانية مخادعة.

عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبدالله الصادق(ع) أنّه قال: قُلْتُ لَهُ: مَا العَقْلُ؟

قالَ: «*مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمنُ واكْتُسِب بِهِ الجِنانُ*.

قالَ، قُلْتُ: فالَّذي كانَ في مُعاويةَ؟

قال: *تِلْكَ النَّكْرَاءُ وتِلْكَ الشَّيْطَنَةُ*»[٢٤].

يُستدل من الأحاديث الإسلامية على أن العقل هو رمز الإنسانية، وهو أشرف ما خلق الله القدير وأفضله. فحجّة الله الكبرى هي العقل الذي أودعه تعالى في كل إنسان ليهديه إلى طريق الحقّ والفضيلة، ويحرفه عن طريق الضلالة والفساد والأعمال الغير الإنسانية.

في الإسلام، العاقل هو ذلك الذي لا ينسى إنسانيته، ولا ينمّي الأفكار الشّيطانية في رأسه، وأن يتدبّر أعماله وعواقبها، ولا يلوّث نفسه بأقوال أو أفعال لا يرتضيها ضميره، ولا يدوس بقدمه على الشرف الإنساني في سبيل اشباع غرائزه الحيوانيةواللذّاتالمادية.

---

(٢٤) بحار الأنوار، المجلسي ١: ٣٩.

عن الإمـام علي(ع) أنّـه قال: «*إنّما العَقْلُ التَّجَنُّبُ منَ الإثمِ، والنَّظَرُ في العَواقِبِ، والأخْذُ بالحَزْمِ*»[٢٥].

من سوء الحظ أن العالم قد شهد ويشهد وجود الكثيرين ممن لجأوا لتحقيق نواياهم الفاسدة إلى الخطط المدروسة، وتدبُّر العواقب، والتدبير. إنَّ معظم السرقات، والارتشاء، والإرهاب، والغش، وكثير من الجرائم والأعمال غير الإنسانية، التي وقعت في الماضي البعيد والقريب، قد تمت وفق خطط دقيقة. وإن المجرمين قد استغـلوا ما وهبه الله لهم من فطنة وذكاء لتنظيم أفكارهم الشّيطانية، وتدبير نواياهم الخيانية إلى درجـة إنّهم قد لا يصادفون في تحقيق أهدافهم الإجرامية أيّة مشكلة، ولا تبكتهم ضمائرهم على ما يفعلون، بل لعلهم ينالون المدح والثناء من بعض الجهات فيكون ذلك نجاحاً جديداً لهم.

كان هناك في أيام المعتصم كاتب عاطل يبحث عن عمل، فكتب حاله بحروف كبيرة على ورقة بهذا المضمون: أنا كاتب، وأرجو من الخليفة أن يستخدمني في عمل أخدم به خزينة الدولة، وأنال به لقمة العيش. وأخذ يتردد كل يوم على قصر المعتصم، حتى إذا رأى الخليفة يريد الركوب، كان يفتح الورقة ويرفعها بين يديه ليراها الخليفة، حتى ضاق الخليفة ذرعاً بإلحاحه، فأمر بتشغيله في عمل لا ينال منه شيئاً. فقالوا إن المسجد الجامع في البصرة يحتاج إلى تبليط أرضه بالطابوق لمنع تكوّن الطين في الأيام الماطرة بسبب الأتربة، فإذا شاء الخليفة أن يكتب له أمراً ليقوم بتنفيذ تلك المهمة. فوافق الخليفة على ذلك. فكتب الأمر ووقّعه الخليفة. فأخذ الكاتب الأمر وسافر إلى البصرة. في الطريق وقع بصره على صخرة ملوّنة جميلة فأخذها معه. وعند وصوله إلى أبواب البصرة أرسل خادمه ليُخبر الناس بقدوم مأمور الخليفة ليستقبلوه، فحضر الناس وهم يظنُّون أن أمراً مهمًا قد حصل ليرسل الخليفة مأموراً يحمل أمراً منه.

---

(٢٥) فهرست الغرر: ٢٥٨.

راح الكاتب يعرض أمر الخليفة على الناس، قائلاً إن أرض المسجد الجامع يجب أن تبلّط بالحجر. فأبدى الناس طاعتهم لأمر الخليفة، وقالوا إن ذلك لم يكن يقتضي أمراً من الخليفة. فأخرج الكاتب الصخرة الملوّنة من جيبه وقال إن أمر الخليفة يوجب تبليط أرض المسجد بصخور من ذلك النوع. فبهت الناس من أين يأتون بمثل ذلك الحجر، والكاتب يصرّ على ذلك. وأخيراً، وعلى أثر إلتماس الناس وإصرارهم، وافق الكاتب على تقبّل مبلغ من المال يجمعه الناس فيما بينهم، لكي يصرف النظر عن إصراره على أن يكون تبليط المسجد من تلك الصخرة، ويرضى بتبليطه بالطابوق العادي.

جمع الناس المال وأعطوه لمأمور الخليفة، وبدأوا بتبليط أرض المسجد الجامع، وحمل الكاتب الأموال التي جمعها على عدد من الإبل واتّجه إلى بغداد. وفي موعد عبور الخليفة أوقف الجمال في طريقه ووقف على رأسها. وعند وصول الخليفة، نادى: يا خليفة المسلمين، لمن أُسلّم هذه الأموال؟ فسأل المعتصم: أيّ أموال؟ فقال: هذا حاصل الوظيفة التي عهدت بها إليَّ، وهو يبلغ بضعة آلاف درهم، فأمر بتسلُّمها. فسأل الخليفة بعض الحاشية عن الوظيفة التي يتحدَّث عنها الرجل، فقالوا: تبليط أرض المسجد الجامع في البصرة. فقال المعتصم: إن من يستخرج هذا المبلغ من المال من مثل هذا العمل لجديرٌ بأعمال كبيرة. وعيّنه في منصب كاتب في الديوان[٢٦].

على الرغم من أن هذا الرجل قد احتال لوضع خطته بذكاء، وبتدبّر النتائج والنظر إلى المستقبل فأثبت جدارته للعمل في حكم المعتصم الطاغوتي، فحظي بمنصب كاتب في ديوان الخلافة، فإن الأخلاق الإسلامية ترى في هذا اللون من التدبير وتدبّر العواقب المبني على الغش والخيانة عملاً غير عقلائي. لأن العقل هو حجّة الله تعالى، ولذلك فإنّه لا يمكن أن يقود الإنسان إلى طريق الإثم والفساد. إن

---

(٢٦) ملخص عن جوامع الحكايات: ٢٨٢.

عمل هذا الشخص الماكر في نظر أئمة الإسلام ناجم عن أفكاره الشّيطانية التي دبّرها في فكره، ثم نفّذها بذكاء وفطنة.

في عالمنا اليوم، بعد انتشار استعمال الآلة، اتسع مجال ارتكاب الجرائم والفساد، واستطاع المجرمون أن يحقّقوا أفكارهم الشيطانية وأفكارهم السود، باستعمال ما وهبهم الله من فطنة وذكاء لوضع خطط مدروسة ودقيقة، وأن ينفّذوا نواياهم الخبيثة بأسلوب من التدبُّر وبعد النظر بحيث إنهم ينجون من يد العدالة في أغلب الحالات، ولذلك فهم لا يشعرون بالندم على ما يرتكبون.

إن قادة الدول الكبرى الاستعمارية يشبهون المجرمين المحترفين من حيث مساعيهم لاستعمار الدول الصغرى ونهب ثروات الشعوب الصغيرة الضعيفة، مستخدمة لذلك مؤسسات ضخمة ذوات الإدارات والبرامج الواسعة المعقّدة والمنظّمة. إنهم لكي يحققوا أهدافهم الفاسدة غير المشروعة، يضعون الخطط الدقيقة، وينفّذون أفكارهم الشّيطانية بالتدبير والتدبّر والنظر في العواقب، فيسيرون في طريق مدروس دراسة دقيقة بحيث إنهم في أغلب الحالات يصلون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة، وقلّما يخفقون في تحقيق تلك الأهداف.

إن الإسلام يستقبح أمثال هذه التدابير الملوّثة بالإثم والجريمة ويذمّها، ويعتبر مصدرها خبث الطوية والأفكار الشّيطانية. والذين يتعمّدون تلويث أنفسهم بهذه الخبائث، يفرضون نواياهم الفاسدة على الناس بالخدعة والمكر، غريبون عن مدرسة الإسلام ويستحقون العقاب في الدنيا والآخرة.

التدبير والتدبّر الصحيحان والعقلائيان في نظر الأخلاق: إن الإنسان إذا أراد أن يقوم بعمل ما عليه أن يفكّر أولاً في حسن ذلك العمل وقبحه، ويتعرّف على ما فيه من خير وشر، فإذا رأى أن العمل الذي ينوي القيام به مطابق للشرع، ولا يخالف الضمير والإنسانية، أو أنّه، في الأقل، لا يتعارض معهما، فله أن يُخطط له بدقة، ويُعين سيره بتعقّل وبتدبّر العواقب، ثم ينطلق في تنفيذه عملياً. أما إذا رأى أن العمل غير

مشروع وغير إنساني، فعليه أن يطرد الفكرة من رأسه ولا يلوّث نفسه بالفساد.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: إنَّ رجُلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليْهِ وآلهِ، فقالَ لهُ: يا رسُولَ اللهِ أوْصني.

فقالَ لهُ: «*فَهَلْ أنْتَ مُسْتَوْصٍ إنْ أنا أوْصَيْتُكَ؟*. حتّى قالَ لهُ ذلِكَ ثَلاثاً، وفي كُلِّها يقُولُ الرَّجُلُ: نَعَم يَا رسُولَ اللهِ.

فقالَ لهُ رسولَ اللهِ: *فإنِّي أُوصِيكَ إذَا هَمَمْتَ بِأمْرٍ فَتَدبَّرْ عاقِبَتَهُ، فَإنْ يَكُ رُشْداً فَأمْضِهِ، وإنْ يَكُ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ*»[٢٧].

استدعى عبدالملك بن مروان يوماً ابن عيينه وقال له: أريد أن أُولّيك مصر وأعهد إليك بإدارةأمورها. وكان ابن عيينة عارفاً بما يحفّ بهذه التولية من أخطار، ويدرك أن قبولها من دون أن يتعرّض لخطر التلوّث بظلم أوجَور غير ممكن، فقال لعبدالملك: يا أمير المؤمنين، إنّني قد اعتزلت، ولا قدرة لي على القيام بما تعهده إليّ. فغضب عبدالملك وقال محتدماً: إنّها ولاية يبذل الآخرون الأرواح في طلبها ويتسبّبون لها الأسباب، فأعرضها عليك من دون طلب منك، فترفضها؟ فقال: يا أمير المؤمنين أتأذن لي بكلمة؟ فقال: قلْ.

قال: جاء في القرآن الكريم: ﴿**إنَّا عرضْنَا ٱلأمَانَةَ علَى السَّماواتِ وٱلأرْضِ وٱلجبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منْها، وحمَلَهَا ٱلإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[٢٨]. فالله تعالى لم يغضب عندما أبَيْنَ أن يحملنها، ولكنك غضبت إذ امتنعت عن قبول ولاية مصر؟ فزال غضب عبد الملك وأكرمه[٢٩].

إن العقل النيِّر، والضمير اليقظ، وكرامة النفس، والوجدان الواعي، كلها

---

(٢٧) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب الجهاد، باب وجوب تدبُّر العاقبة.

(٢٨) الأحزاب: ٧٢.

(٢٩) ملخص عن جوامع الحكايات: ٢٥٥.

تُوجب على الإنسان أن يتدبَّر أعماله، وأن لا يحيد عن طريق الحقّ والفضيلة، وأن لا يقرب الأعمال غير الإنسانية التي يأباها الضمير، وأن لا يلوّث نفسه بالفساد والخبث؛ وأن لا يدوس على الكرامة الإنسانية في سبيل الوصول إلى الدنيا عن طريق غير مشروع.

قال الصادق(ع): *«العاقِلُ مَنْ كانَ ذَلُولاً عِنْدَ إجابَةِ الحقّ، مُنْصِفاً بِقَوْلِهِ، جَمُوحاً عندَ الباطِلِ، خَصْماً بقَوْلِهِ، يَتْرُكُ دُنْياهُ ولا يَتْرُكُ دِينَهُ»*[٣٠].

ولكي يعمل الناس على وفق العقل، يتقبَّلوا الحقّ وينصفوا، ويتجنَّبوا الباطل والظلم، عليهم أن يعرفوا الحقّ والباطل، ويميِّزوا الإنصاف من الظلم، لكي يتمكّنوا من التمسّك بالحقّ والإنصاف في مختلف شؤون الحياة، ومن تجنّب الأعمال البعيدة عنهما، ومن ترك الدنيا من أجل دينهم.

كان الناس قديمًا غالباً ما يحتكمون لدى الضمير الأخلاقي، الذي هو من الإلهامات الإلّهيّة التكوينية، وكذلك لدى التعاليم الدينية التي هي من وحي التشريعات الإلّهيّة، لمعرفة الحقّ والباطل، وتمييز الحسن من القبيح من الأعمال. في كثير من الحالات كانوا يعرفون الحقّ ويفصّلونه عن الباطل، ويميّزون المشروع عن غير المشروع، بالرجوع إلى هذين الحكمين، يعملون بمقتضى حكمهما، فينالون السعادة النسبية في أعمالهم. أما اليوم في عصرنا الحاضر، فإن المعايير الوجدانية والدينية قد فقدت صلاحيتها للحكم في نظر الكثير من الناس، إذ إن بعضهم قد مالوا إلى المعتقدات المادية، فراحوا يُنكرون أصالة دعوة الأنبياء ووجود الضمير الأخلاقي الفطري، ولم يعودوا يعترفون بحكمهما في التمييز بين الخير والشر. وبعض آخر، وإن لم يتّبعوا المدارس المادية، إلاّ أنّهم وقعوا تحت تأثير الماديِّين وأخذوا يقلّدونهم في رفض الإصغاء إلى نداء الضمير الباطني، أو إلى دعوة الأنبياء الخارجية.

إلى جانب هذين الفريقين ثمّة فريق ثالث لم يهجروا التعاليم الدينية والأحكام

---

(٣٠) بحار الأنوار، المجلسي ١: ٤٣.

التي يصـدرهـا الضمير هجراً كليّاً، بل يعترفون ببعض الأهمية للهداية التكوينية والتشـريع الإلهي، ولكنّهم يقـولـون إنّ الأخلاق من الأمور النسبية، ولذلك فهم يتغـافلون عن الحقّ والإنصـاف، ويُغمضون أعينهم عن الخير والصلاح، فيقومون بأعمال غير مشروعة، ويرتكبون ذنوباً كبيرة ولا إنسانية. وإليك بيان ذلك:

منذ أقدم الأزمنة حتى الآن قال العلماء إن الجيِّد والرديء في هذا العالم الواسع العظيم نسبيّان وليسا مطلقين إذ إن كل جيّد قد يكون من وجه رديئاً، وكل رديء قد يكون من وجه جيِّداً.

كذلك الأمر فيما يتعلّق بالحسنات والسيِّئات الأخلاقية في العالم، فهي كذلك نسبية في نظر العلماء، فقد يكون هذا الخلق في ظر ف من الظروف وموقف من المواقف حسناً وممدوحاً، وفي ظرف وموقف آخرين سيِّئاً ومذموماً. وهذه النسبية يؤيّدها الإسلام أيضـاً، كما أن أئمة المسلمين أوصوا أصحابهم بمراعاتها. وقد ورد ذلك في كثير من الأحاديث، ومنها الحديث التالي:

عن النبيِّ (ص)، أنّه قال: «*يَا عَلِّي إنَّ اللهَ عزَّ وجلّ أَحَبَّ الكَذِبَ في الصَّلاح وأَبْغَضَ الصِّدْقَ في الفَسادِ*»(٣١).

تتبيّن من هذا الحديث وأمثاله حقيقة مهمة، وهي أن معيار الأخلاق النسبي في الإسـلام هو بلوغ الصلاح والابتعاد عن الفساد. وبهذه النسبية في الأخلاق يريد أولياء المسلمين أن ينبّهوا أتباعهم إلى التعرّف على الظروف والمواقف، ويربُّوهم على التفكير في المصلحة وطلب الخير، ويوقظوا فيهم السجايا الإنسانية، ويعدُّوهم للتكامل والتسامي.

من سوء الحظ أن عالمنـا المادي اليوم لا يزن نسبية الأخلاق بميزان خير المجتمع وصلاحه، ولا يقدّر الحسن والسيِّىء بمعيار الإنسانية وسعادة البشر، وإنما ينظر

---

(٣١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٤١.

إلى الحسن والقبيح في الأخلاق والأعمال من حيث وجهة نظر الرأي العام، ومن حيث قبول المجتمع له أو ردُّه، ويقوِّمونه أحياناً بما فيه من ربح أو خسارة شخصية. فإذا عرفنا أن مكارم الأخلاق والقيم الإنسانية في عالمنا اليوم قد حال لونها، وأن الناس يولون اهتمامهم للمنفعة واللذّة، وفي هذه الحالة يطبّق الناس الأخلاقية النسبيّة فيما يعود عليهم بالفائدة المادية لكي يستفيدوا فائدة أكبر، أو يلتذّوا بلذّة أوفى.

«إن التقاليد والعادات الاجتماعية قادرة على جعل كل خطأ يبدو وكأنه صواب، وما كان يوماً مطلوباً يرفض في يوم آخر على أنه غير مطلوب، والعكس صحيح أيضاً. كما أن ما هو صواب في مجتمع ما قد يكون خطأ في مجتمع آخر. لكي نتفهّم هذا يكفي أن نقارن ملابس السباحة التي تغطّي اليوم جزءاً يسيراً من الجسم مع ملابس السباحة التي كانت مألوفة قبل سنوات والتي كانت تغطي جزءاً كبيراً من الجسم»[٣٢].

قادة الدول العظمى، في عالمنا المتطور هذا، يظلمون الدول الضعيفة، ومن أجل فرض سلطانهم السياسي عليها يرتكبون مختلف الجرائم غير الإنسانية، وبحجّة تحسين اقتصاد بلدانهم ينهبون ثروات الدول الأخرى، ويعتدون على حقوقها، ويجعلون الحياة صعبة عليهم ولا تُطاق. كل ذلك يجري باسم الأخلاقية النسبية، استناداً إلى الرأي العام في بلدانهم.

في عالمنا اليوم، يستسيغ السياسيون، من اليمين ومن اليسار، ارتكاب كل أنواع الجرائم والموبقات للانتصار على منافسيهم في ميدان السياسة، وهم لكي يحققوا أهدافهم السياسية يجيزون لأنفسهم، باسم الأخلاقية النسبية، استخدام الكذب، والافتراء، والشتم، والإهانة، والخدعة، والتدليس، والظلم، والعدوان، والخيانة، والجريمة، والتخريب، وإشعال الحرائق، والجرح، والقتل، وغير ذلك من الأعمال غير المشروعة، لكي ينتصروا في صراعهم، وهم يسوِّغون جرائمهم هذه بالقول بأن «الغاية

---

(٣٢) علم الإجتماع، صامونيل كينك: ٩٠

تُبرّر الوسيلة».

إن المعايير المستعملة اليوم لتعريف الأخلاق الحسنة والسيِّئة قد حطَّت من قدر السجايا الإنسانية، ومهّدت طريق الفساد الأخلاقي، وحالت بين الناس وتساميهم الروحي وتكاملهم المعنوي. وكان من أثر تلك المعايير السقيمة أن أصبح الضمير الأخلاقي مهملاً، وغدا الإنسان غريباً عن نفسه، ونسي نفسه كأنّه لم يعد يتذكر شيئاً اسمه الكرامة الإنسانية ومكارم الأخلاق. في عصرنا الحاضر تخلّت الفضائل عن مركزها للرذائل، واتسع نطاق الجريمة وهو في اتساع مستمر، وأخذ الإنسان يسير في طريق السقوط والانهيار.

أما مدرسة الإسلام، فهي على الرغم من تأييدها نسبية الأخلاق، واعتبارها الظروف الزمانية والمكانية والأوضاع والأحوال مؤثّرة في حسن الأخلاق وسوئها، فإنّها مع ذلك ترفض كل الرفض هذه المعايير غير الإنسانية والمنافية للفضيلة السائدة في عصرنا، فهي لا تجيز، باسم نسبية الأخلاق، ارتكاب الإثم والفساد. وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿يَا أيها ٱلَّذينَ ءَامنُوا كُونُوا قوّامينَ للهِ شهداءَ بالقسْطِ ولاَ يَجْرِمَنَّكُم شَنَأَنَ قَوْمٍ علَى أنْ لاَ تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقْوى﴾[٣٣].

فإذا كان الإسلام لا يجيز للمسلمين أن يعاملوا حتى أعداءهم الألدّاء الذين يبغضونهم بغير العدل، فكيف يمكن أن يجيز للدول الإسلامية أن تستعمل قوّتها لسحق حقوق الدول الصغرى لكونها ضعيفة وصغيرة، وبحجّة توطيد سلطانها السياسي والاقتصادي وفرضه عليها تظلمها وتعتدي عليها؟

هدف الإسلام الأصلي هو صنع الإنسان، ذلك الإنسان الذي يعرف مسؤوليته والذي تربّى على الصدق، وعلى التحلّي بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية. وقد حقق الرسول الكريم(ص)، بأقواله الطاهرة وسلوكه المنزّه، هذا الهدف المقدّس،

---

(٣٣) المائدة: ٨.

فجذب الناس إلى مدرسة الإسلام ومكّن للإسلام من أن يستقر في أعماقهم.

لو أن نبي الإسلام (ص) لجأ، كما يلجأ سياسيو العالم اليوم، إلى الكذب والافتراء والحيلة والخداع والظلم والجور وغير ذلك من أنواع المكر الآثم، في سبيل تقدّم الإسلام، ودحر المشركين، ولو أنّه تمسّك بنسبية الأخلاق، مثلهم واستفاد من الوسائل غير المشروعة، قائلاً للناس: الغاية تُبرّر الوسيلة، لما استطاع أن يربّي أُناساً مؤمنين، صادقين، يطيعون أوامر الله، ويتمتّعون بجميع السجايا الإنسانية الحميدة.

بعد رسول الله(ص) تغيّر حال الحكومة الإسلامية بالتدريج، وتبدّل سلوك رجال الحكم يوماً بعد يوم، وفي بعض فترات من الزمن جاء إلى الحكم رجال كان أُسلوب حكومتهم يختلف عمّا كان عليه نبي الإسلام(ص)، فقد لجأ هؤلاء ـ مثل حكام العصر الحاضر ـ إلى العمل بجميع الأعمال غير المشروعة، من أجل توطيد مراكزهم، وتوسّلوا بكل الوسائل المذمومة لتحقيق أهدافهم السياسية، فأنزلوا بالإسلام والمسلمين أقسى الضربات المادية والمعنوية، بأقوالهم وأفعالهم الآثمة المجرمة. ولا شكّ في أن معاوية ابن أبي سفيان واحد من هذه الزمرة.

بعد أن بايع الناس عليّاً(ع) بالخلافة وتقبلوا حكمه، تمرّد معاوية في الشام على حكمه وعارضه وعزم على محاربته. إن قيام معاوية في وجه علي(ع) هو قيام الباطل في وجه الحقّ، وصراع حكومة طاغوتية ضد حكومة إلهيّة. كان علي(ع) باتّباعه أحكام الإسلام يسير على هدى سيرة الرسول الأكرم(ص)، ولم يتخطَّ في حربه مع معاوية حدود الحقّ والعدالة قيد أنملة. أما معاوية فقد كان يسير طبقاً لمسيرة الطغاة، وفي سبيل الانتصار على الإمام لم يتورّع عن ارتكاب أيّ عمل غير إنساني وغير مشروع ويتنافى والأخلاق. وهذا ما يؤكده الرجوع إلى سنوات حكم الإمام القليلة، ودراسة الأعمال التي ارتكبها معاوية خلال تلك الفترة. وفيما يلي نورد بعض النماذج لها:

١ـ اتهم معاوية الإمام عليّاً(ع)، كذباً وزوراً، بمقتل عثمان، إذ كان يريد بذلك

تأليب الناس على الإمام، وإعدادهم لمحاربته والانتصار عليه.

٢ـ في حرب صفين لجأ معاوية إلى عمل غير إنساني ليهزم الإمام علي. فقد بادر مرتين إلى محاصرة شريعة نهر الفرات لمنع جيش الإمام من الوصول إلى الماء، فكان ذلك سبباً في اشتباك الجيشين في قتال مرير وإزهاق الكثير من الأرواح إلى أن تمكّن جيش الإمـام من تحرير شريعة الفرات. ولكن الإمام، في كلتا المرّتين اللّتين انتصر فيهما، أمر بعدم منع جيش معاوية عن الماء حتى لساعة واحدة.

٣ـ خان معاوية بيت المال، إذ إنه لم يلتزم العدالة في تقسيم أموال بيت المال، بل كان يمنح من يشاء ما يشاء لتحقيق أهدافه السياسية وتوطيد أسس حكمه. فجاء بعض إلى الإمام علي آخذين عليه بلهجةٍ حادة أنه لا يميّز الشخصيات المتميزة بعطاء أوفر، فردهم الإمام بقوله:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بالجَوْرِ فيمَنْ وُلّيتُ عَلَيْهِ؟» (٣٤).

٤ـ لجأ معاوية إلى المكر، والخداع، وارتكاب الإثم، وخيانة العهد، مستخدماً دهاءه وفراسته لتحقيق أفكاره الشّيطانية والوصول إلى أهدافه السياسية. أمّا الإمام علي فإنه في صراعه مع معاوية لم يلجأ أبداً إلى عمل غير مشروع أو خطوة لا إنسانية تكون بعيدة عن طريق الحقّ والعدالة. وفي ذلك قال:

«واللهِ مَا مُعاوِيَةُ بأَدْهَى مِنّي، ولكنَّهُ يَغْدُرُ ويَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَراهِيَةُ الغَدْرِ لكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ» (٣٥).

نخلص من مجموع البحث إلى أن من شروط الحياة السليمة للناس كافة هو التفكير في المستقبل وتدبُّر العواقب. فمن يريد أن يحيا حياة رشيدة عليه أن لا يقرب الأعمال الضارَّة، ولا يسير في الطريق الخطأ، ولا يورِّط نفسه فيما يستوجب الندم. بل عليه قبل أن يُقدم على عمل لا يعرف خيره وشرّه، ولا نفعه وضرره، أن يفكِّر فيه،

---

(٣٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٦.

(٣٥) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩١.

متجنّباً العجلة والعزم المتسرّع، فيمنح نفسه فرصة للتأمّل والتدقيق، لكيلا يواجه بعد ذلك المشكلات الثقيلة والخسائر التي لا يمكن تعويضها.

هنا لا بدَّ من القول بأن الأعمال التي تقتضي التدبُّر والتدبير لا تكون لها قيمتها المعنوية والمنطقية إلّا إذا كانت سائرة بشرف على طريق ترتضيه الإنسانية والضمير، وإلّا فإن التدبير وتدبّر العواقب اللّذين يقوم بهما المجرمون المحترفون، والمستعمرون العالميون، والدول العظمى الظالمة، بمكرهم ودهائهم وتدابيرهم المدروسة والمحسوبة فضلاً عن كونها لا قيمة لها من حيث العقلانية والإنسانية، فإنها تكون ضدّ الشرف والأخلاق، وما تفكّرهم في العواقب سوى تفكّر شيطاني آثم، والإنسان الشريف الفاضل يشمئز من أمثال هذه الأفكار الخبيثة والأعمال الفاسدة التي يقوم بها أولئك، ويستنكرها.

إن ما ينبغي قوله في نهاية البحث هو أنَّ التدبُّر أو النظر في العواقب يجب أن لا يتجاوز حدَّ الاعتدال إلى حدّ التطرف، إذ إن الإفراط والمبالغة في التفكير في العواقب يجرّان الإنسان شيئاً فشيئاً إلى الوَسواس وإلى إضاعة القدرة على اتّخاذ القرار، والتردّد والشك، بحيث يفقد الإنسان المبادرة في العمل.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ فِي العَواقِبِ لَم يَشْجَعْ*»

«إن التأخير الذي يؤدي إلى ظهور العقل هو نفسه يؤدي إلى ضعفه أيضاً، فقد ضاع كثير من الفلاسفة العظام في خضم الأحداث، لأنهم لم يستطيعوا أن يحلّلوها في الوقت المناسب كما يشاؤون. يقول (غريفولز Griffuehles) أحد رؤساء مجلس العمال: إذا فكّرنا كثيراً عجزنا عن القيام بعمل ما. ثم إن التفكير قد يدفع المرء إلى الشك والعبثية، إذ يبرز أمام كل دليل دليل يعارضه. والعقل أداة ناقصة، مثل عين الإنسان وعلم الطب، فإننا لا نستطيع أن ننتفع بهما على خير وجه إلّا في حدود ما تسمح به الطبيعة المقدَّرة. ولا شك في أن الغريزة تستطيع أن تُنجز بعض الأعمال خيراً من العقل»[٣٦].

---

(٣٦) مباهج الفلسفة: ٣٣.

وعليه، فإنَّ تدبُّـر العواقب في حدود الاعتدال وبالقدر اللازم يكون مفيداً ومثمـراً، فهـو يمنـح الإنسان البصيرة والنظرة الصائبة، فيتقدّم إلى العمل بوعي وشجاعة. وعلى العكس من ذلك إذا تجاوز تدبُّر العواقب حد المصلحة وتحوَّل إلى حذر لاموجب له، اثَّر في النفس، وأضعف قوة الإرادة، وأثار الشك والتردد، وأدَّى إلى الخوف والقلق، وحال دون التحرّك والنشاط.

عن أبي محمَّد العسكري(ع)، قال: «*إنَّ للسَّخاءِ مِقداراً، فإنْ زادَ عليهِ فهُوَ سَرَفٌ. وللحَزْمِ مِقداراً، فإنْ زَادَ علَيْهِ فهوَ جُبْنٌ. وللإقْتِصادِ مقْداراً، فإنْ زَادَ عليْهِ فهوَ بُخْلٌ، وللشَّجاعَةِ مقْداراً، فإنْ زادَ عليهِ فهوَ تَهوُّرٌ*»[٣٧].

(٣٧) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢١٨.

الفصل التاسع عشر

«لَا تَفْضَحُوا أَنْفُسَكُمْ لِتَشْفُوا غَيْظَكُمْ وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكُمْ جاهِلٌ فَلْيَسَعْهُ حِلْمُكُمْ»

الإمام علي(ع)

الإنتقام

جهّز الخالق القدير، بإرادته الحكيمة، جميع الكائنات الحيّة في هذا العالم بأسباب الحياة ومتطلّباتها جميعها، فوهب للنباتات وللحيوانات الطاقات والقوى اللازمة والضرورية لإدامة حياتها، وألهمها ـ بالهداية التكوينية ـ طرق استخدام تلك الأسباب والإنتفاع بتلك القوى، لكي تستطيع المحافظة على حياتها الفردية والنوعية في ميدان الصراع والتنازع على البقاء، وتصل إلى كمالها الطبيعي.

والإنسان، بصفته من الكائنات الحيّة على سطح هذه الكرة الأرضية، لا يشذُّ عن هذا القانون الحكيم، إذ قد جهَّزه الله تعالى بأدوات الحياة ووسائلها، فوهب له الأعضاء والأطراف اللازمة له، وأمدَّه بالقوى المادية والمعنوية. ولّما كان الإنسان يمتلك إلى جانب أبعاده النباتية والحيوانية بعداً إنسانياً وقابلية على السموّ والتكامل أرفع بكثير مما لدى كل الكائنات الحيّة الأخرى، ولّما كان، لهذا السبب، يحتاج للوصول إلى كماله اللّائق به إلى وسائل وقوى أكثر، فإنَّ الله سبحانه وتعالى أنعم عليه،

إلى جانب القـوى النباتية والغرائز الحيوانية، بالقوة العاقلة، والضمير الأخلاقي، والذكاء الحادّ، والقدرة على النطق، وغير ذلك من المزايا الإنسانية الكثيرة الأخرى.

وعلى الرغم من أن جميع الأعضاء والأجزاء الباطنية والظاهرية، وجميع القوى والطاقات الجسمية والروحية تشترك كلها في إدارة حياة الإنسان، وكل واحدة منها تقـوم بواجبهـا الموكول إليها، فإنَّ لقدرة الغرائز العظيمة في حفظ حياة الإنسان الفردية والنوعية دوراً مهمًّا في تحريك سائر القوى والطاقات وتشغيلها في ذلك الاتجاه.

«يقول (ماك دوغال): الغرائز هي المحرك الأول لجميع نشاطات الإنسان وفعالياته، وإذا ما توقّف عملها فإن الجسم يصبح عاجزاً عن القيام بأيِّ نشاط.

والغرائز قوىً تصنع حياة الأفراد والمجتمعات. ويصف ماك دوغال الغرائز بأنها نوع من الإستعداد الفطري يحمل الجسم على إدراك شيء ما ويوجّهه نحوه، ويكون السبب في أن ينفعل الجسم في قبال ذلك الشيء انفعالاً خاصاً يدفعه إلى العمل، أو أن يحسّ بانجذاب نحو العمل يظهر بشكل سلوك معين إزاء ذلك الشيء. وبناءً على ذلك يكون لكل غريزة ثلاثة جوانب:

١ـ جانب الإدراك.

٢ـ جانب الإنفعال.

٣ـ جانب الحركة.

ويعتقد ماك دوغال أن العلاقة بين الغريزة والهيجان ذات أهمية خاصة»[١].

الغرائز قوى عمي غير عاقلة، ولا همَّ لها سوى إشباعها. فإذا وضعت تحت قيادة العقل، وتمَّ إعمال كل واحدة منها في مكانها المناسب وبالقدر الصحيح، أصبحت مدعاة للسعادة والهناء، ونَعِمَ الإنسان بفوائدها في مختلف شؤون الحياة، ووقى نفسه من شرِّها وأذاها .أما إذا ترك لها الحبل على الغارب، واتجهت إلى سبل غير صحيحة ومخالفة للمصلحة، فإنَّها تكون سبباً في الفساد والضلال، وقد تورث مصائب كبيرة،

---

(١) علم النفس الاجتماعي ١: ٦٥.

وأحياناً قد لا يمكن درؤها وجبر أضرارها، ولكي يتّضح الأمر، نبحث في هذا الفصل موضوع الانتقام الذي هو حصيلة غريزة الغضب، وما ينجم عنه من أعمال حسنة وقبيحة.

غريزة الغضب، من الغرائز القوية جداً، وتثور عندما يواجه الإنسان بعض المنغّصات سواء أكانت منغّصات ناشئة من عوامل طبيعية. أم كانت ناشئة من حوادث اجتماعية.

تبدأ حياة الوليد عادة بالغضب وعدم الرضى، لأنه ما أن يخرج من بطن أمه حتى يكـون عرضـة للجوّ الخارجي، ولضغط التنفّس، وتغيير درجة الحرارة، وهذا الإحساس الغريب يثير فيه الغضب، ويستمر معه الطفل عديم التعقّل والتجربة، فإنه يغضب ويثور لأتفه حدث يزعجه.

«ملاحظات (بلانتون Blanton) وغيره من العلماء عن اللحظات الأولى من سلوك الـوليد في اللحـظة التي فتح فيها عينيه على العالم تؤيد ما قاله (كانت) عن أن صرخة الوليد أقرب إلى لحن الغضب منها إلى لحن التضرّع وإظهار الأسف. لا يصعب على كثير من العلماء تفسير صرخة الغضب الأولى التي يطلقها الوليد (ربيكا فست Rebecca Vest) تقول إن العداء والنفور أقوى في الإنسان من الصداقة والمحبة، وسبب ذلك هو الخطأ الذي يقع فيه الشعور لأول مرة، ومن ثم يصبح شيئاً فشيئاً عادة قوية إلى أن يتغلّب عليه العقل ويقتلعه من جذوره.

وتقول في كتابها المعروف (فلسفة الحياة): إن الوليد الذي عاش فترة في محيط الرحم المريح، يضع قدمه في عالم مليء بعوامل غير مريحة، فمن الطبيعي أن يعـدّ نفسه لمواجهة منغّصات الحياة للمحافظة على نفسه، فيغضب على مهـاجميه ويسعى للدفاع عن نفسه بتحريك يديه ورجليه.وبهذا تتكوّن فيه عادات ويثبت في ذهنه التصوّر غير الواقعي عن أن التعذيب أمر سليم. والذي يؤسف له أن التجارب الأولية والآلام المختلفة والغامضة تقوّى هذا

التصوّر»[٢].

بالإضافة إلى المنغّصات الطبيعية، يواجه الطفل مضايقات تربوية أيضاً، وهذه أيضاً تثير غضبه وعدم رضاه. إن السنوات الأولى في حياة الطفل هي مرحلة وضع أُسس العادات والأخلاق، فخلال هذه السنوات يكون الطفل دائم التعرّض لأوامر والديه ونواهيهما، وقد لا يمر عليه يوم من دون أن تفرض عليه عدَّة أوامر ونواه من أبويه، مما يثير غضبه أيضاً.

الطفل بطبيعته يريد الحرية وعدم تقييده. ولقلة تجاربه وخبرته، لا يعرف الجيد من الرديء، ولا الخير من الشر، ويريد أن يكون طليقاً في ما يفعل، يذهب حيث يشاء، ويلمس ما يشاء، ويأكل ما يجد، ويتغوَّط حيثما يكون، غير أن الضرورات الصحيّة والطبيّة والأخلاقية والتربوية تجبر الوالدين على تحديد حريته والتدخل في كيفية تغذيته وكمّيتها ومواعيدها،وإجباره على التغوّط في المبولة. ولكن الطفل الذي لا يعرف سبباً لكل هذه المضايقات ينتابه الغضب والسخط في أغلب الأوقات، ولا شكَّ في أن هذه الحالة تلعب دوراً في تكوين شخصيته.

«في أوائل الحياة تجري تغذية الطفل وفق شروط ونظم معينة، فهو لا يسمح له أن يتغذَّى وقتما يشاء. والكبار يهتمون كثيراً بمواعيد تغذية الطفل ونظامها بحيث إنهم يعتقدون أن تحديد مواعيد تغذية الطفل أمر طبيعي ويتّفق وحاجات الطفل. والفواصل بين مواعيد التغذية تطول شيئاً فشيئاً، وبعد بضعة أشهر يضطر الطفل إلى تعلّم طرق أُخرى للتغذية غير الرضاعة. هذه التغييرات تكون عند الطفل أشبه بالثورة. وقد اثبتت ملاحظات خبراء أمراض الأطفال من جهة، ودراسات علماء النفس من جهة أُخرى، أن هذه التغييرات تخلق اختلالات نفسية مهمة في الطفل، بحيث يحتمّل أن ينقلب انزعاجه هذا تدريجياً إلى روح الخصام والعدوان.

ولكن الذي لا شك فيه هو أن لتجارب الطفل العاطفية تأثيرات أعمق

---

(٢) اعجاز التحليل النفسي: ١٠.

بكثير في شخصيته من أسلوب تغذيته ونظامها.

يُستنتج من نتائج دراسات علماء النفس أن التعليمات المصحوبة بالاختلالات العاطفية وآثار الاحتكاك بين الطفل (كممثل للطبيعة) ووالديه (كممثلين للمجتمع) تظلّ باقية فيه طوال حياته»[٣].

بديهي أن سلامة الطفل وحسن تربيته يستوجبان تحديد جانب من حريته، ولكن من واجب الوالدين والمربين أن لا يلجأوا إلى هذا التحديد إلّا عند الضرورة وبالمقدار اللازم للطفل، على أن يتم هذا التحديد من دون أيّ فظاظة أو شدّة على قدر الإمكان، لئلا يثير ذلك غضب الطفل ويبذر في نفسه بذور الحقد والعداء.

إن الأطفال الذين يتربّون في أحضان أبوين متشدّدين سريعي الغضب يكونون في رعب وغضب دائمين، ولا اعتدال في أخلاقهم، وعند الكبر لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم، ويثورون عند مواجهة أتفه المزعجات، ويغضبون، فيسبّبون الألم لأنفسهم وللآخرين.

غريزة الغضب وسيلة للدفاع أودعها الله الحكيم في طبيعة الإنسان. فعندما يواجه خطراً تثور هذه الغريزة تلقائياً وتُعِدُّ الإنسان لدفع الخطر. ومن الجدير بالذكر أن تحدث في الغاضب مع تهيج غريزة الغضب انفعالات وتفاعلات عميقة تُزيد من قوته وقدرته الدفاعية بشكل ملحوظ.

«تحصل عند الغضب تغيرات (بايو كيميائية) و(فيزيولوجية) بواسطة سلسلة الأعصاب السمبثاوية والغدد فوق الكليوية. ويكون من تأثير هذه التغيّرات أن يتهيأ الجسم للشدة ويفرز الكبد الكلوكوجين بشكل كلوكلوز يزيد طاقة الجسم. ومن التغييرات الأخرى الدفع السريع لمواد تنشأ من التعب، كما أن الدم يتخثّر أسرع، الأمر الذي يقلل من خطر الجروح، ويتوجّه الدم من الجهاز الهضمي نحو العضلات، فتشتد وتقوى،وغير ذلك من أمثال هذه التغييرات التي تجعل الجسم قادراً على مواجهة العدوّ مدة طويلة بما تولّده

---

(٣) اعجاز التحليل النفسي: ١٨

فيه من قوة إضافية»[٤].

إن الذي يواجه حيواناً مفترساً، أو شخصاً ذا طبيعة افتراسية، يخشى منه على حياته، أو يهاجمه اللصوص والمجرمون بقصد الاعتداء على ماله وعرضه، تثور فيه غريزة الغضب التي أودعها الله فيه، وتمنحه القوة والطاقة، وتدفعه للدفاع عن نفسه وتخليص حياته وماله بدفع الخطر وإزالته.

ممّا تجدر ملاحظته دائمًا من الناحية الأخلاقية هو ان نعرف متى يلزم العضب، فنميّز بين الخطر الحقيقي والخطر الكاذب، لكيلا نستخدم غريزة المهاجمة والاحتراب في غير الوقت المناسب.

يُشبّـه الغضب في بعض الأحاديث بالنار. والنار، وإن كانت كثيرة الفوائد ولازمة لحياة الإنسان، تنطوي على أخطار كبيرة أيضاً، فهي تلتهم كل شيء في حريق هائل لأتفه غفلة أو إهمال، وتقضي على الأرواح والأموال وتحوّلها إلى رماد. غريزة الغضب أيضاً نار حارقة لها منافع في حياة الإنسان ولكن لا بدَّ من إبقائها تحت الرقابة الشديدة، ولا تُستعمل إلّا في الموقف المناسب. إذ لو تُركت غريزة الغضب طليقة من دون قيد وتحديد، وأُستعملت بحرية مطلقة، فإنها تُحرِق جذور سعادة الفرد والمجتمع، وتذهب بالدِّين والدنيا أدراج الرياح.

عن الإمام علي(ع)، أنَّه قال: «*الغَضَبُ نَارٌ موقَدَةٌ مَنْ كَظَمَهُ أَطفَأَهَا، ومَنْ أَطْلَقَهُ كانَ أَوَّلَ مُحْتَرِقٍ بِهَا*»[٥].

فلكي نحمي أنفسنا من الاحتدام في غير محله، ومن الغضب عند كل بادرة مزعجة، ومن اتّخاذ موقف الدفاع من دون داعٍ يدعو إليه، علينا أن نلجأ إلى قوة العقل، فبالعقل نستطيع أن نميّز الغضب المحقّ من غير المحقّ، بحيث لا نغضب إلّا في الموقف الضروري الذي لا بدَّ منه.

---

(٤) علم النفس الاجتماعي ١: ٩١.

(٥) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٢٦.

يمكن تشبيه غريزة الغضب في إقليم الجسم بالقذائف القوية لدى الحكومة، فهي تستعمل هذه الأسلحة النارية لدفع العدوّ، فللدفاع عن إقليم الجسم لا بدَّ من استعمال نيران الغضب. ولكن مثلما أن قذائف الحكومة لا تنطلق إلّا بأمر القائد المدرك كذلك نيران الغضب يجب أن تأتمر بأوامر العقل ليستخدمها في الوقت اللازم وبالقدر اللازم. إذا أُطلقت قذائف الحكومة في غير وقتها أو في غير الحاجة إليها، أدَّت إلى ارتكاب الجرائم، وسبَّبت الخراب والتعاسة وسوء الحظ. كذلك هي غريزة الغضب إذا أُطلق لها العنان في غير وقت الحاجة إليها، فإنها تسبّب الكثير من الأضرار المادية والمعنوية، وتكون منشأ الفساد والهلاك. وكما إن القادة المسؤولين يحذّرون من الاستعجال في إصدار أوامر إطلاق النار، ويسرعون في إصدار أوامر إيقاف النار، كذلك ينبغي للعاقل أن يؤجّل غضبه قدر الإمكان، وإذا غضب أسرع إلى إخماد غضبه وإطفاء أواره.

عن الإمام علي(ع)، أنَّه قال: «*كُنْ بَطيءَ الغَضَبِ، سَريعَ الفَيء، مُحِبًّا لِقَبُولِ العُذْرِ*»[٦].

غريزة الغضب طبيعية في جميع الناس، ولكنهم يختلفون من وجهين:

الأول: هو أن من كان ضعيف النفس وسريع التأثّر، يغضب لأتفه حدث مزعج أو قلق. أما ذو الشخصية القوية فيستطيع إزاء كثير من المزعجات أن يملك نفسه ويقاوم غضبه ويتغاضى عنها ويمرَّ بها مرور الكرام.

الثاني: هو أن الضعيف سرعان ما يظهر عليه ما يحتدم في داخله من غضب، وينساق مع ردِّ فعله، مما يؤدِّي إلى تحقيره.

أما القويُّ فقد يثور الغضب في داخله لمشاهدة بعض ما يزعجه، ولكنه لا يُظهر عضبه ولا يستعجل في ردِّ فعله، بل يهضم المزعجات بقوة صبره واحتماله.

عن الإمام علي(ع)، أنَّه قال: «*لَا تَفْضَحُوا أَنْفُسَكُمْ لِتَشْفُوا غَيْظَكُمْ، وإِنْ*

---

(٦) فهرست الغرر: ٢٩٣.

جَهِلَ عَلَيْكُمْ جاهِلٌ فَلْيَسَعْهُ حِلْمُكُمْ»[٧].

كان الإمـام علي(ع)، أيّام خلافته، يطرق الأسواق يستطلع أمرها ويوصي أصحابها، فمرَّ يوماً بسوق التّمارين وإذا بصبيّة تبكي، فوقف وسألها عمّا بها، فقالت: أعطاني سيدي درهماً أشتري به تمراً، فاشتريته من هذا البقال وذهبت به إلى الدار، فلم يعجبهم، فجئت أردُّه عليه فرفض ردّه. فالتفت الإمام إلى البقال وقال له: هذه الصبية خادمة، وليس الأمر باختيارها، فخذ التمر وردَّ إليها نقودها، فنهض البقال ووضع يده في صدر الإمام يدفعه عن محله، أمام أنظار المارَّة وأصحاب السوق. فنهره بعضهم قائلاً: ويلك ماذا تفعل؟ هذا أمير المؤمنين. فخاف الرجل واصفرَّ لونه، وأسرع يأخذ التمر من الصبية ويردُّ إليها درهمها، ثم قال: يا أمير المؤمنين إرض عني. فقال: ما أرضاني عنك إن صلحـت أمرك[٨].

لقد كان فعل هذا البقال إهانة جريئة للرجل الأوّل في الدولة وأمام أنظار الناس، ومن أجل نصيحة إنسانية، فكان من المنتظر المألوف أن يغضب علي(ع) وأن يردَّ عليه، ولكنه لم يفعل، وعلى الرغم من قدرته على معاقبته، فإنه تلقّى عمله الشائن بلا مبالاه، ولم يعمد إلى عمل انتقامي، بل إنه في رده على استرضاء الرجل قال إن رضاه عنه في إصلاح حاله.

أبو ذر الغفاري من الشخصيات التي تربَّت في مدرسة الإسلام ومن أصحاب رسول الله(ص) الكرام. انتقد على عهد عثمان بعض الأعمال غير الصحيحة، فنُفِيَ بسبب ذلك.

قال رجل لأبي ذر رحمه الله: أنت الذي نفاك فلان من البلد، لو كان فيك خير ما نفاك. فقال: يا ابن أخي إن قُدَّامي عقبة كؤوداً إن نجوت منها لم يضرّني ما قلت، وإن لم أنج منها فأنا شرٌّ مما قلت لي[٩].

---

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٨٠٥.

(٨) بحار الأنوار، المجلسي ٩: ٥١٩.

(٩) مشكاة الأنوار: ٣٠٨.

كان أبو ذر مالكاً لغضبه، ولحسن تربيته تلقّى كلام الرجل الشائن ببرود، وغفر له من دون أن يحتدم غضباً عليه، وحتى لو كان قد غضب فعلا في باطنه، فإنّه استطاع أن يخفي ذلك، فلا يظهر عليه شيء منه. إن أشخاصاً أقوياء النفس وذوي إرادة، مثل أبي ذر، قليلون، فمعظم الناس في مثل هذا الموقف يغضبون ويحتدمون ويصرخون، وقد يصل بهم الأمر إلى تبادل الشتائم والسباب، أو حتى إلى تبادل اللطمات واللكمات، إلّا إذا منعهم من ذلك مانع وفصل بينهم.

يقول جابر: سمع علي(ع) رجلاً يشتم قنبر، وانبرى قنبر يريد أن يردَّ له الصاع صاعين، فصاح الإمام: «*يا قنبر، دَعْ شَاتِمَكَ مُهاناً تُرضِي الرَّحْمَنَ وتُسْخِطُ الشَّيْطَانَ وتُعاقِبُ عَدُوَّكَ*»(١٠).

ثم أقسم بأن المؤمن لم يُرضِ خالقه بمثل الحلم، ولم يسخط الشيطان بمثل السكوت، ولم يعاقب الأحمق بمثل الصمت.

إن من يتعرّض للاعتداء ويحسُّ بالخطر، يثور ويشتعل غضبه، وينبري للردِّ بكل قواه. فإذا استطاع قبل وقوع الخطر أن يمنع يد المعتدي من أن تمتد إليه ويدرأ عن نفسه أذاه، انطفأت سورة غضبه، وفرح بانتصاره وهذا هو الدفاع. أما إذا لم ينل غايته من دفاعه، ووقع الخطر المحذور، ونال المعتدي مبتغاه، فإن الغضب يظل مستعراً في قلب المعتدى عليه، وينقلب إلى الحقد والعداء، فيحاول أن يجد الفرصة المناسبة للتعويض عن هزيمته، ويدحر المعتدي. فإذا واتته الفرصة المنشودة، ونالت يده المعتدي، وهزمه، وتشفّى به بحيث يكون قد أشبع غريزة الغضب، فعند ذلك يُقال إنه قد انتقم. ويسمّى عمله «الإنتقام».

الدفاع للإنسان ولسائر الكائنات الحيّة أمر طبيعي وغريزي، ومن يتعرّض للظلم والاعتداء يجب عليه أن يدافع عن نفسه ويمنع وقوع الظلم عليه، لأن اللّا أباليّة في قبال الظلم تمهِّد الطريق أمام الظالم وتكون عوناً على استمرار الظلم

---

(١٠) سفينة البحار، القمي ١: ٣٠٠.

والجور.

والدفاع في مدرسة الأخلاق الإسلامية، بمعنى دفع الظلم والعدوان، ليس جائزاً فحسب، بل هو ممدوح إلى درجة أن المدافع في بعض الحالات إذا ضحّى بحياته في هذا الطريق يكون مثل المضحّين في سبيل الله وهو مأجور.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنه قال: «*مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فهوَ شَهيدٌ*»[١١].

أما الانتقام والأخذ بالثأر فعلى العكس من الدفاع، أمر مذموم، وقد استقبحه أئمة المسلمين في كثير من الأحاديث. فمن تواتيه القدرة على التسلّط على العدوّ، فينتقم منه من أجل التشفّي وتسكين الغيظ، يكون بعمله هذا قد أهان كرامة نفسه ومقامه الإنساني، وأهمل الكرم والفضيلة، ورضي بالضّعة والحقاره، وكشف عن طبيعته الحيوانية.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*المُبادَرَةُ إلى الانْتِقامِ مِنْ شِيَمِ اللِّئامِ*»[١٢].

وعنه(ع)، أنّه قال: «*دَعِ الانْتِقامَ فإنَّهُ مِنْ أسْوَأ أفْعالِ المُقْتَدِرِ*»[١٣].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: «*مَا أقْبَحَ الانْتِقامَ بِأهْلِ الأقْدارِ*»[١٤].

إن المظلوم عندما تصل يده إلى الظالم يجب عليه أن يرجع إلى المحاكم القضائية والقوانين الجزائية ليقاضيه وينيله عقابه بموجب محاكمة عادلة وبحسب الأصول والإجراءات السائدة، لا أن يقوم بنفسه بالانتقام منه حسب رغبته وهواه للتشفّي منه والشماتة به، فيرتكب هو نفسه أعمالاً ظالمة، وقد يتجاوز ذلك إلى القيام بأعمال لا إنسانية. إن اتّباع هذا الأسلوب في مجتمع يسوده القانون من واجب جميع الأفراد، كما قال القرآن الكريم:

---

(١١) سفينة البحار، القمي ١: ٧٣٠.

(١٢) فهرست الغرر: ٣٩٦.

(١٣) فهرست الغرر: ٣٩٦.

(١٤) تحف العقول، الحراني: ٣٥٩.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[١٥].

انتصار هؤلاء هو استعانتهم بالمؤمنين، بالقضاة العدول، وبالرأي العام، وبقوانين العقوبات، وبكل جهة يمكن بوساطتها وبمعونتها الانتصاف من الظالم وإنزال العقاب به من جهة، وعدم تجاوز الحد والتزام العدل والقسط بإشرافها من جهة أخرى.

تختلف العقوبات القانونية عن المعاقبات الانتقامية من وجوه. فالعقوبات القانونية تؤدي إلى تخفيض نسبة الجرائم، وإلى حفظ الأمن، واطمئنان الناس. أما المعاقبات الانتقامية فتثير الانفعالات، وتزيد من نسبة الجرائم، وتخل بالأمن، وتثير الاضطراب. في العقوبات القانونية يُراعى التوازن بين الجريمة وعقوبتها، فالمشرِّع قد عيّن عقوبة مناسبة لكل جريمة. ولكن الشخص الواقع تحت تأثير الغضب لا يلتفت في معاقباته الانتقامية إلى الموازنة بين الجريمة وعقابها، فهو متعطِّش للانتقام، ويتلذّذ بإنزال العذاب بعدوِّه، ويُعُدُّ ذلك انتصاراً، وكلما ازداد قسوة في معاقبة خصمه ازداد سروراً وفرحاً. أما العقوبات القانونية فليس فيها مكان للكلام القبيح والأعمال المخالفة للأخلاق، إذ إن الجريمة المنسوبة إلى المتهم تُدْرس في المحكمة وفق الأصول والآداب وبكل حرية. وإذا ثبتت عليه الجريمة فإنه ينال عقابه بموجب القوانين الموضوعة لجريمته. أما المعاقبات الانتقامية فهي عشوائية وغير محسوبة، وتتَّسم بقبيح الكلام، والسبّ والشتم، وهتك الحرمات، والإهانة، والفظاظة، والتخريب، والاعتداء، والجرح، وربَّما القتل والسلب والنهب. إن الهدف الرئيس للعقوبات القانونية هو ضبط النظام في المجتمع والمصلحة العامة. أمّا المعاقبات الانتقامية فهدفها الأساس هو إشباع الرغبة الشخصية، فالمنتقم يريد أن يجبر الهزيمة التي مُني بها من قبل، وأن يُطفىء نار غضبه، وأن يهدِّىء من روعه بأعماله الانتقامية.

---

(١٥) الشورى: ٣٩.

هنا يرد هذا السؤال: إذا كان الإنتقام مستقبحاً من أصحاب القدرة والقوة، والمعاقبات الانتقامية مذمومة، فلماذا يصف الله تعالى نفسه بالمنتقم في كثير من الآيات القرآنية، مؤكّداً أنه سوف ينتقم من الآثمين؟

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾[١٦].

جواب هذا السؤال هو أن الانتقام في اللغة يعني إنزال العقاب بالمنتقم منه. أما انتقام الإنسان فإنه من حيث العوامل والدوافع إلى الانتقام، وكذلك من حيث نوعية العقاب، يختلف بالطبع عن الانتقام الإلٓهي، كما يختلف من حيث الحسن والقبح أيضاً.

إن حب الانتقام عند الإنسان ناجم عن العجز والحقارة، ودافعه الأذى الذي ناله المنتقم من خصمه، فهو يريد بأعماله الانتقامية أن يردَّ على خصمه ما أنزله به من اعتداء، فيردّ عنفه بالعنف، ويجبر هزيمته وخيبته، ويطفىء نار غيظه وغضبه. ولّما كان هدفه هو التشفّي والتلذّذ بتعذيب خصمه، فهو لا يمنعه مانع من اقتراف أعمال انتقامية بعيدة عن العدل والإنصاف، لكي يحطِّم خصمه تحطيمًا كاملًا، فيحسُّ هو بالراحة والرضى، والله سبحانه وتعالى منزَّه عن كل هذه النقائص.

إن الله تعالى لا يُصيبه أذىً من أحد لكي يُقال إن انتقامه ردُّ فعل على ذلك. والله تعالى لا يَخيبُ ولا يُهزَمُ لكي يُقال إنه يريد أن يجبر هزيمته، وليس في ذاته المقدَّسة حبُّ التشفّي وغير وارد أساساً موضوع إطفاء غضبه بالانتقام من المجرمين. إن انتقام الله إنّما يعني إنزال العقاب بالمذنبين وفقاً للحقّ والعدالة.

والتجبُّر والتكبُّر، كالانتقام، من الصفات المذمومة في البشر، بينما اتّصاف الله تعالى بهما لائق وممدوح، فالقرآن الكريم من جهة، يرى هاتين الصفتين مذمومتين إذا كانتا في الإنسان، ولكنه، من جهة أُخرى، يصف الله تعالى بأنّه جبّار متكبّر:

﴿...كذلِكَ يَطْبَعُ ٱللهُ علَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾[١٧].

---

(١٦) السّجدة:٢٢.

(١٧) المؤمن: ٣٥.

﴿...ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[١٨].

إن عالم الوجود كله مسخَّر لإرادة الله تعالى وخاضع له، فهو خالق الكائنات والمالك الحقيقي لها، خلق عالم الوجود، بمشيئته، وأقام نظامه على أساس من العلم والحكمة، ويحكمه بكل اقتدار. كل الكائنات لا تملك إلّا أن تطيع أوامره التكوينية دون اعتراض وأن تتّبع سنة الله التي هي مظهر من مظاهر إرادته الحكيمة. وهذا هو معنى تجبّر الله، وهو ناجم من علمه وقدرته وحكمته.

أمـا منشأ تجبُّر الإنسان فهو الحقارة والجهل وضعف الإرادة. إن من يشعر بالضعة والحقارة لسبب أو أكثر من الأسباب، يحاول أن يُغطي هذا النقص فيه بإدِّعاء منزلة أو مقام مزعوم لنفسه. ولكنه إذ يرى الناس يرفضون تصديقه وقبول مزاعمه، يثور ويغضب، ويلجأ إلى التجبُّر والطغيان، وهو لجهله وضعف إرادته يعمد إلى العدوان لكي يفرض نفسه على الناس فرضاً ويحملهم على الإذعان لمزاعمه. وهذا هو التجبُّر البشري.

أما تكبُّر الله تعالى فناشىء من كمال وجوده. إن الله تعالى غنيٌّ بذاته، بينما الكائنات كلها محتاجة إليه، فلا يليق التكبُّر وإظهار العظمة إلّا به، لأنه هو العظيم الحقّ، وهو وحده الخصيص بالكبرياء دون غيره من الكائنات.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١٩].

إن الإنسان العاجز الفقير بذاته، والذي تختلط الحاجة في جوهره وتكوينه، لا يليق به التكبُّر، فهو لا يملك عظمة حقيقية كي يُظهرها، ولا يملك كبراً كي يتكبّر. إن تكبُّر الإنسان، مثل تجبُّره، ناجم عن حقارته الباطنية وضعفه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنَّه قال: «*مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلّا لِذِلَّةٍ وَجَدَها فِي نَفْسِهِ*»[٢٠].

---

(١٨) الحشر: ٢٣.

(١٩) الجاثية: ٣٧.

(٢٠) الكافي، الكليني ٢: ٣١٢.

بناءً على ذلك، الدين الإسلامي المقدَّس يحذِّر أتباعه من حب الانتقام والمعاقبات العشوائية، ولكنه أجاز لهم في حالات وقوع اعتداء وظلم عليهم أن يطلبوا العون والانتصار إلى الرأي العام، والإجراءات القانونية والمحاكم القضائية لإحقاق حقوقهم ومعاقبة الظالم معاقبة عادلة بموجب القانون. إلّا أنَّ هذه الإجازة لا تعني أن يقوم المظلوم، بعد صدور حكم القاضي ضد الظالم، بتنفيذ حكم القاضي وجوباً، وأن يُنزل عقاب المحكمة العادل بالمذنب حتمًا حيثما كان، وأنّى كان، إذ إن مصلحة المجتمع، من جهة، وكرم الأخلاق، من جهة أُخرى، يقضيان بمعاقبة بعض المجرمين أحياناً، وبالعفو عنهم أحياناً أُخرى. ولقد سبق في الفصل الثاني من الجزء الأول من كتاب الأخلاق هذا أن أشرنا إلى أنّه إذا سبَّب العفو الأخلاقي ضرراً، ودعا المجرم إلى المعاندة والجرأة، فإن المصلحة العامة والفردية تقتضي تنفيذ العقاب بحقّ المجرم. أما إذا ارتؤي أن العفو عن المجرم سيترك أثراً حسناً، ويحمل المجرم على إصلاح نفسه، ويدعوه إلى طلب المغفرة شاكراً، فمن الخير أن يتغاضى صاحب الحقّ عن غضبه وأن يعفو عنه من باب كرم الأخلاق، ويمنع عنه العقاب.

قال المنصور للصادق(ع): حدِّثني عنْ نفسِكَ بحديثٍ أتَّعِظُ بِهِ ويكونُ لي زاجرَ صدقٍ عنِ المُوبقاتِ.

فقال الصادق(ع): *«عَلَيْكَ بالحِلْمِ فإنَّهُ رُكْنُ العِلْمِ، وأمْلِكْ نَفْسَكَ عندَ أسبابِ القُدْرَةِ فإنَّكَ إنْ تَفْعَلْ مَا تَقْدِرُ عليْهِ كنتَ كَمَنْ شَفى غَيْظاً وَتَداوى حِقْداً أوْ يُحِبُّ أنْ يُذْكَرَ بالصَّوْلَةِ. واعْلَمْ بأنَّكَ إنْ عاقَبْتَ مُسْتَحِقاً لَم يكنْ غايَةُ مَا تُوصفُ بِهِ إلّا العَدْلَ والحالُ التي تُوجِبُ الشُّكْرَ أفضلُ منْ الحالِ التي تُوجِبُ الصَّبْرَ»*.

قال المنصور: وعظتَ فأحسنْتَ وقُلتَ فأوجزتَ[٢١].

فهل يستطيع الإنسان أن يقهر غريزة الغضب ويخضعها لسلطان العقل،

---

(٢١) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٠٤.

بحيث لا يغضب إلّا في الموقف الصحيح، ولا يستعمله إلّا بتعقُّل؟ هل يستطيع الإنسان أن يكبح جماح حبّ الاعتداء والخصام، ولا يرتكب الأعمال الانتقامية الوحشية؟ الإسلام يجيب عن أمثال هذا السؤال بالإيجاب، ويرى أن من الممكن التغلُّب على الغضب وروح المخاصمة بالتربية الصحيحة وبالسعي والمجاهدة. غير أن علماء النفس في هذا يختلفون وفي آرائهم متباينون، ويتّضح اختلافهم هذا في أبحاثهم المستفيضة التي كتبوها بخصوص الحرب. هنا نورد بعض ماقاله علماء النفس ليطّلع عليه القرّاء، ثم ندرس الأحاديث الإسلامية الواردة بشأن هذا الموضوع.

بعض علماء النفس، ومنهم فرويد، يفسّرون الحرب وفق منطق علم النفس، ويرونها ناجمة عن غريزة حبّ الاعتداء والمخاصمة، فيقولون: المدنية تنحّي غريزة حبّ الخصام والاعتداء، وتقمعها، وتحول دون إشباعها، فتتنحى هذه الغريزة لتكمن في الوعي الباطن قلقة غير مستقرة، تتحين الفرص المناسبة للبروز إلى الوعي الظاهر، والقيام بأعمالها التخريبية إشباعاً لذاتها، وخير فرصة مناسبة لها هو الحرب حيث تستطيع أن تصول وتجول وتخرِّب وتخاصم وتهاجم وترتكب المذابح الوحشية.

أكثر علماء النفس الذين يرون هذا الرأي يقولون إن حبّ الخصام والاعتداء قد جُبل في طبيعة الإنسان وهو لا يمكن أن يزول، ولّما كانت الحرب وإراقة الدماء هي وسيلة إشباع هذه الغريزة، فمن المستبعد أن تنقرض الحرب يوماً من العالم انقراضاً نهائياً وينجو الإنسان من شرّها.

«يطرح (فرويد) موضوع الحرب من حيث وجهة نظر علم النفس ويحاول أن يبيّن السبب الذي يدفع الناس إلى الاحتراب كما يفسّره علم النفس. وهو في كتابه (الإضطرابات في المدنية) يشرح الحرب فيقول: من البديهي أن لا يكون الإقلاع عن إشباع حبِّ الاعتداء الموجود في طبيعة الناس أمراً سهلاً عليهم. إن الفئة المتمدّنة التي تحرّض أعضاءها على محاربة فئة أُخرى إنّما هي

تفتح لهم مهرباً من الاستثارات الغريزية»[٢٢].

«يعتقد أتباع فرويد اعتقاداً جازماً بأن وجود حبِّ الخصام فينا أمر مسلَّم به، ولكنه غالباً ما يكون أشبه بالنار تحت الرماد. غير أن التفتيشات والموانع التي يفرضها المجتمع على الفرد تستثير هذه الغريزة فيه وتقوّيها. كما أن هذه الغريزة تقوّي حبَّ الانتقام عند الإنسان، وتكون الحرب، بوصفها مشروعة في نظر المجتمع، سوقاً رائجة لها، وتكون النتيجة أن غالبية المجتمع تنظر إلى الحرب برضى»[٢٣].

«يقول (اتو كلاينبرغ): إنهم غالباً ما يشكُّون في إمكان محو الحرب، قائلين أن حبَّ المخاصمة من الخصائص الطبيعية المهمة في الإنسان»[٢٤].

هناك عدد من علماء النفس رفضوا فكرة تفسير الحرب طبقاً لوجهة نظر علم النفس وقالوا إن ذلك غير صحيح، وشرحوا بطلان نظرية فرويد وأتباعه في عدد من كتبهم شرحاً مسهباً، بل إن بعضهم وصف تلك النظرية بأنها صبيانية ولا أساس لها إطلاقاً.

«يقول (إدغار بش) أستاذ علم النفس الفرنسي: إن قضية الحرب التي كثيراً ما أقلقت الفلاسفة والعلماء المحبِّين للإنسانية، قد استلفتت نظر فرويد أيضاً، إلّا أن إغفاله العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد أدَّى به إلى عدم تمكّنه من تحليل الموضوع تحليلاً عميقاً»[٢٥].

«يقول (اوتو كلاينبرغ): سواء أكان أساس حبِّ الخصام فطرياً أم لم يكن، فإنه قد يتغير بتأثير الثقافة بطرق مختلفة، ففي مجتمع ما يمكن أن يقوى حب الخصام هذا، وفي مجتمع آخر قد ينعدم تماماً.

---

(٢٢) أفكار فرويد: ١٢٤.

(٢٣) علم النفس الاجتماعي ١: ٩٩.

(٢٤) علم النفس الاجتماعي ١: ٦٣.

(٢٥) أفكار فرويد: ١٢٤.

علماء الأجناس وعلماء علم النفس الاجتماعي يردّون بالنفي بالقاطع على السؤال القائل: هل الحرب لا يمكن تجنبها لأن غريزة حب المخاصمة والعدوان موجودة في البشر؟ لّما كانت الحرب قضية اجتماعية، كان لا بدَّ من تفسيرها بما يتّفق والبنية الاجتماعية التي تقع فيها الحرب.

أصبح القول بأن للعامل الاقتصادي أثراً كبيراً في إيجاد الحرب يقوى يوماً بعد يوم لكثرة الأدلة التي تؤيده. كما أن بعضهم يقول إن في مدنيتنا الحاضرة سرعان ما يتحوّل حب الوطن إلى الاتجاه المفرط نحو القومية التي تتّسم بالرغبة في الفتوحات والتوسُّع الإقليمي. ففي الدول الفاشية، حيث كان حب الوطن مصحوباً بإشعال نيران الحرب، يمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح. على كل حال يمكن القول بكل تأكيد بأن البحث عن أسباب الحرب يجب أن يدور في المجتمع، لا في طبيعة الإنسان»[٢٦].

«يقول (جون ديوي): لا بدَّ أن نشكر ويليام جيمز لمجرد أنه وضع لكتابه عنوان (المعادل الأخلاقي للحرب)، لأن هذا العنوان يكشف بوضوح تام علم نفس الحرب الحقيقي. إن تعبير (معادل) الحرب يلفت انتباه المرء إلى اختلاط الغرائز وتمازجها تحت القيادة التصادفية لغريزة حبِّ الاعتداء والخصام.

إن المخاصمة، والتنافس، وحب الظهور، والخوف، وسوء الظنّ، والتهرّب من القانون، وحب الجاه، والنفور من الظلم، والتعلّق بالبيت والأرض، والعلاقة مع الآخرين، والشجاعة، والوفاء، والشهرة أو الثروة والمقام، والمحبة والتعاطف، واحترام الماضين والآلهة القديمة، هذه كلها تضع يداً بيد لإيجاد حالة من حب الحرب وتحولها إلى طاقة. اما التصور بان في الانسان طاقة ثابتة باسم حبِّ الاعتداء هي التي تدفعه للاتجاه إلى الحرب فإنه تصوّر صبياني ولا أساس له»[٢٧].

---

(٢٦) علم النفس الاجتماعي ١: ٩٨.

(٢٧) الأخلاق والسخصة: ١١٠.

يتبيّن من هذا الموجز اختلاف نظر علماء النفس في الحرب. وقد لاحظنا أن نظرية تلك الفئة من علماء النفس الذين يفسّرون الحرب. وفق منطق علم النفس، ويعتبرونها حتمية ولا يمكن تجنّبها، تستند إلى مبدأين: الأول هو أن ميل الإنسان إلى الحرب ناجم عن غريزة الاعتداء، والثاني هو أن غريزة الإعتداء قد جُبلت في طينة الإنسان ولا يمكن إزالتها. وهي تستنتج من هذين المبدأين أن الحرب والخصام في العالم أمر طبيعي لا يزول أبداً.

وبموجب نظرية هؤلاء يكون الانتقام، مثل الحرب، لا يمكن تجنّبه، وأن الإنسان لا يمكن أن ينزّه نفسه عن هذه الصفة القبيحة،ذلك لأن جميع عناصر الحرب موجودة في الانتقام أيضاً، بل يمكن القول بأن الانتقام هو بذاته ضرب من ضروب الحرب والخصام، يقع بين شخصين، أو عائلتين، أو قبيلتين، أو مدينتين، أو عنصرين، أو دولتين، والمنتقم يهاجم خصمه إشباعاً لغريزة حب الاعتداء عنده، وقد يصل به الأمر إلى ارتكاب الجرائم الكبيرة.

أما الإسلام فيضع كبح جماح الغضب وتمالك النفس عن الانتقام في مصاف سائر الواجبات الأخلاقية، ويوجبه على المسلمين. إننا نعلم أن الله الحكيم لا يكلّف الناس ما لا يطيقون، فلو كان التغلّب على الغضب وروح الاعتداء أمراً مستحيلاً لما جعله الدين الإسلامي واجباً من واجبات المسلمين، ولَما كلّفهم به.

إن الإنسان غرض دائم لتدافع الغرائز الحيوانية والميول الإنسانية السامية. فمن جهة تطلب الغرائز العمي وغير العاقلة الحرية المطلقة في إشباع متطلّباتها دون قيد أو شرط، وإن تكن متطلباتها هذه تستتبع الإثم والمعصية، ومن جهة أُخرى يطلب العقل والضمير الأخلاقي التزام الفضيلة وكرم الأخلاق، ويحذّران الإنسان من ارتكاب أعمال غير إنسانية ومضرّة بالمصلحة العامة والخاصة. والإنسان هو الذي يجب عليه في خضم هذه الدوافع والجواذب أن يتّخذ قراره، إمّا في أن يسير على وفق أهوائه النفسية، فيسحق بقدمه إنسانيته، وإمّا في أن يطيع نداء العقل والضمير الأخلاقي،

ولا ينفّذ أوامر النفس إلاّ في حدود المصلحة مع احترام الكرامة الإنسانية.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*النّفسُ مَجْبولَةٌ على سُوءِ الأدَب، والعبْدُ مأمورٌ بملازَمَةِ حُسنِ الأدَب، والنّفسُ تَجري بطَبْعِها في ميدانِ المخالَفَةِ، والعبْدُ يَجْهَدُ بردِّها عنْ سوءِ المطالَبَةِ، فمَتى أطلَقَ عِنانَها فهوَ شريكٌ في فسادِها، ومنْ أعانَ نفسَهُ في هَوى نفْسِه، فقد اشرَكَ نفسَهُ في قتْلِ نفسِهِ*»[٢٨].

مجاهدة النفس، والتخلّق بالسجايا الإنسانية، مدعاة للتعالي المعنوي والتكامل الروحي. الجهاد مع النفس وتزكية الروح من أهم طرق التغلّب على الغضب وحبّ الخصام، وتجنّب القيام بالأعمال الانتقامية. بيْدَ أن الانتصار في هذا الجهاد المقدّس عسير، فالذين يمتلكون الإرادة وقوة النفس هم الذين يستطيعون كبح جماح الغضب ويوقفون طغيانه عند حدّه.

عن النبيّ(ص)، أنّه قال: «*أشَدُّكُم منْ مَلَكَ نفْسَهُ عنْدَ الغَضب، وأحْلَمُكم منْ عفَا عنْدَ المقْدرةِ*»[٢٩].

هناك من يبلغ في جهاد النفس أعلى مدارج السموّ وينتصر انتصاراً نهائياً. هؤلاء فضلاً عن كونهم لا ينتقمون من أعدائهم عند المقدرة، ولا يرتكبون أعمالاً تتّصف بالظلم والجور، فإنهم، لأرواحهم الزكية، لا تخطر لهم فكرة الظلم، ولا تستطيع غريزة الغضب والانتقام أن توسوس لهم بالمعصية وبتلويث نواياهم الطاهرة بالأفكار الآثمة.

عن النبيّ(ص)، أنّه قال: «*يَا عَلِي، أفْضَلُ الجِهادِ مَنْ أصْبَحَ وَلا يَهمُّ بظُلْمِ أحَدٍ*»[٣٠].

لا بدّ هنا من الإشارة إلى أن تجنّب الغضب والانتقام ليس ضرورياً من حيث

---

(٢٨) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٢٧٠.

(٢٩) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٥: ٣٠٩.

(٣٠) وسائل الشّيعة، العاملي، باب وجوب جهاد النفس: ٢٢.

الرشد المعنوي والسموّ الروحي فحسب، بل إن العقل، المنطق، السلامة الجسمية، هدوء البال، العزة الاجتماعية ورفاهية الحياة، كلها تفرض هذا التجنّب عن ارتكاب الأعمال الانتقامية والاعتدائية، لكيلا نجعل الحياة علينا وعلى الآخرين مُرَّة غير مستساغة.

في الحديث المسهب الذي عدَّد فيه الإمام موسى ابن جعفر(ع) جنود العقل والجهل، أشار إلى العفو، ووصفه بأنّه من جنود العقل، ووضع الحقد والانتقام في مصافّ جنود الجهل[٣١].

إن من يصل إلى السلطة ويصبح قادراً على خصمه، إذا عزم على الانتقام من أجل أن يطفيء نار غضبه ويتشفّى من خصمه، عليه أنّ يدرك أن عزمه ذاك ليس إلّا من باب الجهل، وأنّ انتقامه يخالف العقل والمصلحة من وجوه عدة، كما يلي شرحه:

١ـ العفـو والتغـاضي عن الإسـاءة من السجـايا الإنسانية، والانتقام من الصفات الحيوانية. إنِ من ينهزم أمام غريزة الغضب، وسعى للانتقام لكي يُشبع هذه الغريزة يكون قد تخلّى عن الفضيلة، وهجر السموّ الإنساني، وعاد إلى طبيعته الحيوانية.

عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «*مَنْ غَلَبَ علَيْهِ غَضَبُهُ وشَهْوَتُهُ فهوَ في حَيِّزِ البَهائِمِ*»[٣٢].

٢ـ العفو والتغاضي عن الإساءة يحكيان عن عظمة الشخص وعن سموّه الأخلاقي. والانتقام دليل على ضعة الطبع وخبث الطويّة الحقود. إن عظمة الإنسان وعلوّ قدره ينحطّان وزناً وقيمة في أنظار الناس بالانتقام، ويصغر المنتقم في أعينهم.

قال أمير المؤمنين(ع): «*لَا سُؤدَدَ مَعَ الانْتِقامِ*»[٣٣].

---

(٣١) تحف العقول، الحراني: ١٠٤.

(٣٢) فهرست الغرر: ٢٩٢.

(٣٣) فهرست الغرر: ٣٩٦.

٣ـ إذا كان الهدف من الانتقام هو التلذّذ بمعاقبة الخصم والتشفّي منه، فإنّ كبت الغيظ والغضب والعفو عن الخصم مدعاة للفرح والسرور أيضاً، مع فارق أن لذّة الانتقام لذّة غريزية وحيوانية، ولذّة العفو والتغاضي معنوية وروحية، واللذّة المعنوية عند الفضلاء من الناس أحبُّ من كلّ لذّة مادية.

كان علي بن الحسين(ع) يقول: «*...مَا تَجَرَّعْتُ جُرْعَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ لَا أُكافِىء بِها صَاحِبَها*»[٣٤].

٤ـ إذا كان المنتقم يقصد بانتقامه أن يبيّن قدرته وقوته على تحطيم خصمه لكي يزداد نفوذاً في المجتمع، ويفرض احترامه عليه، فهو على خطأ فاحش، إذ إن الانتقام إذا لم يبعث على احتقاره وانحطاطه ونفور الناس منه وسوء ظنّهم به، فإنه لن يكون حتمًا سبباً لعظمته وعزّته، ولا يزيد من حب الآخرين له. ولكنه إذا استطاع امتلاك القدرة على الانتقام، استطاع أن يكبح غضبه، ويعفو عن عدوه، ويضعه موضع المدين له بما يبديه له من عفو خلقي وكرامة نفس، ويجلب، في الوقت نفسه، احترام الناس وتقديرهم لعواطفه الإنسانية، فيزداد عزّاً ومحبوبية في أعينهم.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: قالَ رسُولُ اللهِ(ص): «*عَلَيْكُمْ بِالعَفْوِ فإنَّ العَفْوَ لَا يَزيدُ العَبْدَ إلّا عِزّاً، فَتعافَوْا يُعِزُّكُم اللهُ*»[٣٥].

٥ـ المنتقم أعمى وأصم في حالة الانتقام، فلا ينتبه لأفعاله إن كانت خيراً أو شراً، ولربما ارتكب ذنباً كبيراً فيما هو يريد إشباع غريزة الغضب عنده وبهدّىء من ثورته، فيُغضب الله بذلك، ويكون سبباً في سقوط نفسه سقوطاً معنوياً. يشير الإمام علي(ع) إلى هذا الخطر الكبير في حديث له قصير، ويحذّر المسلمين من ذلك بقوله:

«*لَا يَحْمِلَنَّكَ الحَنَقُ عَلى اقْتِرافِ الإثْمِ فَتَشْفِيَ غَيْظَكَ وتُسْقِمَ دِينَكَ*»[٣٦].

---

(٣٤) الكافي، الكليني ٢: ١٠٩.

(٣٥) الكافي، الكليني ٢: ١٠٨.

(٣٦) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢٠: ٣٢٨.

الحلم والاحتمال، وإطفاء الغضب، والعفو، من الأخلاق الكريمة عند ائمة المسلمين. لقد واجهوا طوال حياتهم الكثير من أذى الأعداء وزلل هذا وذاك، ولكنهم لم يردُّوا على ذلك بالخشونة والانتقام، بل غفروا للمؤذين أذاهم، وقابلوا زلل الزالّين باللطف والإحسان، وأظهروا في كل المواقف عظمتهم وكرامة نفوسهم. وإليكم فيما يلي مثالاً من سيرة حياة قائد الإسلام:

بعد أن بُعث رسول الله(ص) بالرسالة في مكة وأعلن دعوته، انبرى أشراف مكة ورجال قريش لمعارضته، وكلّما تقدّم نبي الإسلام في دعوته ونشر نفوذه، زاد أُولئك من شدة معارضتهم ومن إيذائهم النبي وأتباعه من المسلمين.

وكان لا بدَّ للأصنام أن تُحطّم، كما يأمر الإسلام، وللظلم أن يزول، وللقوة أن تخضع للحقّ، فلا يسيء زعماء القبائل استعمال نفوذهم، ولا يعتدي أحد على حرمة أحد في ماله وعرضه ونفسه، وأن يتساوى الناس جميعاً في حقوقهم.

غير أن الرؤساء المعاندين الذين كانوا يرون مقاماتهم ومراكزهم يتهدّدها تقدّم الإسلام بالخطر الداهم، اتّحدوا وعزموا على إخافة النبي بالتهديد والوعيد والإسكات، وبضرب المسلمين وسبّهم وشتمهم وتحقيرهم وهتك حرماتهم وحتى بسجنهم، لكي يرجعوهم عن إسلامهم ويقتلعوا شجيرة الإسلام من جذورها، ولكنهم أخفقوا فيما راموا، فاتّخذوا إجراءات أشدَّ وأقسى، وارتكبوا أعمالاً غير إنسانية، وراحوا يعذّبون المسلمين، فيكوونهم بالحديد المحمّى، أو يجلدونهم بالسياط حتى تتقرَّح أجسادهم، وأصبحت الحياة في مكة لا تُطاق للمسلمين، فاضطر عدد من المسلمين إلى أن يهاجروا من مكة إلى الحبشة بموافقة رسول الله(ص)،وبقي الآخرون مع النبي في مكة يواصلون نشاطهم سراً وتحت ظروف قاسية جداً.

ولكن المشركين الذين أخفقت خططهم باستعمال العنف والقسوة في الحد من انتشار الإسلام، عزموا على التخلّص من النبي بقتله، فتعاهدوا فيما بينهم على ذلك، ووضعوا خطة متقنة للتنفيذ، فأخبر الله تعالى رسوله بخطتهم، وأمر المسلمين بالهجرة،

فاضطر رسول الإسلام إلى أن يترك الكعبة المكرّمة ويهاجر من مكة التي ولد فيها وأحبَّها، إلى المدينة. إلّا أن تغيير المحيط هذا ساعد على انتشار الإسلام أكثر فأكثر، وراح الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وبعد بضع سنوات تهيّأت ظروف انتصار المسلمين، فقرَّر رسول الله(ص) أن يفتح مكة، فتحرَّك بجيش لجب وخطة منظّمة من المدينة ودخل مكة دون أن يحسّ به أحد، فلم يجد رجال العرب الذين أُخذوا على حين غرَّة بُدَّاً من الاستسلام دون مقاومة.

كان يوم فتح مكة من ألمع الأيام في تاريخ الإسلام. ففي ذلك اليوم تمَّ تحطيم جميع الأصنام التي كانت في الكعبة، وأُزيلت من فوق جُدرها النقوش التي تمثّل الشرك، وصعد المؤذن على ظهر الكعبة يرفع صوته بنداء الله أكبر مؤذناً ومنادياً بكلمة التوحيد كقاعدة أساس لتعاليم القرآن الكريم، فتصكُّ أسماع المستمعين، معلنة انتهاء دور الشرك وعبادة الأصنام.

هذا الحدث غير المنتظر أوقع رجال قريش في حال عجيبة. فمن جهة تراهم قد فقدوا بسقوط مكة كل ما كان لديهم من سلطان ومقام اجتماعي، واستولى عليهم القلق والاضطراب، ومن جهة أُخرى ما كانوا يعرفون ما الذي ينتظرهم في المستقبل المظلم، يخشون انتقام المسلمين، واثقين من أن حياتهم كلها يتهدّدها خطر الفناء.

أما المسلمون فلم يكونوا، من شدة فرحهم بهذا الانتصار العظيم، يعرفون رأساً من قدم، إنما كانوا يشكرون الله على ما آتاهم من فتح مكة. إلّا أن بعضاً منهم ما أن رأوا رجال قريش حتى تذكّروا العذاب الذي ذاقوه على أيديهم قبل أن يهاجروا، وخطرت لهم أعمالهم الوحشية في غزوة أُحد، فكانوا يتحرَّقون للانتقام من معذِّبيهم.

كان أبو سفيان واقفاً في طريق المسلمين يراقب صفوفهم المتراصَّة وهم يمرُّون به. وكان سعد بن عبادة رافعاً العلم ويتقدّم الأنصار، فلمّا وصل إلى حيث كان يقف أبو سفيان، ألتفت فرآه، فصاح به محتدماً: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم أذلَّ

الله قريشاً.

فتطيَّر أبو سفيان من كلام سعد واعتبره نذير خطر لقريش. ثم لم يلبث رسول الله(ص) أن وصل، محفوفاً بكبار رجاله وقادته، إلى حيث كان أبو سفيان، وإذ رآه هذا صاح: يا رسول الله، أأمرت بقتل قومك؟ وردّد ما قاله سعد من قبل.

فقال رسول الله (ص) «*يا أبا سفيان، كذب سعد. اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ الله فيه قريشاً*»[٣٧].

لقد كان قائد الإسلام العظيم يفكّر خلال فتح مكة بإعلاء كلمة الحقّ وحرية الناس. كان يرى أن انتصار المسلمين سوف يعمل على نشر الإسلام، وتسود عبادة الواحد الأحد، وينشر الحق والعدل، ويقضى على الظلم والاستبداد، ويزول التمايز الطبقي، وينعم جميع الناس في ظل التعاليم الإلهيّة بحقوق متساوية ولم يكن ينوي لقريش ولأعدائه الآخرين سوى كل خير. لقد كان رسول الله مربياً للبشر، ولم يكن قلبه النيّر يحمل أي حقد أو رغبة في انتقام. كان قد نوى منذ البداية أن يرد إساءات قريش بالإحسان، فيعفو عن جرائمهم، وأن يعاملهم معاملة الرجل العظيم الكريم. لذلك حقق نواياه هذه في أول فرصة واتته، وشملهم جميعاً بعفوه.

دخل الرسول الكريم المسجد الحرام حيث اكتظ بالمسلمين وبقريش، فطاف بالحرم، ثم أمر بفتح باب الكعبة، فدخلها ثم عاد بعد برهة، ووقف على عتبة الباب يواجه الناس، وأخذ يتكلّم، فحمد الله تعالى واثنى عليه، وأشار إلى بعض شؤون المسلمين، رافضاً مفاخر عصر الجاهلية، وأكّد على أن الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب. ثم قال: «ماذا تقولون؟ ماذا تظنُّون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً! فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظنُّ خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت[٣٨].

---

(٣٧) السيرة الحلبية ٣: ٩٥.

(٣٨) السيرة الحلبيّة ٣: ١١٣.

وران على المسجد صمت رهيب وراحت القلوب تخفق في الصدور. كانت قريش تقف على مفترق طريقيّ العفو الانتقام، وترى حياتها ومماتها معلّقين بما يتّخذه الرسول(ص) من قرار. كانت لحظات من الترقّب والهلع والاضطراب، لا يعلمون ما يكون مصيرهم في اللحظة التالية. كانت العيون شاخصة مشدودة إلى شفتيّ رسول الله(ص). تنتظر ما تنفرج عنه تلكما الشّفتان. وارتفع فجأة صوت الرسول الدافئ النافذ، محطّمًا صمت المسجد الحرم، قائلًا:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذه الكلمة القصيرة أثارت طوفاناً عظيمًا بين الناس، طوفاناً من الهياج والانفعال والبهجة والانشراح، طوفاناً يعجز القلم واللسان عن وصفه. فهو بدلاً من أن يُصدر أمره بالثأر والانتقام من قريش، وبوضع السيف فيهم وإجراء الأنهار من دمائهم، عفا عنهم جميعاً، وحملهم على أن عانق بعضهم بعضاً، وعلى أن يذرفوا دموع الفرح بغزارة. كان القريّشيون قد غسلوا أيديهم من الحياة، ورأوا أنفسهم يعانقون ملك الموت، ولكنهم بعفو قائد الإسلام عنهم كانوا كمن وهِب حياة جديدة فخرجوا فكأنما نُشروا من القبور فدخلوا في الإسلام[٣٩].

كان قائد الإسلام يملك يومئذٍ كل القدرة على الانتقام من جميع إساءات القريشيين، وعلى معاقبتهم أشدَّ عقاب، ولكنه، لعظمة نفسه وكرم أخلاقه، عفا عنهم وتغاضى عن معاقبتهم. هذه الخطوة الإنسانية وضعت، من جهة، طوق الفضل في أعناق القريشيِّين، وبذلك انتصر الإسلام انتصاراً جديداً، كما أنها، من جهة أُخرى، أثّرت تأثيراً عميقاً في نفوس المسلمين، وزادت في حبهم لقائدهم.

وهكذا نجد أن العفو الذي يقع في الوقت المناسب يدل على الخلق الفضيل والنفس الكريمة، ويهب صاحبه العزّة والمحبوبية. وعلى العكس من ذلك، نجد أن

---

(٣٩) السيرة الحلبيّة ٣: ١١٣. (ن.م).

الحقد وحب الانتقام يدلّان على طغيان الميول الحيوانية والانحدار نحو الانحطاط والضعة، إن من يريد أن يحيا متمتعاً بالسجايا الإنسانية لا بدَّ له من التزام موجبات العظمة ومكارم الأخلاق، وتجنّب الحقارة والدونية، وعدم الردّ على إساءات الآخرين بالإساءة.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: *«مَنْ أكرَمَكَ فَأكْرِمْهُ، ومَنِ اسْتَخَفَّ بِكَ فأكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْهُ»*[٤٠].

---

(٤٠) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٧٤.

الفصل العشرون

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَـارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

القرآن الكريم

الإنسانيةوالسموّ بالغرائز

يختلف الروحيون والماديون من حيث نظرتهم إلى الروح، ولكن كلا الطرفين متّفقان بشأن القيم الإنسانية، واعتبارها مهمة وقيِّمة ومحترمة. وليست القيم الإنسانية، بالطبع، على درجة واحدة من حيث المنزلة المعنوية والروحية، فبعض هذه القيم لها تأثير مباشر في حياة الناس المادية، ويمكن الإحساس بأهميتها عند الافتقار إليها، إذ إن المجتمع يُصاب بالضرر والخسارة من جرّاء انعدامها، مثل: العدل، والإنصاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والصدق. فعلى قدر وجود نسبة الظلم، وعدم الإنصاف، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، والكَذِب، والخداع، تكون نسبة الخلل الاجتماعي ومواجهة الناس للمصائب والمشكلات. هذا النوع من القيم التي لها دورها في ضمان حياة سليمة وسعيدة للإنسان، يؤيدها ويتقبَّلها الماديون والروحيون على السواء.

هناك قيم تقف على أرفع المستويات وتدل على أعلى درجات الإنسانية، مثل معاناة البحث عن الله، والخلوص في العمل، والسعي للدفاع عن المظلومين والمحرومين، والتضحية في سبيل نجاة المستضعفين، والمجاهدة في كسر قيود العبودية

وتحرير الناس، والعمل على نشر العدل وإقامة الحقّ، ومواساة المتألمين، وتحمُّل هموم المظلومين. هذا النوع من القيم التي تحكي عن السموّ الروحي والتكامل المعنوي يختص بالمؤمنين الحقيقيِّين والأشخاص الصادقين، فهؤلاء هم الذين يتمنَّون لأنفسهم الألم ويعشقونه، ويطلبون الحياة للحمى وللسهر على آلام الإنسانية.

قد يسأل سائل قائلاً: إن العذاب والألم والتألم ليست من الأمور الحسنة، فكيف نعدّها من الحسنات ونضعها في صف القيم الإنسانية؟ فنقول: ينبغي البحث عن الحسن والسيِّيء من الآلام في مصدر الألم، لا في الألم نفسه، فالألم ليس شيئاً سيِّئاً، إنّه إحساس، وهو فهم وإدراك والألم نذير بالخطر، فهو يحذِّر المتألم ويحمله على التفكير في البحث عن علاج، وهذه كلها ليست سيِّئة. إنّما السِّيىء هو أن لا يحسَّ المرء بالألم، ولا يكون على معرفة بحاله، ويقضي أيامه في الغيبوبة واللّا وعي.

مصدر الألم في الآلام الجسمية هو النقص العضوي، أو تشوّه القامة، أو العوارض الأخرى غير المرغوب فيها والتي تظهر في مختلف أجزاء الجسم. فالألم يُعلن عن وجود المرض، ويُخطِرُ المريض بأن عليه أن يُعالج المرض. وكلّما كان المرض أشدّ كان إحساس المريض بالألم أشدَّ أيضاً.

أما مصدر الآلام المعنوية في المتألمين روحياً فليس من الأعراض السيِّئة وغير المرغوب فيها، بل إن معرفة الذات، وسلامة الفكر، والحاجة إلى الكمال، وعشق السموّ ونيل السعادة الأبدية، هي التي تجعل الإنسان اليقظ القلب والواعي متألماً لا يقرُّ له قرار، وتحمله على السعي والمجاهدة والتحرُّك للوصول إلى أسمى القيم الإنسانية. وكلّما كان الوعي الباطني في هذا الإنسان وعشقه للكمال أقوى، كان إحساسه بالألم الروحي أقوى أيضاً.

إن المتألمين من أجل الفضيلة والحقّ، وعشّاق العدل والحرية لا يبرحون يفكِّرون في خير المجتمع وصلاحه، ويرون سعادتهم في حبِّ الإنسان وخدمة الآخرين، يسرُّهم أن يجدوا الناس مرفَّهين متنعِّمين، ويتألَّمون إذا وجدوا الناس تعسين متألمين.

أعظم القيم الإنسانية في نظرهم هو توفير السعادة للناس، ولذلك يبذلون أقصى الجهد والسعي لبلوغ ذلك الهدف، لا يتهيَّبون التضحية والفداء في سبيل إزاحة الغم والشقاء والتعاسة المادية والمعنوية من حياة الناس، ويتمنَّون لو أنهم يواصلون هذه المسيرة المقدَّسة طوال حياتهم بكل حرقة واندفاع.

هذا الضرب من العظماء وصانعي المفاخر كان له وجود دائمًا في مختلف أدوار البشرية، وإن قلَّ أو كثر أحياناً، حيث نعم كثير من الناس في كل عصر وزمان بأفضال وجودهم. وعلى رأس هؤلاء يأتي الأنبياء الإلٰهيُّون، لأن هؤلاء لا يبخلون بجهد ولا عناء في سبيل إصلاح دين الناس ودنياهم، وضمان السعادة المادية والمعنوية لهم. ولقد تحمَّلوا في هذا الطريق شتَّى صنوف العذاب، حتى إن بعضهم قد ضحَّوا بأنفسهم في سبيل ذلك.

كان أنبياء الله يحاربون على جبهتين من أجل إنقاذ المستضعفين وغير الواعين، فمن جهة كانوا يحاربون الشرك في العبادة والآلهة المزيّفة، ومن جهة أُخرى كانوا يصارعون حكومات الجبّارين والطغاة في زمانهم.

ولكي يقيموا أُسس التوحيد في العبادة، ويحرِّروا الناس من العبوديات الموهومة، كانوا في صراع دائم مع الأصنام وعبادتها. فمرَّة بسلاح المنطق والإستدلال يُحاربون فيوقظون العقول النائمة، ومرَّة يُحطّمون الأصنام ليُفهموا الناس عملياً تفاهة الآلهة الكاذبة التي يعبدونها.

ولكي يُسقطوا الحكومات الطاغوتية، ويقطِّعوا سلاسل العبودية، ويخلِّصوا الناس من قيود الأسر، كانوا ينهضون في وجوه المستكبرين، ويقلبون عروش ألوهية الفراعنة والنمرودين في زمانهم بقوة الإيمان، ويحطّمون عنادهم واستبدادهم، ويهدّمون قصورهم الفارهة على رؤوسهم.

كان قائد الإسلام العظيم يتألم في سبيل هداية الضالين والدفاع عن المحرومين، ولا يقرُّ له قرار لما كان يتميز به من أرفع مشاعر حب البشرية والقيم

الإنسانية. لقد كان يتعذّب أشدَّ العذاب بسبب جهل الناس وظلمهم وشقائهم وتعاستهم، ويقضي أيامه ولياليه في ألم وعذاب. كان يراهم يعبدون الأصنام التي اصطنعوها بأنفسهم ويعتبرونها هي التي تقرر مصائرهم، ويتّخذون من المرأة سلعة تجارية، كالحيوانات، يربحونها أو يخسرونها على موائد القمار، ويئدون مواليدهم البنات زاعمين أن جريمتهم تلك هي الغيرة والحمية، يغيرون على القوافل فينهبونها ويستحوذون على أموالها قائلين إن ذلك قمة الشجاعة. ألوان الجهل هذه كانت تجعل الحياة على النبي الكريم كالحنظل مرارة لا تطاق، ولكنه كان يعرف أن طريق الخلاص من هذه الحالة الشائنة المؤلمة هو التحوّل الثقافي وتغيير تفكير المجتمع.

كانت تعاليم الإسلام قادرة على الوصول إلى هذا الهدف السامي بكل يسر وسهولة، فتصلح أفكار الناس وتُريهم طريق النجاة. ولكن الذي يُؤسف له هو أن أولئك القوم المتعصّبين القصيريّ النظر رفضوا قبول الإسلام، ورفضوا التخلّي عن سلوكهم غير الصحيح، والرضى بالتعاليم القرآنية الشريفة، وكان هذا العناد والتعصُّب نفسه مدعاة لمضاعفة آلام رسول الله(ص)، حتى كان أحياناً يوشك على الهلاك من شدة الغم والألم والعذاب النفسي، يقول القرآن الكريم في ذلك:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلى ءَاثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذا الحَديثِ أسَفاً﴾[1].

إن الذين لا يحسُّون بمصائب المستضعفين والمحرومين، ولا تهمهم تعاسة الآخرين وابتلاءاتهم، ولا يرون سوى أنفسهم، ولا يسعون إلّا في سبيل إشباع حاجاتهم، كالحيوانات، ليسوا من الإنسان في شيء، ولا نصيب لهم من الخصيصة الإنسانية التي نسمّيها حب الآخرين.

«هنالك بيننا أنانيُّون لا يُبالون بسعادة الآخرين أو تعاستهم، وهناك آخرون يشعرون باللذّة لدى رؤية الآخرين يتعذّبون ويتألمون، وقد يسبِّبون في تعذيبهم بأيديهم وهناك، على العكس من هؤلاء، أشخاص رؤوفون يتألمون

---

(١) الكهف: ٦.

حقّاً لآلام الآخرين وشقائهم. هذه الحالة من حب النوع تكون خير دافع للرأفة ومدٍّ يد العون للآخرين. هؤلاء القادرون على الإحساس بآلام الآخرين يسعون للتخفيف من مصائب بني الإنسان ومن ثقل الحياة عن كواهلهم»[٢].

حبُّ الناس يقف على رأس مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، وقد عدَّه أئمة المسلمين من عناصر السعادة والرفاه لجميع الناس، وأوصوا الناس كافة بضرورة التحلّي بهذه السجيّة. حب الناس يوطِّد العلائق بين المجتمعات الإنسانية، ويوسعها ويجعل الحياة دافئة مطلوبة.

عن أبي الحسن موسى بن جعفر(ع)، أنّه قال: «*إِنَّ أَهْلَ الأَرْضِ لَمَرْحُومُونَ مَا تَحابُّوا، وأَدَّوا الأَمَانَةَ، وعَمِلُوا الحَقّ*»[٣].

«إن الدافع للحياة والحب، في قبال غريزة الاعتداء وإبادة الذّات، يعتبر مصدراً عظيمًا للقوة وحسن الحظ. إننا ميِّتون شئنا أم أبينا، ولكننا في الوقت نفسه إذا استطعنا أن نحب أمكننا أن نحيا في سعادة وهناء. دواء المحبة والصداقة هذا الذي يُعالج كل الهموم والغموم، قد أجازه قبل قرون عديدة أنبياء الله»[٤].

والأئمة الأطهار(ع)، مثل رسول الله(ص)، يتألمون بسبب حبهم للإنسان، ولعدم نسيانهم المحرومين والمظلومين، يغتمّون لغمّهم، ويتألّمون لألمهم. كان أئمة المسلمين يرون أنفسهم قرناء آلام المستضعفين والمعذَّبين، وكانوا يدافعون عنهم قدر إمكانهم، وما كانوا ينسون أحوالهم المؤلمة المؤثّرة أبداً.

---

(٢) الإنسان ذلك المجهول: ١٢٣.

(٣) مجموعة ورّام ١: ١٢.

(٤) أعجاز التحليل النفسي. ٤.

الإمام علي(ع)، في أيّام حكمه، كتب إلى أحد قوّاده يقول:

«أأقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقالَ هَذا أميرُ المُؤمِنينَ ولاَ أُشارِكُهُمْ فِي مَكارِهِ الدَّهْرِ، أو أكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ العَيْشِ»[٥].

وصل تقرير إلى علي(ع) بأن جنود معاوية قد هجموا على مدينة الأنبار، وقتلوا حاكم المدينة، حسان بن حسان البكري، وشتتوا حراس المدينة، واقتحم بعض جنود معاوية الدُّور على النساء المسلمات وغير المسلمات وانتزعوا منهم ما كنَّ يلبسن من حجول وأساور وعقود وأقراط، دون أن يستطعن الدفاع عن أنفسهنَّ بغير العويل والاسترحام. ثم ترك جنود معاوية المدينة محمَّلين بالغنائم الكثيرة، ومن دون أن يُصاب أحد منهم بجرح، أو تُراق منه قطرة دم. هذا التقرير الأليم عذَّب الإمام أشدَّ العذاب، وتحمَّل منه أقسى الألم، وراح يشرح الحالة للناس في خطابة نارية الكلمات مثيرة، كان منها:

«فَلَوْ أنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذا أَسَفاً مَا كانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كانَ بِهِ عِنْدي جَدِيراً»[٦].

كان عثمان بن حنيف الأنصاري حاكم البصرة على عهد حكومة الإمام علي(ع). دعاه أحد رجالات البلد إلى وليمة، فأجابه وحضر وليمته التي كان كل من حضرها من أثرياء البلد دون فقرائهم ومحروميهم. ومُدَّ السماط ومدَّت عليه ألوان الأطعمة والأغذية، وقد تحلَّق حوله الحاكم والضيوف برعاية صاحب الوليمة وحرارة ترحيبه. وصل خبر الوليمة إلى الإمام علي(ع)، فأرسل رسالة شديدة إلى عامله يوبّخه على ذلك ويقول له:

«وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إلى طَعامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ»[٧].

الإمام علي(ع)، وهو نفسه قدوة في حبِّ البشر، والمتألم للمحرومين والمظلومين

---

(٥) نهج البلاغة، الرسالة: ٤٥.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٧.

(٧) نهج البلاغة، الرسالة: ٤٥.

منهم؛ يتوقع من ممثليه في سائر أنحاء البلاد أن يحذوا حذوه قدر استطاعتهم، وأن لا ينسوا المحرومين والضعفاء في المجتمع، لذلك فهو ينتقد عثمان بن حنيف بسبب حضوره مجلس الأثرياء، ونسيانه الفقراء.

هكذا كان حال سائر الأئمة المعصومين(ع)، فقد كانوا، مثل علي(ع)، يهتمّون بهذه القيحة الإنسانية العظيمة اهتماماً كبيراً، فلم يهملوا الدفاع عن المستضعفين والمظلومين، ومواساة المتألمين. والشواهد على حبّهم للإنسان، طوال حياتهم المليئة بالمفاخر، كثيرة مشهودة، منها هذا المثال التالي:

يقول معتّب الذي كان قائمًا على إدارة شؤون منزل الإمام الصادق(ع): طرأ نقص في عرض المواد الغذائية في السوق، فارتفعت الأسعار كثيراً، فقال لي الإمام(ع): «يا معتب، كم لدينا من الطعام في الدار؟». فقلت: ما يكفي لبضعة أشهر. فقال: «بعه في السوق». فعجبت من قوله وقلت: ما هذا الذي تقوله يا سيدي؟ فكرَّر أمره مؤكّداً عليَّ أن أبيع كل ما كان عندنا من الطعام. فلما بعته، قال: «اشتر مع الناس يوماً بيوم». وقال: «يَا مُعَتِّبُ إجْعَلْ قُوتَ عِيالي نِصْفاً شَعيراً ونِصْفاً حُنْطَةً»[٨].

في الحالات التي يقلّ فيها عرض البضائع الضرورية في الأسواق، وترتفع الأسعار، يُصيب معظم الناس القلق من احتمال انقطاعها كليّاً، فيهرعون إلى ابتياع ما يستطيعون ويخزنونه، وبذلك يتسبَّبون في تفاقم الحالة، وتزداد السلع شحَّة ويبقى الفقراء في ضنك وحرمان.

قبل أن تغيب المواد الغذائية من أسواق المدينة وترتفع أسعارها كان معتّب قد اشترى منها كمية تكفي حاجة منزل الإمام الصادق(ع) لبضعة أشهر. ولكن عندما تدهورت حال السوق، واختلَّ قانون العرض والطلب. أمر الإمام معتّباً ببيع ما في المنزل من الطعام، وبتهيئة الحاجة اليومية بسعر السوق، كما يفعل سائر الناس

---

(٨) بحار الأنوار، المجلسي ١١: ١٢١.

الضعفـاء والفقراء، على أن يخلط الشعير والحنطة في صنع الخبز،وبهذا واسى الإمام الفقراء فجعل حياته وحياة عائلته منسجمة مع حياة الفقراء والمعوزين، وبيّن عن هذا الطريق حبّه للإنسان وتألمه لآلام الفقراء والمحرومين من الناس، كواجب إسلامي وإنساني.

حبّ الناس من الميول الإنسانية الرفيعة التي جُبلت في طبيعته ودخيلته. فإذا عُني بهذا الميل منذ البداية، وتّمت تربيته تربية صحيحة، تفتّح شيئاً فشيئاً، واصطبغ بصبغة التحقق الفعلي، وأصبح الإنسان في النهاية محبّاً حقيقياً للآخرين. فإذا كان الإنسان هذا شأنه فإنه يتألم لألم الآخرين ويواسيهم، ويُسرع لمساعدة المحتاجين، ويستمع إلى أنين المظلومين، ويدافع عن المستضعفين، ويكون متّسماً بأرفع القيم الإنسانية.

لقد أقام الإسلام أُسس بناء الإنسان، وإحياء حب البشر على مبدأ الأخوّة الدينية بين المسلمين، فسمّاهم بالأخوة في الايمان، وبذلك أوجد في ضمائرهم الرابط الأخوي والمحبة الروحية. كان رسول الله(ص) يُعنى كثيراً بأن لا يتهاون المسلمون في تنفيذ واجب الأخوَّة وأداء الحقوق الإسلامية. وكان إذا لاحظ شيئاً من الفتور وضعف الودِّ بين بعض المسلمين، نبَّههم على ذلك مع التوبيخ، وطلب إليهم التزام عواطف الأخوة الدينية. وبعد الرسول(ص) كان الأئمة الأطهار(ع) يسيرون على نهجه، ويحثُّون أصحابهم دائماً على التودُّد والتحابب فيما بينهم.

قال رسول الله(ص): «*...مَا لَكُمْ لَا تَحابُّونَ ولَا تَناصَحُونَ وأنتُم إخْوانٌ علَى دينِ اللهِ؟*»[٩].

وعن أبي عبـدالله الصادق(ع)، أنَّه قال: «*تَواصَلُوا وتَبارُّوا وتَراحَمُوا وكُونُوا*

---

(٩) مجموعة ورّام ١: ١٣٤.

إخوةً بررةً كما أمركم الله عزّ وجلّ»[١٠].

من المظاهر المهمة الأخرى لحبِّ الآخرين في التعاليم الإسلامية هو الحقوق التي أقرّها الشارع المقدَّس للمسلمين تحت أسماء مختلفة، وطلب إلى المجتمع أن يؤدّيها، كالحقّ العام لجميع المسلمين باسم الأخوَّة، والحقّ الخاص لبعض الفئات، كالأرحام، والجيران، ورفاق السفر، وأمثالهم، وكذلك الحقوق التي أقرَّها لغير المسلمين فشملهم بقاعدة حبِّ الآخرين.

وسوف نوجز فيما يلي بعضاً من تلك الحقوق.

في حديث للإمام الصادق(ع)، أشار إلى عدد من الحقوق التي للمؤمنين بعض على بعض، وأوصى المسلمين برعايتها:

قالَ: *«أيْسَرُ حقٍّ منْها، أنْ يُحبَّ لَهُ ما يُحبُّ لِنفْسِهِ، ويكْرَهَ لَهُ ما يَكْرَهُ لِنفْسِهِ.*

والحقُّ الثّاني، أنْ يَمْشِيَ في حاجَتِهِ ويبْتَغِي رضاهُ ولا يُخالِفُ قَوْلَهُ.

والحقُّ الثّالثُ، أن تَصِلَهُ بنَفْسِكَ ومالِكَ ويَدِكَ ورِجْلِكَ ولِسانِكَ.

والحقُّ الرّابِعُ، أنْ تكُونَ عَيْنَهُ ودَليلَهُ ومِرْآتَهُ وقَميصَهُ.

والحقُّ الخامِسُ، أنْ لا تَشْبَعَ ويَجُوعَ، ولا تَلْبَسَ ويَعْرى، ولا تَرْوى ويَظْمَأ»[١١].

إن أداء حقوق الجيران، ورعاية حب الآخرين وكرائم الأخلاق معهم وردت في تعاليم الإسلام كواجبات لا يُهمل تنفيذها المسلمون الصادقون، بل يرون أنفسهم مسؤولين عنها. وقد ورد بعض هذه الحقوق في الحديث الشريف التالي:

قالَ رسُولُ الله(ص): *«هلْ تَدْرُونَ ما حَقُّ الجار؟ ما تَدْرُونَ منْ حقِّ الجار إلّا قليلًا. ألا لا يُؤمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ منْ لا يأمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ، وإذا اسْتَقْرضَهُ أنْ يُقْرِضَهُ، وإذا أصابَهُ خَيْرٌ هَنّأهُ، وإذا أصابَهُ شرٌّ عَزّاهُ، ولا يَسْتَطِيلُ عليْهِ في البناءِ يَحْجُبُ*

---

(١٠) الكافي، الكليني ٢: ١٧٥.

(١١) مشكاة الأنوار: ١٩١.

عنْهُ الرّيحَ إلّا بإذْنِهِ، وإذَا اشْتَهى فاكِهَةً فليُهْدِ لَهُ، فإن لَم يُهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلها سرّاً، ولَا يُعطي صِبْيانَهُ مِنها شَيْئاً يُغايِظُونَ صِبْيانَهُ.

لا بدَّ من القول هنا أن رعاية حقوق الجار في التعاليم الإسلامية ليست مقصورة على الجيران المسلمين، بل هي تشمل الجيران غير المسلمين فهؤلاء أيضاً يتمتّعون بالحقوق نفسها. وقد ورد هذا في تكملة الحديث الشريف السابق:

ثم قال رسول الله(ص): *الجيرانُ ثَلاثَةٌ: فَمِنْهُم مَنْ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ: حَقُّ الإسْلامِ، وحَقُّ الجِوارِ، وحَقُّ القَرابَةِ. ومِنْهُم مَنْ لَهُ حَقّانِ: حقُّ الإسْلامِ وحقُّ الجِوارِ. ومِنْهُم مَنْ لَهُ حَقٌّ واحِدٌ: الكافِرُ لَهُ حَقُّ الجِوارِ»*[١٢].

ولكي يتعلّم المسلمون معيار حب الآخرين وحدوده، جعل أئمة المسلمين غريزة حبّ الذّات ميزاناً لذلك، وأوصوا في عدد من الأحاديث المسلمين بأن يقيسوا أقوالهم وأفعالهم مع الآخرين بميزان حبّ الذات، وأن يقدّروا أسلوب تعاملهم مع الناس بموجبه.

قال الإمام علي(ع): *«يَا شَيْخُ ارْضَ للنَّاسِ مَا تَرْضى لنَفْسِكَ، وآتِ إلى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أنْ يُؤْتى إلَيْكَ»*[١٣].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، أنّه قال: *«أذْكُرْ أخَاكَ إذَا تَوارى عَنْكَ بِمَا تُحِبُّ أنْ يَذْكُرَكَ بِهِ إذَا تَوارَيْتَ عَنْهُ، ودَعْهُ مِنْ كُلِّ مَا تُحِبُّ أنْ يَدَعَكَ مِنْهُ»*[١٤].

لو عمل الناس بموجب هذا المقياس الذي يفهمونه جميعاً، وجعلوا ما يتوقعونه من الناس أن يعاملوهم به معياراً لتعاملهم هم مع الناس؛ لأصبحوا من محبّي الآخرين، ولتخلّقوا بالأخلاق الإنسانية الرفيعة، ولتطهّرت ضمائرهم من الخبائث والحقد والحسد والعداوة وغير ذلك من السيِّئات الأخلاقية، وبذلك تقع محبتهم في

---

(١٢) مسكاة الأنوار: ٢١٢.

(١٣) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٠٩.

(١٤) مشكاة الأنوار: ١٩٠.

القلوب ويكونون موضع تكريم واحترام في الدنيا، وينعمون في الآخره برحمة الله تعالى الواسعة.

يقـول أنس: كنت يوماً في حضرة رسول الله(ص)، فأشار إلى جهة وقال: «سيأتي من هنا رجل من أهل الجنة». وما لبثنا حتى جاء رجل عجوز وهو يجفّف ماء وضوئه بيده اليمنى، فيما تعلّق نعلاه في أصبع من يده اليسرى. تقدَّم وسلَّم. بعد ذلك كرَّر رسول الله(ص) تلك العبارة عن الرجل في اليومين التاليين قبل وصوله بلحظات.

وكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) حاضر المجلس في الأيام الثلاثة، وسمع مقالة النبي(ص)، فعزم على مصاحبة الرجل ليتعرَّف على عباداته واعماله الصالحات، وليعلم ما الذي جعله من أهل الجنة ورفع مكانته إلى هذه المنزلة.فنهض وأدركه عند مغـادرتـه المجلس وقال له إنه قد خاصم أباه وأقسم على أن لا يراه ثلاثة أيام بلياليها، وطلب أن يؤويه تلك المدة عنده، فوافق الرجل، وبقي عبدالله عند الرجل ثلاثة أيام. يقول عبدالله: خلال تلك الليالي لم أرَ الرجل ينهض للعبادة أو للقيام بتعبُّدات خاصة، سوى أنه كان كلَّما تقلَّب في فراشه ذكر الله، ثم ينام حتى الفجر، فينهض لصلاة الصبح. ولكني خلال تلك المدة كلها لم أسمعه يذكر أحداً إلّا بالثناء عليه وذكر محاسنه.

انقضت الأيام الثلاثة، وبدت أعمال الرجل في نظري تافهة حتى كُدت أن احتقره، ولكني ملكت نفسي. وعند توديعه قلت له: لم يكن قد حصل بيني وبين أبي أيُّ خصام، ولكني سمعت رسول الله(ص) يقول عنك كذا وكذا ثلاثة أيام، فأردت أن أعرفك وأعرف ما تقوم به من عبادات وأعمال صالحات، غير أني لم أرَ منك عبادة كثيرة، فلا أعلم ما الذي أوجب رفع منزلتك ليقول عنك النبي(ص) ما قال. فقال الشيخ: لا أقوم بغير ما رأيت من الأعمال. فتركه عبد الله وانصرف، إلّا أن الشيخ ناداه وقال له: أعمالي الظاهرة هي تلك التي رأيتها، ولكني في دخيلتي لا أحمل لأحد حقداً ولا سوءً ولا أحسد أحداً على ما أنعم الله عليه. فقال عبدالله: إنها نيّتك الحسنة

وحبُّ الخير للآخرين ما شملك برحمة الله وألطافه، وإنه ليصعب علينا نحن أن نكون على هذه الطهارة وهذا القدر من حبّ الآخرين[١٥].

إن العقبة الرئيسة التي تقف في طريق حبِّ الآخرين، وتمنع الإنسان من أداء واجبه الإنساني الرفيع، هي عصيان الغرائز المخربة وطغيانها، تلك الغرائز التي جُبلت في طينة الإنسان وتتحكّم فيه، كالغضب، والانتقام، والعدوان، وحبِّ الاستعلاء والتفوق، وغيرها من الغرائز. فهذه الغرائز إذا ثارت تغيَّر حال صاحبها الروحي، وانقلب مزاجه، ونسي مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، وتحوَّل إلى مثل طبيعة الحيوان المفترس.

ولكن الإسلام علَّم المسلمين كيفية إزالة هذه العقبة، فطلب إليهم أن يلجأوا في أمثال هذه الحالات إلى قوة الإيمان يستمدون منها العون لامتلاك زمام تلك الغرائز الجموح، وتحويل اتجاهاتها وتحرّكاتها بالإصرار وقوة الإرادة إلى حبّ الإنسان ومكارم الأخلاق.

أما تحويل اتجاهات الغرائز وتغيير أهدافها فهما من الأمور التي تناولها باختصار كبير فرويد وأتباعه على أنها من الغرائز المكبوبة المنحّاة، وأطلقوا على عملية تغيير اتجاهات الغرائز وأهدافها اسم «التصعيد». ولكي يتّضح الموضوع نشير إلى بعض أقوال علماء النفس في هذا، ثم نذكر تعاليم الإسلام بشأنه استناداً إلى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة.

«بالبحث في قضية الغرائز والتعمّق فيها يمكن القول بأن أهداف هذه الغرائز ومواضيعها الأصلية لا تنسجم غالباً مع الحياة الاجتماعية. ولتغير هذه الحالة نظرياً لدينا ثلاث خطط:

١ـ القضاء على الغرائز.

---

(١٥) مجموعة ورّام ١: ١٢٦.

٢ـ منع ظهورها.

٣ـ تغييرها.

أما القضاء على الغرائز، فهو فضلاً عن كونه مستحيلاً عملياً، فإنّه حتّى نظرياً أيضاً لا يمكن تحقيقه، لأن الغرائز هي مصدر الطاقات في الإنسان، فالقضاء عليها يعني القضاء على هذه الطاقات التي تحرك الإنسان.

وأما منع ظهور الغرائز فممكن، وهو العمل الذي يقتضي تنحيتها، ولكن النتيجة التي تحصل لنا ـ وبخاصة لأننا مضطرون إلى استخدام قوىً نفسية لذلك ـ تكون ذات أضرار كبيرة.

وعليه فلا يبقى سوى طريق واحد للحلِّ، وهو أن نحوِّل الاستثارات الغريزية عن طريقها إلى السير على الطريق الذي يرتضيه المجتمع»[١٦].

وهكذا يرى علماء النفس أنَّ تبديل موضوع الغرائز، في الحالات التي لا يمكن إعمالها ضمن ظروفها الطبيعية، أو تتنافى والتقاليد الاجتماعية، يمكن أن يحصل بطريقين:

الأول: هو صرف الغريزة عن هدفها الأصلي، ونقلها إلى موضع مماثل أو أدنى منه.

والثاني: هو أن نختار للغريزة هدفاً أسمى وأفضل من هدفها الأصلي، فنوجّه طاقتها نحو هذا الهدف الجديد.

«عندما يمثّل الموضوع البديل هدفاً معنوياً أرفع، يُسمّى هذا التبديل بالتصعيد. وتوجيه طاقات الإنسان إلى الأعمال المعنوية، وحب البشر، والثقافة، والفن، من الأمثلة على التصعيد. وفي هذه الحالات يتبدّل بروز الغريزة الجنسية وغريزة الاعتداء والخصام المباشر إلى أنماط من السلوك تبدو ظاهرياً غير جنسية ولا اعتدائية»[١٧].

---

(١٦) أفكار فرويد: ٥٦.

(١٧) أفكار فرويد: ١٢٧.

«كثير من الفنانين والشعراء والأدباء هم أشخاص هربوا من الانحرافات والأمراض النفسية والأعمال اللّا اجتماعية، و«صعّدوا» ميولهم الغريزية في نتاجهم.

ويتحقق التصعيد أيضاً في الفعاليات المهنية، فالرجل (السادي) الذي يميل إلى إيذاء الناس، يمكنه أن يُشبع ميله هذا بشكل آخر بحسب مستوى ثقافته وظروف معيشته. أيّ إنّه إذا لم يكن رفيع المستوى الثقافي فيمكن أن يختار لنفسه أن يكون جزّاراً مثلاً، أو إذا كان عالي الثقافة، فيمكن أن يختار مهنة الجراحة، وهكذا يكون قد حقق غريزة الاعتداء فيه بطريقة رمزية.

وعليه، تكون النتيجة أنه إذا أرادت المدنية الحاضرة أن تتغلّب على مثالبها وأزماتها الأخلاقية، فعليها أن تدخل ميدان التصعيد المهني. ولتوضيح ذلك نفترض وجود امرأة لم يبلغ فيها التكامل الجنسي النفسي مبلغ الكمال، وحرمت، لأسباب مختلفة، من الحبّ.

فإذا عمدت هذه المرأة إلى صرف ميلها للمحبة وتوجيهه نحو الحيوانات الأليفة، مثل القطط والكلاب، تكون في هذه الحالة قد أجرت تنقّلاً في موضع الغريزة الجنسية. ولكن إذا قامت هذه المرأة نفسها بتوجيه ميلها هذا (الليبيدو) نحو الأطفال، كأن تتبنّى طفلاً، أو تساهم في نشاط اجتماعي يخص الأطفال، فإنّها ـ على عكس حالتها الأولى التي صرفت فيها طاقة غريزتها في أعمال لا فائدة فيها ـ تكون قد قامت بعمل نافع، وهذا العمل هو الذي نُسميه التصعيد»[١٨].

هذه المواضيع التي بحثها فرويد وأتباعه في كتبهم بشأن تصعيد الطاقات النفسية، بصفته أحد طرق مكافحة المفاسد الاجتماعية والسيِّئات الأخلاقية، يمكن تلخيصها في نقاط معدودة:

---

(١٨) أفكار فرويد: ٥٨.

١ـ لكي يبقى التوازن النفسي سليمًا في الناس، وتسير حياتهم بهدوء خاطر وراحة بال، يجب مراقبة جميع حركات الغرائز، ومن ثم منح الحرية لتلك الميول التي تنسجم مع التقاليد الاجتماعية والمقاييس العامة.

«يقول (إدغار بيش)، أحد أساتذة علم النفس المؤيدين لفرويد: لإبقاء المرء على التوازن في حياته النفسية، ومن ثم ضمان راحته، عليه أن يُطلق حرية العمل لجميع ميوله التي تنسجم والحياة الاجتماعية وتلائمها»[١٩].

٢ـ أما القسم الآخر من الميول الغريزية التي تتنافى والمبادىء الأخلاقية، وتخالف الموازين الاجتماعية، ويتعذَّر تحقيقها، فلا بدَّ من تنحيتها عن منطقة الوعي الظاهر، لتُحبَسَ في الوعي الباطني. غير أن كبت إحدى الغرائز وإخفاءَها في الوعي الباطن، يخلق مشكلات غير مرغوب فيها، وقد يُوجد أخطاراً مختلفة.

«يقول (جون ديوي): علينا أن لا ننسى أن تنحية نشاط الغريزة ومحوه لا يعني القضاء على تلك الغريزة، لأن الطاقات النفسية لا يمكن القضاء عليها مطلقاً، فإذا اضطرت غريزة ما إلى الإختباء في باطن الإنسان، عمدت إلى السير في طريق غير سليم ومحفوف بالخطر، وقد تسبِّب مختلف الأمراض النفسية والاضطرابات الفكرية»[٢٠].

٣ـ لكي نحمي أنفسنا من الأخطار غير المرغوب فيها، والخَطِرَةِ أحياناً، والناجمة عن فعاليات الغرائز المكبوتة، علينا أن نغيِّر محتوى الغريزة، ونلقّنها بموضوع ينسجم مع التقاليد الاجتماعية، فيستعاض به عن الميل المكبوت، ثم نستخدم طاقة تلك الغريزة لتحقيق الموضوع البديل، لنستفيد من نتائجه المثمرة.

«إذا لم يكن الموضوع الذي تريده الغريزة في متناول اليد، أو كان مستحيلاً، فيمكن للطاقة النفسية أن تغيِّر الاتجاه من ذلك الموضوع إلى

---

(١٩) أفكار فرويد: ٥٩.

(٢٠) الأخلاق والشخصية: ١٥٠.

موضوع آخر ممكن الوقوع، أو ممكن الوصول إليه. يتبيّن من هذا أن للطاقة النفسية القابلية على تغيير مكانها. والظاهرة التي تقوم الطاقة خلالها بالانتقال من موضوع إلى موضوع آخر هي الإستعاضة أو التصعيد»[٢١].

٤ـ يقول مؤيدو فرويد: لم يكن الفلاسفة وعلماء الأخلاق القدامى يعرفون شيئاً عن التصعيد، ولم يخطر لهم أن من الممكن تغيير مسيرة الغرائز الشكسة المخالفة للمجتمع، وتحويلها إلى أهداف سامية. لذلك كان الأشخاص الذين يكبتون غرائزهم عرضة دائمًا للصراع الباطني، ومضطرين لصرف الكثير من طاقاتهم من أجل إخفاء تحركات غرائزهم المكبوتة.

«في الفلسفة الرواقية وما يشببها لا يستفاد من الغرائز المكبوتة، وكان المرء مضطراً إلى مواصلة الصراع لكبتها وإبقائها في الخفاء، صارفاً في ذلك الكثير من طاقاته.

غير أن التصعيد أُسلوب يحول دون صرف هذا القدر من الطاقة، إذ بالتصعيد لا تعود ثمّة حاجة لإخفاء الميول الغريزية، بل يسمح لها بالظهور، ولكن بأشكال أُخرى.

ويقول فرويد عن مزايا التصعيد: يمكن بالحفاظ على الميول الغريزية بعد توجيهها نحو أهداف ومواضيع أُخرى، الحيلولة دون تحمّل العذاب والمنع والحرمان. بهذا الأسلوب يمكن إزالة التعارض بين العالم الخارجي وتحقيق ميول الإنسان. هذا الأسلوب في تغيير أشكال الأهداف الأصلية للغرائز يُسمّى التصعيد»[٢٢].

٥ـ على الرغم من أن فرويد وأتباعه قد تبسّطوا في بحث موضوع التصعيد، وأسهبوا في شرح نظرياتهم، واعتبروه يشمل جميع الغرائز المخالفة للمجتمع، فإن أكثر

---

(٢١) علم النفسي الفرويدي: ١٢١.

(٢٢) أفكار فرويد: ١١١.

تركيزهم كان على الغـريزة الجنسية، وأهملوا الغرائز الأخرى إلى حد كبير، لأنهم يعتقدون أن هذه الغريزة من أكثر الغرائز عرضة للمنع الأخلاقي والاجتماعي، ولذلك قالوا إن الغريزة الجنسية أحوج من غيرها من الغرائز إلى تبديل الموضوع وتغيير الاتجاه، والتصعيد.

«ترى ما هي أنواع الميول التي تنحّى إلى الوعي الباطن؟ يجيب فرويد قائلاً: إنها تكاد تكون جميعها ميولاً جنسية. أمّا لماذا تكون الميول الجنسية المكبوتة في الوعي الباطن أكثر من ميول الغرائز الأخرى فيتلخص فيما يلي:

يجب قبل كل شيء أن لا ننسى أن أكثر ما يحتويه الوعي الباطن هو الميول المكبوتة، وأما الميول غير المكبوتة فمقرُّها الوعي الظاهر، وليس هناك دليل على أنها تظهر في الأحلام.

إن الميول الموجودة في الوعي الظاهر يتم إشباعها يومياً بشكل ما، إلّا في حالات استثنائية مثل الجوع وعدم وجود ما يُؤكل. كما أن الميول التي تنزع إلى الأنانية المفرطة، وحب الجاه والتملّك، ليست مدانة في المجتمع، ولذلك فهي ليست مضـطرة إلى الاختفـاء في الـوعي البـاطن بسبب ضغط المحيط الاجتماعي. ولكن على العكس من ذلك هي الأمور الجنسية التي كانت منذ بداية تشكيل المجتمـع، وبموجب السنن الدينية والأخلاقية، محجور عليها وممنوع إظهارها بحرية، وحُدِّدت بالزواج الشرعي أو القانوني. ولهذا فقد كان لا بدَّ من تنحية جميع الميول الجنسية وكبتها في الوعي الباطن. ولهذا نلاحظ أن القضية الجنسية تحتل عند فرويد المقام الأول في الحياة النفسية والفردية والاجتماعية»[٢٣].

نستنتج مما ذُكر أوّلاً: أن التصعيد، في منظور علم النفس، يختص بالغرائز التي تحول الموانع الاجتماعية دون إشباعها، فتكبت ميولها وتنحّيها إلى الوعي الباطن. أما

---

(٢٣) أفكار فرويد: ٣٩.

الغرائز التي لا يمنعها مانع من الظهور فيجب تركها لتعمل بحرية، ولتسير في طريقها الطبيعي، لكي يتم إشباعها حسب ميولها من دون حاجة إلى التصعيد.

وثانياً: إن هدف علماء النفس من تصعيد الغرائز وتغيير اتجاه الطاقة النفسية ليس بناء الإنسان وتربية الأخلاق الكريمة فيه، بل إنّهم يريدون تخفيف العذاب الفردي الناجم عن كبت الغريزة غير المرغوب فيها، ويحولون دون قيامها بنشاطات تخريبية خفية، ويغيّرون اتجاهها نحو المثمر والنافع من الأمور.

أما البرنامج النفسي التربوي في الإسلام: فهو أولاً لا يُعنى بتبديل طاقات الغرائز المكبوتة وتغيير اتجاهاتها وأمثال ذلك، بل الإسلام يستفيد من كل غريزة يمكن تصعيدها بما يؤثّر في سموّ الروح وتكامل النفس استفادة معنوية وروحية. وقد أوصى أئمة المسلمين أصحابهم باستعمال تلك الغريزة، عند اقتضاء الحاجة، لمصلحة الإنسانية، وبتوجيه طاقتها في طريق كرائم الأخلاق والقيم الإنسانية.

وهو ثانياً: يستهدف بناء الإنسان وتنمية مكارم الأخلاق فيه ولما كان تغيير موضوع بعض الغرائز، واستخدام طاقاتها يساعدان كثيراً على صياغة الروح والأخلاق، ويبعثان على تفتح الإنسانية، فإن الإسلام يُعنى كثيراً بهما في الأساليب التربوية ويتوسع في استخدامها، ويحث المسلمين على تبديل مواضيع الغرائز وتغيير اتجاهات طاقاتها لمصلحة الأخلاق الفاضلة والسموّ المعنوي. وفيما يلي نماذج من ذلك:

١ـ الحرص: من جملة الغرائز التي خلقها الله تعالى بحكمته في دخيلة الإنسان وضميره. يرى كثير من الناس في العالم أن اكتناز الأموال هو خير وسيلة لإشباع هذه الغريزة. وفي الدول التي لا يتعارض فيها اكتناز المال مع القيم الاجتماعية السائدة فيها فإن هذه الغريزة لا تحتاج إلى التصعيد حسب رأي فرويد وأتباعه. في مثل هذا المجتمع ينبغي منح الحرية للجشع لكي يستخدم طاقة هذه الغريزة كيفما يشاء، ساعياً لجمع المال واكتنازه في محاولته لإشباع غريزة الحرص.

وفي الإسلام، على الرغم من أن جمع الثروة لا يُخالف الموازين الشرعية

والتعاليم الدينية، وأن للمسلمين أن يجمعوا الثروة بالطرق الصحيحة، ومع رعاية المبادىء الأخلاقية والإنسانية، فإننا نجد مدرسة القرآن، صانعة الإنسان، تعدّ الحرص في جمع المال منافياً للسمو المعنوي والتكامل الإنساني، ولا تسمح لأتباعها بتضحية الإنسانية على مذبح الذهب والفضة بجعل جمع المال هدف الحياة الرفيع، وبإشباع غريزة الحرص باكتناز المال.

إن من يريد البرء من مرض الحرص والتحرّر من ربقة جمع المال، عليه بتصعيد غريزة الحرص، في ذاته، وبتغيير الهدف من الرغبة في الاستزادة، وباستبدال موضوع المال بموضوع آخر يليق بمقامه كإنسان، فيستثمر طاقة تلك الغريزة لتحقيق هذا الموضوع البديل.

تحصيل العلم من القيم الإنسانية السامية والذي يمكن أن يقوم مقام تحصيل المال موضوعاً بديلاً لغريزة الحرص. فإذا وجّه الجَشِعُ حبّه للاستزادة نحو تحصيل العلم، تمكّن من الاستزادة منه، ومن تصعيد غريزة الحرص، ومن نيل التعالي المعنوي والتكامل النفسي، وتوجيه حبه للاستزادة وِجهَةً تليق بمقام الإنسان. العلم والمال متشابهان من حيث اتساع ميدان التقدّم فيهما، وكلاهما يشبعان غريزة الحرص، مع فارق أن العلم كمال حقيقي والإستزادة منه تزيد من الرقي الحقيقي للإنسان العالِم، بينما المال والإستزادة منه ليس سوى كمال مزيف لصاحبه.

عن الإمام علي(ع) أنّه قال: «*لَيْسَ الخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوُلْدُكَ، ولكِنَّ الخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ وَيَعْظُمَ حِلْمُكَ*»[٢٤].

إن السعي لخدمة الناس، وبذل الجهد في سبيل سعادتهم، والعمل على رفع شقاء المستضعفين والمعوزين، والرغبة المستمرة في خير الآخرين وصلاحهم، يمكن، مثل اكتساب العلم، أن تكون من الأهداف السامية والمواضيع البديلة لغريزة الحرص، والقادرة على تصعيد حب الاستزادة، بحيث تكون مدعاة للسموّ المعنوي للشخص

---

(٢٤) مجموعة ورّام ١: ١٢٥.

الحريص.لقد كان رسول الله(ص) يتّصف بهذا اللون من الحرص، كما ورد في القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ جَاءَكُم رسُولٌ منْ أنْفُسِكُم عَزيزٌ علَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَريصٌ عليْكُمْ بِالْمُؤْمِنينَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢٥].

٢ـ غريزة الغضب وحب الإنتقام من الغرائز التي لها تأثيرات عميقة ونافذة في الإنسان، وتحمّله على القيام بأعمال شديدة وعنيفة. عندما يقع الإنسان هدفاً للعدوان وينالـه من الظالم أذى وألم، يكون من الطبيعي أن تثور فيه غريزة الغضب، ويفور دمه ويدفعه للرد على المعتدي، لينتقم من الظالم الذي ظلمه، ويُشفي غليله منه، ويطفىء نار غريزتـه المشبوبة. إلّا أن المظلومين المعتدى عليهم يكونون أحياناً في ظروف لا تمكّنهم من إشباع غريزة الغضب عندهم وحبهم للانتقام، فلا يستطيعون أن يُنزلوا بالظالم ما يستحق من عقاب.

فمثلاً قد يكون المعتدون هم من الحكام الظالمين المستبدِّين المتسلِّطين على النـاس، ويحكمـونهم بالحديد والنار، ولا يردعهم رادع عن إرتكاب أبشع الجرائم. عندئذ لا يكـــون من المتيسر للذين ظُلِموا على أيدي هؤلاء أنْ يُنزلوا بهم العقاب، ويردُّوا على جرائمهم وآثامهم، ويُطفئوا بذلك غضبهم الذي يُحسُّون به في داخلهم.

وقد يكون المعتدون من ذوي الحيلة والمكر بحيث إنهم ينفذون اعتداءهم بدهاء وبراعة من دون أن يتركوا وراءهم أدنى أثر لجرائمهم، فلا يجد المعتدى عليه طريقاً يثبت به ظلم هذا الظالم في ساحة القضاء أو أمام أنظار الرأي العام، لينفّذ فيه حكم القانون بتأييد من الناس.

في هذه الحالة تضطر غريزة الغضب إلى التنحّي والانتقال إلى الوعي الباطن. فلكيلا تصبـح هذه الغـريزة المكبـوتة سبباً في خلق الاختلالات النفسية وتُصيب

---

(٢٥) التوبة: ١٢٨.

الغاضب بالضرر، يكون لا بدَّ من تغيير أتجاه هذه الغريزة، وتصعيد قوى الغضب والانتقام، وتوجيهها وجهة مفيدة ومثمرة. إن محاولة كهذه تؤيدها التعاليم الأخلاقية في الإسلام، وترتضيها، كذلك، البرامج النفسية، مع فارق أن دافع التصعيد في علم النفس هو الحيلولة دون انفلات زمام الغرائز المكبوتة وأضرارها المحتملة، بينما هدف المسلمين الصادقين في تغيير اتجاهات الغرائز هو نيل مرضاة الله، وبلوغ المدارج العليا من الدرجات المعنوية والسمو النفسي.

وقد يكون المظلوم المعتدى عليه في ظروف وأحوال تمكّنه من إنزال صواعق غضبه على الذي ظلمه واعتدى عليه، فينتقم منه بإنزال العقاب القانوني به بموجب السنن الاجتماعية والقضائية.

في أمثال هذه الحالات، لا يشير فرويد وأتباعه إلى التصعيد ولا إلى تغيير موضوع الغريزة، فهم يرون أن المعتدى عليه في أمثال هذه الحالات يجب أن يُترك العنان لغضبه يفعل ما يشاء، ويُنزل العقاب الذي يريد بالظالم، لكي تنطفىء نار غضبه الداخلية، ويشبع غريزة الغضب والانتقام، وبذلك تتوفّر له أسباب راحة البال وهدوء الخاطر.

تنفيذ هذا الأمر يتّفق مع الدوافع الغريزية ويؤدي إلى إشباع الرغبات النفسية، وهذا هو أيضاً سلوك الحيوانات كلها عندما تغضب، وتتهيأ للهجوم كرد فعل انتقامي لغضبها على من استفزها من إنسان أو حيوان، فتؤذيه بشكل ما، وتبذل ما في قدرتها من قوة لرَّد المعتدي والانتقام منه.

مدرسة الإسلام، المربية للانسان، تتحدّث، في حالات الظلم الفردي وحق المعاقبة، عن العفو والتغاضي، وتعطي المظلوم الذي استطاع أن يتسلّط على الظالم ويريد أن ينتقم منه، درساً في الأخلاق والفضيلة، وتقول له: إن العظمة وكرم النفس يكونان في تنازلك عن حقّك الخاص، وفي تغاضيك عما يدفعك إليه الغضب وحب الانتقام، وفي عفوك عن المعتدي فلا تعاقبه، فتجعله بذلك مديناً لإنسانيتك، وتُصلح

بذلك أخلاقه، إلّا إذا علمت أن المجرم شخص منحطّ ووضيع، وأن العفو عنه يسبّب الضرر، ويؤثّر فيه تأثيراً سيئاً، ويزيد من جرأته على الإجرام. ففي هذه الحالة عليك أن تُنـزل به العقـاب، مستنصراً بالقضاء والمحاكم والناس كيما ينال المجرم عقابه القانوني الذي يستحقه.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «*وحَقُّ مَنْ ساءَكَ أنْ تَعْفُوَ عنْهُ، وَإنْ عَلِمْتَ أنَّ العَفْوَ عنْهُ يَضُرُّ انْتَصَرْتَ*»(٢٦).

أما الغرائز المكبوتة والميول المنحّاة، فالتصعيد فيها ليس دليلاً على الفضيلة والسموّ الأخلاقي، وإنّما هو أمر اضطراري، ولا يعدو أن يكون نوعاً من العلاج، ذلك لأن الغرائز المكبوتة إذا لم تغيّر اتجاهها، وظلت تحت ضغط الكبت مقهورة في الوعي الباطن، فإنّها سوف تسبب أضراراً مختلفة، وقد تخلق أحياناً الأمراض النفسية. ولكن الذي تكون ظروفه مواتية، ومنتصراً على خصمه، وقادراً على أن ينتقم منه ويشفي غليله، إذا تمكّن من تنحية دوافعه الحيوانية بإرادته متقصّداً، وكبح في نفسه الرغبة في الإنتقام، ونظر إلى عدوّه بعين الإنسانية، فغفر له وعفا عنه، يكون عندئذٍ قد تخلّق بكرائم الأخلاق وبالسموّ الروحي، وبلغ أرفع درجات التصعيد الأخلاقي. والإسلام يُحبِّذ مثل هذه السجية الإنسانية، كما أن أئمة المسلمين قد حثّوا أصحابهم كثيراً في أحاديثهم على فضيلة التحلّي بها، وقالوا إن هذه الخصلة الحميدة تكون في الدنيا مدعاة لعز الإنسان ومحبو بيته، وتجعله في الآخرة موضع عناية الباري تعالى وألطافه الخاصة.

عن أبي جعفر الباقر(ع)، أنّه قال: «*مَا ظُلِمَ أحَدٌ بِظُلامَةٍ فَقَدَرَ أنْ يُكافِىءَ بِها وَلَمْ يَفْعَلْ إلّا أبْدَلَهُ اللهُ مَكانَها عِزّاً*»(٢٧).

وعن الإمام علي(ع)، أنه قال: «*إذَا قَدَرْتَ عَلى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ العَفْوَ عَنْهُ*

---

(٢٦) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ٢٣٤.

(٢٧) مشكاة الأنوار: ٢١٧.

شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ» [٢٨].

وعن النبي(ص)، أنّه قال: *«مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ عنِ النَّاسِ كَفَّ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى عَنْهُ عَذابَ يَوْمِ القِيامَةِ»* [٢٩].

وعن أبي جعفر الباقر(ع)، أنّه قال: *«مَنْ كَظَمَ غَيْضاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِمْضائِهِ حَشَا اللهُ قَلْبَهُ أَمْناً وَإِيَاناً يَوْمَ القِيامَةِ»* [٣٠].

وبناءً على ذلك، فإن العفو عن العدو مع المقدرة عليه، وتغيير موضوع الغضب، وتنحية الرغبة في الانتقام، والإغضاء عن إنزال العقاب بالخصم، وتصعيد غريزة الغضب، يعد من منهاج مدرسة الأنبياء الإلٰهيّة المربية للانسان.

عن الإمام الصادق(ع): *«العَفْوُ عِنْدَ المَقْدِرَةِ مِنْ سُنَنِ المُرْسَلِينَ والمُتَّقِينَ»* [٣١].

٣ـ حب السلطان من الغرائز التي أوجدها الله تعالى بحكمته في دخيلة الإنسان وأودعها في باطنه. والإنسان الذي ينال السلطان يكون من الطبيعي أن يفرح بذلك، وأن يشعر في نفسه بشعور التفوّق والفخر. أما كيفية إعمال السلطان وتحقيقه فأمر تابع لطراز تفكير صاحب السلطان وثقافته. فمن كان محباً للذّات وللشهوات، وينظر إلى الحياة بعين الرغبات الحيوانية، يجد سعادته في وضع سلطانه في خدمة غرائزه، وفي العمل على التمتّع باللذّات الجسدية كمّاً وكيفاً، وفي البحث عن أفضل سبل العيش والرفاه، وفي أن لا يبخل على نفسه بأي شيء من حيث الطعام، والكساء، والمسكن، والمركب، والأعمال الجنسية وغير ذلك من الشهوات الحيوانية بحسب هواه ورغبته في الراحة والرفاه.

---

(٢٨) نهج البلاغة، الكلمة: ١٠.

(٢٩) الكافي، الكليني ٢: ٣٠٥.

(٣٠) الكافي، الكليني ٢: ١١٠.

(٣١) سفينة البحار، القمّي: ٢٠٧.

ومن كان أسير التخيلات، وناظراً إلى الحياة من منظور اللذّات الخيالية، إذا وصل إلى السلطة رأى نفسه أرفع من غيره، وراح يستخدم سلطانه للتفوّق والاستعلاء على الآخـرين. إن أمثال هؤلاء من ذوي الأفكار الخاطئة، يسقطون أخلاقياً عند فوزهم بالسلطة، ويستولي عليهم الغرور والزهو، ينظرون بعين الحقارة إلى الناس، يفتخرون عليهم، ويسخرون منهم، ويضيِّقون على أعدائهم، وقد يرتكبون بحقهم أعمالاً غير إنسانية.

فلو ثاب هذان الفـريقـان إلى الصـواب، وصعَّدا سلطانهما، ووجَّها الدوافع الغريزية نحو كرائم الأخلاق، لاستطاعا أن يرقيا مدارج الرفعة والسموّ، لأصبحا مثالاً للإنسان الحقيقي، ولتمتَّعاً بالمزايا الإنسانية. وإذا واصلا التوجّه نحو اللذّات، واستعمـلا سلطانهما في طريق إشباع الشهوات الجسمية والخيالية، تخلفا عن ركب التسامي المعنوي، وأضاعا إنسانيتهما، وانحدرا أخيراً إلى حضيض الحيوانية والسقوط.

والسلطان، عند رجال الله والمربِّين العظام، لا تكون له قيمة حقيقية إلّا إذا كان في خدمة الإنسانية، وإعلاء كلمة الحقّ، وإقامة العدل، والدفاع عن المظلوم ودفع شر الظالم عنه، وحمل المجتمع على العمل بالقسط، ورعاية حقوق الآخرين.

قال عبدالله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين علي(ع) بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: «*مَا قِيمَةُ هٰذَا النَّعْلِ*؟».

فقلتُ: لَا قيمةَ لَهَا.

فقالَ(ع):«*وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا*» (٣٢).

يتَّضح جلياً من هذه الأمثلة القليلة أن مدرسة الإسلام لا ترى التصعيد مختصاً

(٣٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٣.

بالغرائز المكبوتة والرغبات المنحّاة، بل ترى أن الرغبات الغريزية التي لا حظر على إشباعها قانونياً واجتماعياً، مشمولة بالتصعيد أيضاً، إذ كان تغيير اتجاهاتها يؤدي إلى تقوية مكارم الأخلاق، فطلبت إلى المسلمين أن يبدّلوا مواضيع تلك الغرائز بإرادتهم وتقصدهم، إلى مواضيع ذات أهداف أرفع، مما يكون باعثاً على سموِّهم المعنوي وتكاملهم النفسي.

وبعبارة أخرى، إن التغلُّب على هوى النفس، وتصعيد الغرائز المدمّرة، وتنحية الرغبات الفظة، وتغيير مسير دوافعها إلى مسير الإنسانية، كلها وسائل للوصول إلى مكارم الأخلاق والقيم الإنسانية. وقد ورد هذا المضمون في كثير من الأحاديث التربوية والأخلاقية.

قال رجل للنبيِّ(ص): خبِّرني عن مكارم الأخلاق، قال: «*العَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وصِلَةُ مَنْ قَطَعَكَ، وإعْطاءُ منْ حرَمَكَ، وقوْلُ الحَقِّ ولَوْ على نَفْسِكَ*»[٣٣].

وتنفيذ هذه الوصايا يستوجب أن يكون المرء مالكاً لإرادته، وأن يصعِّد غريزة الغضب، وحب الانتقام، والأنانية، والانتهازية، فلا يسمح لها بالعمل، ويطرد دوافعها من الوعي الظاهر، ويوجهها وجهة إنسانية.

إن الأهواء النفسية والغرائز المطلقة السراح في الإنسان، فخاخ منصوبة تخدم الشيطان والأفكار الشيطانية. إن الدوافع الغريزية والميول النفسية في الإنسان، عوامل مساعدة جداً على الوسوسة بالإثم والأعمال اللّا إنسانية. فلكي يحيا أهل الله حياة طاهرة ويحموا ضمائرهم من التفكير في المعصية،عليهم العزم عزماً حاسماً،مستعينين بالله تعالى، على كبح جماح الغرائز الطاغية، وتسخير الرغبات الحيوانية وقهرها بإرادتهم، وتصعيد الدوافع الغريزية، وتوجيه طاقاتها نحو الأخلاق الحميدة والسجايا الممدوحة.

---

(٣٣) مسند الامام ٩٨.

وهكذا نجد أن عباد الله الصادقين، المتسلّحين بسلاح الإيمان، يمسكون بزمام الغرائز المخرِّبة المختفية في أنفسهم، ويجعلونها تخدم مصلحة الإنسانية، ويتجنبون كل العوامل التي يمكن أن تُثير الوساوس الشيطانية، والأفكار الآثمة الخبيثة. ولعل الحديث التالي المنقول عن رسول الله(ص) يشير إلى هذا الأمر:

قال رسول الله(ص): *«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلّا وَلَهُ شَيْطَانٌ.*

قالُوا: وَأَنْتَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟

قالَ: *وَأَنَا، إِلّا أَنَّ اللهَ عزَّ وجلّ أَعَانَني عَلَيْهِ فأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرُني إِلّا بِخَيْرٍ»*[٣٤].

---

(٣٤) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٥: ٤٩.

مصادر الكتاب

١ـ الآمال الجديدة (آميدهاى نو). *لرسل ـ باللغة الفارسية.*

٢ـ الاخلاق والشخصية (اخلاق وشخصيت). *لجان ديوئي ـ باللغة الفارسية.*

٣ـ الإرشاد. *للشيخ المفيد.*

٤ـ أمالي. *للشيخ الصدوق.*

٥ـ الانسان ذلك المجهول (انسان ناشناخته). *لألكسيس كارل ـ تعريب: عادل شفيق.*

٦ـ بحار الانوار. *للعلامة المجلسي.*

٧ـ تتمة المنتهى. *لأحمد ابي يعقوب.*

٨ـ تحف العقول. *للحسن بن شعبة الحراني.*

٩ـ تفسير البرهان. *للسيد البحراني.*

١٠ـ تناقضاتنا الداخلية (تضادهاى درونى ما). *لكارن هوناي ـ باللغة الفارسية.*

١١ـ الجاهلية والاسلام (جاهليت واسلام)ـ *باللغة الفارسية.*

١٢ـ جعفريات ـ *باللغة الفارسية.*

١٣ـ جوامع الحكايات. *لمحمد عوفي.*

١٤ـ جواهر الكلام. *تأليف: الشيخ محمد حسين النجفي.*

١٥ـ حياة الحيوان. *للآمدي.*

١٦ـ دستور الاخلاق في القرآن.

١٧ـ سفينة البحار. *للشيخ عباس القمي.*

١٨ـ سير الحكمة في اوربا (سير حكمت در اوربا). *لمحمد علي فروغي ـ باللغة الفارسية*

١٩ـ السيرة النبوية. *لأبن هشام.*

٢٠ـ شرح نهج البلاغة.لأبن ابي الحديد .
٢١ـ الصحيفة السجادية.للأمام السجاد(ع) .
٢٢ـ صحيفة اطلاعات (روزنامه اطلاعات)ـ الايرانية .
٢٣ـ صحيفة كيهان (روزنامه كيهان) ـ الايرانية .
٢٤ـ الاخلاق والشخصية (اخلاق وشخصيت)ـ لجان ديوئي ـ باللغة الفارسية.
٢٥ـ طهارة الاعراق.
٢٦ـ علم النفس لفرويد (روانشناسى فرويد)ـ باللغة الفارسية.
٢٧ـ علم النفس الاجتماعي (روانشناسى اجتماعى)ـ باللغة الفارسية.
٢٨ـ علم الاخلاق أو الحكمة العملية (علم اخلاق يا حكمت عملى)ـ باللغة الفارسية.
٢٩ـ غرر الحكم ودرر الكلم.للآمدي .
٣٠ـ فرويد ومذهب الفرويدية (فرويد وفرويدسم)ـ باللغة الفارسية.
٣١ـ فهرست الغررـ باللغة الفارسية.
٣٢ـ قاموس اللغة (لغت نامه).لأسلوب الحكيم .
٣٣ـ قانون الحياة (آئين زندگى).لديل كارينجي ـ باللغة الفارسية.
٣٤ـ قرب الاسناد.لأبي العباس الحميري .
٣٥ـ الكافي.للشيخ الكليني .
٣٦ـ الكامل في التاريخ.لأبن الأثير .
٣٧ـ كتاب الانسانـ باللغة الفارسية.
٣٨ـ كتاب فرويدـ باللغة الفارسية.
٣٩ـ كيف تكسب الاصدقاء (آئين دوست يابى).لديل كارينجي ـ باللغة الفارسية.
٤٠ـ لسان العرب.للعلامة ابن منظور.
٤١ـ ماذا أعلم؟ الامراض الروحية والعصبية (بيماريهاى روحى وعصبى)ـ باللغة الفارسية.
٤٢ـ ماذا أعلم؟ تربية الاطفال المشكل (تربيت اطفال دشوار)ـ باللغة الفارسية.
٤٣ـ ماذا أعلم؟ نحن واطفالنا (ما وفرزندان ما)ـ باللغة الفارسية.
٤٤ـ مباهج الفلسفة.لويل ديورانت ـ باللغة الفارسية.
٤٥ـ المجلة الدولية (مجلة انترناشناليست) ـ باللغة الفارسية.

٤٦ـ مجموعة ورام. *للورام*.
٤٧ـ مجمع البيان. *للطبرسي*.
٤٨ـ المحجة البيضاء. *للفيض الكاشاني*.
٤٩ـ افكار فرويد (انديشهاى فرويد). *للأستاذ الفرنسي ادكاربش ـ باللغة الفارسية*.
٥٠ـ مروج الذهب للمسعودي.
٥١ـ مستدرك الوسائل. *للحر العاملي*.
٥٢ـ مشكاة الانوار. *للشيخ علي الطبرسي*.
٥٣ـ المستطرف في كل فنٍ مستظرف. *للابشيهي*.
٥٤ـ مصير البشرية (سرنوشت بشر). *للكنت دونوئي ـ باللغة الفارسية*.
٥٥ـ معاني الاخبار. *للشيخ الصدوق*.
٥٦ـ معجم البلدان. *لياقوت الحموي*.
٥٧ـ مفاتيح الجنان. *للشيخ عباس القمي*.
٥٨ـ مقدمة على فلسفة التربيـة والتعليم (مقدمه اى بر فلسفه آموزش وبرورش)ـ *باللغة الفارسية*.
٥٩ـ مكارم الاخلاق. *للشيخ الطبرسي*.
٦٠ـ منتخب الاثرـ *باللغة الفارسية*.
٦١ـ منهاج الصالحين. *للسيد الخوئي*.
٦٢ـ منهج الحياة وتقاليدها (راه و رسم زندگى). *لألكسيس كارل ـ باللغة الفارسية*.
٦٣ـ ناسخ التوايخ. *لميرزا تقي خان لسان سبهر*.
٦٤ـ نظرة الاسلام الاخلاقية (تنورى اخلاق اسلام)ـ *باللغة الفارسية*.
٦٥ـ نهج البلاغة. *الامام علي بن ابي طالب(ع)*.
٦٦ـ نهج الفصاحة.
٦٧ـ النمو والحياة (رشد وزندگى). *لأوستاس شيسر ـ باللغة الفارسية*.
٦٨ـ وسائل الشيعة للحر العاملي.

فهرس الموضوعات

الفصل الحادي عشر: الاخلاق ومعرفة الذات ٥

معرفة الذات ٦

اصالة المادة او المعنى ٨

الانسان مادياً ومعنوياً ١٠

معرفة شرف المعنى ١٢

برنامج معرفة الله ١٤

الجمع بين الدين والدنيا ١٦

كلام جريء ١٨

الاخلاق بعيداً عن الدين ٢٠

الاخلاق والعلوم المادية ٢٣

اعراض المدنية الصناعية ٢٨

مرض الكآبة ٢٩

العلماء ينتقدون ٣١

الانسان والمدنية الصناعية ٣٤

الفصل الثاني عشر: الايمان العاصم ٣٧

الشرك في العبادة ٤٢

التوحيد في العبادة ٤٥

الشرك في الطاعة ٤٥

معرفة التوحيد والشرك ٥٠
التزام الطاعة ٥٤
الفصل الثالث عشر: نسيان النفس ٦٣
رأس مال الانسان ٦٥
الماديون ٦٨
الإلهيون ٦٩
عقيدة الماديين ٧٠
الإلهيون الغافلون ٧٣
الصلاة في الاديان ٧٧
لماذا نعبد الله؟ ٧٩
لا حدود لذكر الله ٨١
الفصل الرابع عشر: في الرياء ٨٧
الاحساس بالحقارة ٩٠
المرائي قلق الضمير ٩٢
الشرك الخفي ٩٥
الرياء في الاخلاق ١٠٣
الفصل الخامس عشر: التكلف ١١١
التكلف الممدوح ١١١
تأثيرات تعب الدماغ ١١٨
القضاء ١٢٩
اكتناز المال ١٣٢
العلائق الاجتماعية ١٣٤
الفصل السادس عشر: القلق المعقول والموهوم ١٣٧
عجز الانسان ١٣٩
جهل الانسان ١٤٠
الاسلام والسحر ١٤٢

القلق المعقول ١٤٣
التغلب على القلق ١٤٨
الاسلام والقلق ١٤٨
العالم الذي نعيش فيه ١٥٠
حكايات من التاريخ ١٥٤
الحوادث المفاجئة ١٥٦
طلب الرزق ١٥٨
خلاصة البحث ١٥٩
الفصل السابع عشر: علاج القلق ١٦٣
القلق او الكارثة الكبرى ١٦٤
الاسلام ومكافحة القلق ١٦٦
البشاشة علاج القلق ١٧٨
طريقة اخرى ١٨٠
هل تكفي وصايا علماء النفس ؟ ١٨٢
الفصل الثامن عشر: تدبر المستقبل ١٩١
التفكر سمة الانسان ١٩٣
الفصل التاسع عشر: الانتقام ٢١٥
الفصل العشرون: الانسانية والسمو بالغرائز ٢٤١
مصادر الكتاب ٢٦٧
فهرس الموضوعات ٢٧١